الرسائل الصغرى

للشيخ ابن عباد الرندي

نشرها

الأب بولس ع. نويا اليسوعي



المطبعة الكاثوليكية - بيروت

الرسائل الصغرى

بحوث ودراسات
بإدارة معهد الآداب الشرقية في بيروت
٧

الرسائل الصغرى

للشيخ ابن عباد الرندي

نشرها
الأب بولس ع. نويا اليسوعي



المطبعة الكاثوليكية - بيروت
١٩٥٧

إلى أصدقائي المغربيين

هذه الرسائل المقتبسة من تراثهم الروحي

مقدّمة

عُرف الشيخ الصوفي ابو عبد الله محمد بن عبّاد النفزي الحميري الرندي (٧٣٣–٧٩٢ هـ/ ١٣٣٢–١٣٩٠ م) خاصة « بالتنبيه » الذي وضعه على « حكم » ابن عطاء الله السكندري († ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م) ، ذلك التنبيه الذي قال عنه الشيخ احمد زروق († ٨٩٩ هـ/ ١٤٩٤ م) انه « بستان الفن وخزانة احكامه وجامع لبّه ، لا يكفي غيره عنه ويكفي هو عن غيره »[١] وان « كل من كتب على هذا الكتاب (اي الحكم) شيئاً ممن لقيناه او سمعنا به فانما هو دونه في القصد والتحقيق ... وما انا في كل ما اكتبه الا خلف ركابه وسائل ممدود اليد اليه خلف ابوابه »[٢] .

غير ان « التنبيه » رغم شهرته ورغم ما له من المكانة العليا في تاريخ التصوف الاسلامي[٣] لا يكوّن اهم ما وصلنا من الشيخ ابن عباد . فقد جمُعت من قلمه رسائل صوفية اقل ما يقال فيها — حسب رأي أسين پلاسيوس — انها لا مثيل لها في التراث الصوفي[٤] وانها فريدة من نوعها في هذا الفن الذي لم يلتفت اليه بعد المستشرقون وغير المستشرقين . فلو لم يكن لها الا هذه الخاصية فهي خليقة بان تجلب انظار كل من له اقبال على تاريخ التصوف واهتمام بهذه النزعة الروحية .

ونحن نظن ان درس رسائل ابن عبّاد ضروري لكل من يريد ان يقف مباشرة على طوايا قلوب الصوفية ويتبين من خلال مكاتبات شخصية ما هو هذا الجهاد الاكبر الذي قاموا به في سبيل التقرب الى مولاهم وما هي الصعوبات النفسية التي يلاقونها والازمات الضميرية التي يمرون بها قبل الوصول الى بغيتهم

---

(١) عن « سلوة الانفاس » للكتاني ج٢ ص ١٣٦ .

(٢) « كتاب مفتاح الفضائل والنعم في الكلام على بعض ما يتعلق بالحكم» مخطوطة الاسكوريال رقم ٧٧٦ ص ٤ أ .

(٣) انظر مقالة آسين بلاسيوس عن ابن عباد في مجلة « الاندلس » ١٩٣٣ ص ٧–٧٩ .

(٤) اكثر الرسائل الصوفية المعروفة حتى الآن رسائل شيخ الى شيخ آخر او واصل الى واصل . اما رسائل ابن عباد فرسائل شيخ واصل الى مريد مسترشد . تلك رموز واشارات اما هذه فارشاد ونصائح . ومن هذه الناحية فنحن لا نعرف لها مثيل .

والظفر بالمشاهدات الوجدانية . كما ان درس هذه الرسائل ضروري لمن يريد ان يعرف ما كانت في الواقع آداب الشيخ مع مريده وكيف كان الشيخ يعامل مريده في ارشاده وحول اي موضوع كان يدور هذا الارشاد .

وللشيخ ابن عبّاد مجموعان من الرسائل دُعي الواحد منهما « بالرسائل الكبرى » والآخر « بالرسائل الصغرى » لاختلافهما في الحجم . وقد طبع المجموع الاول في فاس سنه ١٣٢٠ هـ في ٢٦٢ صفحة . وها نحن نقدم هنا طبعة الرسائل الصغرى التي لم تكن حتى الآن معروفه خارج المغرب .

يحتوي هذا المجموع على ست عشرة رسالة وقد بيّنا في كتاب آخر درسنا فيه بالتطويل تآليف ابن عبّاد(١) ان الرسائل الستة الاولى قد وجهها ابن عبّاد الى صديق له يدعى محمد بن اديبة لم نقف على ترجمته وان التسعة الاخرى كتبت الى المحدث الرحالة يحيى السراج († ٨٠٣ او ٨٠٥ هـ/ ١٤٠٠ م او ١٤٠٢) احد تلاميذ ابن عبّاد المعروفين(٢) . اما الرسالة الاخيرة فقد ارسلها ابن عبّاد الى الشيخ الشهير شرقاً وغرباً ابي اسحق ابراهيم الشاطبي († ٧٩٠ هـ/ ١٣٨٨ م) وكان هذا قد استشاره من غرناطة بخصوص حوار وقع بين صوفية تلك المدينة حول « مسئلة سلوك طريق الصوفية هل يصح بدون شيخ » او تكفي فيه قراءة كتب القوم .

اما تاريخ هذه الرسائل فلا نعلمه بالتحقيق . ولكن لاسباب يطول ذكرها هنا نظن انها كتبت من سلا قبل سنة ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨ م .

واليك الآن كلمة عن المخطوطات التي اعتمدنا عليها في اخراج نص الرسائل الصغرى :

إ = مخطوطة الاسكوريال رقم ٧٤٠ ، ٢ً ص: ١٨٣ أ – ٢٣٥ أ (انظر وصفها في قائمة الاسكوريال لدرنبور) . وهي بلا تاريخ . ظنها الاستاذ أسين پلاسيوس معاصرة للشيخ ابن عباد لما يُذكر في اول المجموع انه كان ملكاً للسلطان ابي فارس . غير ان هذا ابا فارس ليس المريني كما خيل الى الاستاذ أسين بل السعدي ابن ابي العباس احمد المنصور الذهبي (+ ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م) كما يشهد بذلك ما نقرأ في اول المجموع : « ملك لله بيد عبده ابي فارس امير المؤمنين (ابن) احمد المنصور امير المؤمنين ... » . وهذا ابو فارس اخو مولاي زيدان الذي جرت في ايامه الحوادث التي ادت بالمكتبة الاميرية الى الاسكوريال كما هو معروف . وان لم تكن هذه المخطوطة من العهد المريني وأقدم

---

(١) سيظهر هذا الكتاب عما قريب باللغة الفرنسية .

(٢) « كتاب الاساليب » للشيخ ابن السكاك (+ ٨١٨ هـ/١٤٥ م) ، مخطوطة الاسكوريال رقم ٣٨٤ ص ١٢٧ب .

من مخطوطاتنا الاخرى فهي على كل حال معاصرة لاقدمها . ومما يدل على قيمتها هيئتها المتقنة وخطها الاندلسي الفاخر ودخولها الخزانة الاميرية. لهذا جعلناها النص الاساسي لطبعتنا واتبعناها كلما كان اتباعها غير مخل بالمعنى .

ق = مخطوطة كلية القرويين بفاس رقم ٧٨٧(١) ص ا ب – ٥٢ ب . طولها ٢٨ س وعرضها ٢٠ س . في كل صفحة ٢٣ سطراً . بخط مغربي سيء . قد عملت فيها العث في اماكن كثيرة . وهي بغير تاريخ لانه تتبعها مجموعة الرسائل الكبرى وقد سقطت منها الصفحات الاخيرة . غير ان عليها تاريخ دخولهـا خزانة القرويين اذ اوقفها على الجامع ابو العباس احمد المنصور الذهبي سنة ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م .

ف = مخطوطة سيدي العابد الفهري الفاسي . مكتوبة بتاريخ ١٠٨٣ هـ/١٦٧٢ م وبخط مغربي جميل متقن . شكلت فيها جميع الكلمات . وقد كتب في اولها بخط مختلف ان ناسخها الشيخ الشهير ابو عبدالله محمد المهدي († ١١٠٩ هـ/١٦٩٨ م) . ويظهر من بعض ملحوظاتها انها نسخت عن اصل نسخ عن اصل آخر « عليه خط المؤلف » . ونحن نشكر صاحبها الكريم الذي ساعدنا على مقابلتها مع مخطوطة الاسكوريال عند مرورنا بفاس .

ر = مخطوطة خزانة الرباط العامة رقم ١٠٧٣ (D ١٧١٧) ص ا ب – ٧٥ ب (انظر وصفها في القائمة) . يقرأ في آخرها : « انتهى كتاب الرسائل الصغرى (...) على يد العبد الفقير (...) عبد الرحمن بن ابي القاسم بن ابي علي بن احمد الجابري ثم المصلي نسباً المالكي مذهباً (. . .) وكان الفراغ من نسخه ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من شهر شوال الذي من عام اثنين والف سنة...» (١٥٩٣ م) .

س = مخطوطة سيدي عبد السلام بن سوده من فاس (ص ا ب – ٣٩ أ) . مكتوبة بتاريخ ١٢٦٥ هـ ا ١٨٧٨م وبخط فاسي دقيق . يظهر انه كان بيد الناسخ اصلان : أصل نجهله وأصل هو نسخة سيدي ابي عبد الله محمد المهدي الفاسي (انظر ص ٣١ب) . على كل فهي تشابه كل المشابهة هذه النسخة الأخيرة . غير ان ناسخها زاد في اول كل رسالة : « وله ايضاً رضي الله عنه » الشيء الذي لا يرى في غيرها . كما انه ادخل بعض التغاير في نظام الرسائل كما اشرنا اليه في محله . ونحن نشكر لطف صاحب هذه النسخة الذي اعارنا اياها طيل سنة كاملة .

وما عدا هذه المخطوطات التي اعتمدنا عليها فقد اطلعنا ايضاً على مخطوطات اخرى اهملناها في اخراج نصنا لحداثة تاريخها وهي هذه :

١ : مخطوطة الشيخ عبد الحي الكتاني مكتوبة بتاريخ ١١٢١ هـ/ ١٧٠٩ م كما يقرأ ذلك في آخرها وقد محي فيها اسم الناسخ . وهي بخط فاسي جيد . تقع في مائة صفحة تحتوي كل واحدة منها على ٢٣ سطراً . لم نرها بأعيننا وانما لنا منها صورة « ميكروفيلمية » .

٢ : مخطوطة خزانة الرباط العامة رقم ٦٧٣ ص ٥٨ب – ١١٦ أ (انظر وصفها في القائمة) . وهي بلا تاريخ غير ان الورق والحبر والكتابة يدلون على انها حديثة جداً .

---

(١) يقابل في قائمة الاستاذ بيل (Bel) ١٩١٨ م رقم ١٨٤٩ . في هذه القائمة تذكر نسختان من الرسائل الصغرى . ولكن الواحدة منها لم يبق لها أثر !

٣ : مخطوطة صديقنا الاستاذ ادريس الادريسي مكتوبة بتاريخ ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م وبخط فاسي دقيق صعب القراءة .

هذه المخطوطات الثلاثة قارنّاها مع بعض المخطوطات السابقة فرأينا انهـــا لا تأتي بشيء جديد فتركناها جانباً .

وقد الحقنا بالرسائل الصغرى ثلاثة نصوص اليك كلمة عنها :

– الملحق الاول يحتوي على نص فتوة يجيب فيها ابن عباد عن سؤال في التقليد وعلم الكلام وجدناها في مخطوطة خزانة الرباط العامة رقم ١٠٧١ (D ٨٩١) ص ١٩٢ أ – ١٩٢ب .

– الملحق الثاني يحتوي على نص بعض رسائل ابن عباد لم تنسخ في مجموعة الرسائل الكبرى والصغرى . اوردها الونشريسي في كتاب المعيار (ج ١١ ص ١٣٥–١٤٠) ولا ندري اين اخذها . وهي موجهة الى الشيخ ابي العباس المراكشي الذي لم نقف على ترجمته .

– الملحق الثالث يحتوي على نص مختلف للرسالة السادسة عشرة الموجهة الى ابي اسحاق الشاطبي اورده ايضاً الونشريسي في كتاب المعيار (ج ١٢ ص ٢٠١–٢١١) . والظاهر ان هذا النص هو الاصل المرسل الى غرناطة وان ابن عباد اختصره بعد ذلك ليوضع في مجموعة الرسائل الصغرى . وهناك ايضاً نص ثالث لهذه الرسالة وجدناه في مخطوطة خزانة الرباط العامة رقم ١٠٧١ (D ٨٩١) ص ١٩٥ أ – ١٩٨ب . وهو مختصر آخر يماثل تارة نص الرسائل الصغرى ويبتعد عنه تارة اخرى فيشابه نص الونشريسي . ولم نورده هنا لان في النصين الآخرين كفاء عنه .

واليك اخيراً قائمة رموزنا :

أ = مخطوطة الاسكوريال .

ق = مخطوطة القرويين .

ف= مخطوطة سيدي العابد الفهري الفاسي .

ر = مخطوطة الرباط رقم ١٠٧٣ .

س= مخطوطة سيدي ابن سوده .

خ = قراءة مختلفة ذكرت على هامش نسخة. نذكر هذا الحرف بعد الحرف الرامز الى مخطوطة.

ط = طرة ذكرت على هامش نسخة . نذكر هذا الحرف بعد الحرف الرامز الى النسخة .

+ = كلمة زائدة .

– = كلمة ناقصة .

فيما يخص القرآن مراجعاتنا ترمز الى طبعة فلوكل .

الاب ب. ع. نويا اليسوعي

(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى[1] الله على سيدنا ومولانا[2] محمد وعلى[3] آله وصحبه وسلم .

[الرسالة الاولى]

كتاب فيه جواب سؤال اورده بعض الناس على مسئلة في كتاب قوت القلوب في باب الخوف منه. وفيه زيادة مفيدة يحتاج اليها المريد في مخالطة بعض الناس[4]

اسلم عليكم كثيرًا وأسأل ربي عز وجل لي ولكم من تمام التوفيق والهداية الى سواء الطريق وما[5] يتكفل بنجاح الآمال[6] وصلاح الاعمال[7] .

اما بعد فقد وصلني منكم كتاب وانتم تطلبون فيه بيان المسئلة الواقعة في كتاب ابي طالب البيان الشافي . والكلام فيها حسب ما طلبتموه عظيم الخطر كثير الضرر لتضمنه كشف اسرار مصونة ونشر علوم مكنونة. ثم هو متعذر علي جدًا لاستدعاية كشف بواطن الصفات ومعاني اسامي الذات ولا يدرك تحقيقها الا بانوار اليقين ولا يهتدى لطريقها الا ببضاعة الصديقين ومن الذي يقدر منا على سلوك مسلكهم او الانتظام في سلكهم وقد حجبتنا الشهوات واسترقتنا العادات ووقفنا مع الرسوم والطلول ومنعنا عن الوصول بتضييع الاصول واغتالتنا الاعداء والاهواء بفنون التزيين والاغواء فعميت[8] البصاير واظلمت السراير . فان رمنا تحقيق ما طلبتموه من البيان على طريق الكشف والعيان تعدينا طورنا وتجاهلنا قدرنا ووقعنا في سخف الدعاوي التي تشين العاقل وتبين جهل الجاهل ولم تحظوا من ذلك[9] بطايل : وان احلنا في ذلك على اهل الظاهر وجدناهم لا يشفون غليلًا ولا يهتدون سبيلًا لوقوفهم مع عقولهم وجمودهم على آرايهم . ثم كان في ذلك من سوء الادب والنكوص على العقب

---

١) ق : صلى ‖ ٢) ق ر : — ومولانا ‖ ٣) س : — وعلى ‖ ٤) ف : + فهذه الرسائل الصغرى ‖ ٥) إ : وما ‖ ٦) إ : الأعمال ‖ ٧) ر : الأحوال ‖ ٨) إ : وعميت ‖ ٩) إ : — من ذلك ‖

ما يقضي بالحرمان ويفضي الى نقصان الايمان . فلم يبق لنا في هذه المسئلة نصيب[1] الا التسليم لاهله واستعمال حسن الظن في محله والتماس الفتح من الفتاح العليم والهداية الى صراطهم المستقيم مع اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه وهو طريق مخصوص بالسلامة من الآفات مخلص لامثالنا من ارتكاب[2] الجهالات متضمن حسن الادب مع الاولياء والسادات مؤد الى مرتبة شريفة من مراتب الولايات . وقد قال الجنيد : التصديق بعلمنا هذا ولاية . (2)

لاكن لتعين اجابتكم عليّ اذكر مما فهمته من هذه المسألة نبذة لايقة بالحال رافعة للاشكال مانعة من اعتقاد المحال ولا اتعرض الى ما[3] وراء ذلك. فان اصبت الحقيقة فمن قبل المدد الالهي وان اخطأتها فمن اجل العجز البشري وربنا عز وجل المحمود في الحالين .

فنقول: هذه المسئلة عظيمة الموقع في علم التوحيد جليلة الخطر عند الموقنين من اهل التفريد جارية على اصول اهل الحق حاوية لمعاني الصدق صادرة عن ذي يقين وايمان وشهود وعيان لم يدع في بيانها سبيلًا الا سلكه ولا حجاباً الا هتكه وقد تبعه الغزالي على مذهبه وافرغها في قالبه فذكرا المكر ووصفاه بعظم القدر وقد نسبه الحق تعالى الى نفسه في مواضع من كتابه كما نسب الابتلاء والفتون والكيد اليه ومعاني هذا الكلم من معاني صفتي المشيئة والعلم ولها[4] من التقديس والتنزيه والتعالي عن التمثيل والتشبيه ما لهي .

ولنقدم ها هنا مقدمة وهي ان الباري تعالى خلق الانسان وجعله مشتملًا على صفات الكمال والنقصان[5] وكلها ناقصة بالاضافة اليه سبحانه[6] ثم هيأه لمعرفته ومعرفة صفاته[7] واسمايه بما ركب فيه من العقل الذي به يدرك العلوم النظرية وارشده الى النظر في الآيات والاعتبار بالمصنوعات فلما نظر فيها ظهر له من العجايب والغرايب ما اضطره الى الاعتراف بصانع مبدع وخالق مخترع متصف بحياة وعلم وقدرة وارادة حسبما شاهد نفسه اذا فعل فعلًا محكماً متقناً . ثم نظر ايضاً الى نفسه فرأى فيها صفات كمالية من سمع وبصر وكلام فاضطره[8] شهود

١) إ : – نصيب ‖ ٢) س : ركوب ؛ خ : ارتكاب ‖ ٣) إ خ ف ر : لما ‖
٤) ر س : ولها ‖ ٥) ف ق ر س : كمال ونقصان ‖ ٦) ف ق ر س : – سبحانه ‖
٧) ر : صفته ‖ ٨) إ : اضطره ‖

الالوهية[١] الى ان وصف خالقه ومبدعه بها. ثم لما رأى تفاوتاً عظيماً بين الحادث
والقديم والمخلوق والخالق اضطره ذلك الى اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه فادرك حينئذ
من تنزيه باريه تعالى وصفاته ما يليق بادراكه فحصل من ذلك على مرتبة عليا وغاية
قصوى فيما يعتقد ويرى فهذه كيفية النظر والاعتبار والاستدلال على المؤثر بالاثر[٢]
وهو منهج سابل لكل عامي عاقل كاف في الوصول الى اصل المعرفة الموجبة
لحصول النجاة ونيل الدرجات الا انه معرض لقبول التشكيك في الاعتقاد خال (3)
عن انشراح الصدر وثلج الفؤاد .

ثم اختص الحق تعالى بعض عباده بان ألاح لهم من نوره ما لم يحتاجوا معه الى تأمل دليل وسلكوا بـه من معرفته اوضح سبيل فشاهدوا من عجائب الصفات ومعاني اسامي[٣] الذات ما لم يشاهده[٤] الاولون وادركوا من جمال الحضرة الربوبية والانوار القدسية ما عجز عن ادراكه المستدلون وقالوا لهم : كيف تستدلون عليه بما هو مفتقر في وجوده اليه متى غاب حتى يحتاج الى دليل عليه ومتى فقد حتى تكون الاثار هي التي توصل اليه ايكون لغيره من الظهور ما ليس له حتى يكون هو المظهر له كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف ام كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء ام كيف يتوسل اليه بمتوسل بعيد وهو اقرب من حبل الوريد « او لم يكف بربك انه عـلى كل شيء شهيد »[٥] . ومع ذلك فلم يحصلوا من معرفته الا على الاسماء ولم يصلوا بما نالوا من توحيده وتنزيهه الى غاية الحمد والثناء فشاهدوا وجود ما سواه عدما وثبوت غيره نفيا وشهوده زورا وادراكه غرورا وذكره نسيانا وزيادته نقصانا ورأوا بيقين العيان وواضح البرهان صدق قول من قـال : كان الله ولا شيء معه وهو الان على ما عليه كان

فلما وصلوا الى هـذا المقام حصلوا في قبضة الملك العلام فحررهم من رق الآثار وافناهم عن الاغيار وطهر منهم الاسرار وتجلى لهم الحق سبحانه بمحاسن الصفات والاسماء واطلعهم من علمه على ما شاء فقاموا على قدم العبودية بين يدي مولاهم ووقفوا موقف المراقبة لمن يعلم سرهم ونجواهم وصفوا في مصاف

---

١) ف ق ر س: الأَولويـة ‖ ٢) ف ر س: الأَثار ‖ ٣) ر: — اسامي ‖ ٤) ر: يشاهد ‖ ٥) قرآن : ٤١:٥٣ ‖

الخدمة مع الصافين المسبحين وفازوا بافضل منازل العابدين[1] وانشدوا بلسان حالهم ومقالهم :

كَانَتْ لِقَلْبِيْ أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَة : (الابيات). فهنيئاً لهم ماذا خصوا به من منازل الاحباب وماذا سبق لهم في ام الكتاب من حسن المآب .

(4) فبان بهذا تباين الطريقتين وفرقان مــا بين المذهبين اذ عمدة الاول نظر العقل الى وجــه الدليل ولا يدرك الا بنوع من القياس والتمثيل وهو معلول عند ذوي التحصيل : ومعتمد الثاني نور اليقين ولا يتراءى به الا الحق المبين وهو اعز ما نزل في قلوب خواص المومنين من السماء وبــه تدرك حقيقة[2] الصفات والاسماء .

فاذا فهمت هذه المقدمة فاعلم ان اعتراض من اعترض عــلى الشيخ ابي طالب من الوجه الذي ذكرتموه عنه ساقط عــلى مذهب الخاصة لان هذه المسئلة مبنية عليه وراجعة اليه وهو على غير قياس العقول وعــلى غير ترتيب المعقول. نعم وهو ايضاً ساقط على مذهب اكثر[3] العامة لان[4] كلامه في هذه المسئلة غير خارج عن طور العقل .

اما قوله : « ولا نهاية لمكر الله لان مشيئته واحكامه لا غايه لها » فانه باب من تنزيه علم الحق تعالى وكلامه ومشيئته واحكامه عن الادراك والاحاطة ولاجل ذلك مــا خاف النبي[5] وجبريل عليهما السلام من مكر ربهما عز وجل مع ظهور التأمين فهو خوف لازم لا يتصور الانفكاك عنه لانه من مقتضيات الايمان والعلم بحقائق الصفات ومعاني اسامي الذات. فمن كان حظه منها اوفر كان خوفه اكثر وقد قال بعض العارفين[6] : من عرف الله تعالى لم يسكن اليه لانه[7] ضرب من الامن ولا يأمن مكر[8] الله[9] الا القوم الخاسرون وقــال غيره[10] : خف ربك خوفاً تامن به من كل شيء واحذر قلبك ان يامن من الله تعالى في شيء. فلا معنى للخوف من شيء ولا الامن من الله تعالى في شيء[11] .

١) ف ر س : العارفين ‖ ٢) ف س ر : حقايق ‖ ٣) ف ق ر س : — اكثر ‖ ٤) ف ق ر س + اكثر ‖ ٥) س : + صعلم ‖ ٦) ف ق ر س : العلماء ‖ ٧) س : لان في السكون اليه ضرباً من الأمن : ط : الأصل كذا . وما ثمه « لأنه ضرب » من سبق القلم ‖ ٨) ف : مكره ‖ ٩) ف : — الله ‖ ١٠) إ ط : هو سيدي ابو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ‖ ١١) إ : — فلا معنى . . . شيء ‖

فلا جرم لم يكن ليزيل خوفها ظاهر قوله : « قد امنتكما » لان ظاهر القول لا يقضي على باطن الوصف الموجب للخوف اذ قد يكون اطلاقه على وصف مخصوص قد انفرد الحق تعالى بعلمه حسبما ذكره الشيخ ابو طالب . وهذا باب من تنزيه الكلام لا يسع انكاره اذ لا تمتنع[1] في العقل ان يردد عن الحق تعالى كلام لا تحيط به الافهام . وتكون فايدة ذلك في مسئلتنا اختبارهما وابتلاؤهما لينظر حالها في مراعاة حقوق الصفات في تقلب الحالات على ما جرت به سنته مع خواصه[2] كقصة ابراهيم عليه السلام . وكل ذلك غير مستحيل في العقل فكيف يتوهم فيه الخلف . ثم فيه من اظهار الافتقار الى ربهما[3] عز
(5) وجل ما لا خفاء به وهو مقام رفيع اقام الحق فيه نبيّه عليه السلام في اغلب احواله وهو اتم من اظهار الغنى به لان الفقر اليق بالعبودية من الغنى لانه من اوصاف الربوبية على حسب ما ذكره ايمة الصوفية . فلا يبعد على هذا ان يعلم الحبيبان عليهما السلام بما كشف[4] لهما في تلك الحالة من صفة الاستغناء ومشاهدة الجلال والكبرياء ان مراد الحق تعالى منهما في ذلك الوقت اظهار الافتقار واستشعار المذلة والانكسار فلذلك ظهر عليهما من الحال والمقال ما ظهر .

وقوله : « ولان الحق تعالى لا يدخل تحت الاحكام ولا يلزمه ما حكم[5] به على الانام » باب آخر من تنزيه الذات عن لوازم المحدثات لان له الفاعلية المطلقة والفوقية التامة فلا يدخل تحت حكم لانه الحاكم فكيف يكون محكوماً لحكم[6] او داخلًا تحت رسم ولا يختبر صدقه بقول ولا فعل لانه المصدق لكل ذي صدق والمحقق لكل ذي حق فكلامه كله صدق وحق حقيقة ولفظا لا لفظا فقط وان خفي علينا معناه وغاب عنا فحواه وهذا واجب في حقه تعالى . وبهذا يدفع[7] الاعتراض على قول الشيخ ابي طالب ولا يجوز ان يوصف بضد الصدق انه لم يمنع الا وصفه باللفظ بمجرده .

وقوله : « ان بدل الكلام هو تبديل منه » الى آخره كلام صحيح بديع في معنى التوحيد خارج عن طور العقل فلا يلزمه عليه تجويز نسخ الاخبار كما توهمه بعضهم .

---

١) ف ق ر س : يمتنع || ٢) ق : خاصته || ٣) س : ربه || ٤) ف ر س : كوشف || ٥) س : يحكم ؛ خ : حكم || ٦) س : بحكم || ٧) ر س : يندفع ||

واما الحديث المذكور فلا علم لي بصحته ولا من خرجه من أهل الحديث وانما اورده على مذهبه من ان الحديث المشهور اذا لم ينافه كتاب ولا سنة تقوم به الحجة ويجب القول به والعمل وان كان في سنده مقال وكذلك المقطوع والمرسل . وقد ذكر في ذلك عن احمد بن حنبل وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهما غير شيء في كتاب العلم .

(6) على انه لا حاجة بنا الى تعرف[١] ذلك لوضوح المعنى فيه وانتفاء الاشكال عنه حسبما قررناه والعجب ممن ينكر هذا الحديث لعدم فهمه له واعتقاده[٢] ثبوت الاستحالة فيه ومعناه كالمقطوع به فان تامين الحق تعالى لهما لا استرابة فيه ويكفي في ذلك سمو رتبتها وعلو درجتها وارتفاع منزلتها الى غير غاية ونهاية .

وخوفها من مكره معلوم ايضاً بقضية العقل فلم يبق الا صورة الكلام من السؤال والجواب والامر في ذلك قريب . فكل ما يجاب به عن هذا الالزام فهو جوابنا عن[٣] الحديث وقد ادخل الغزالي في هذه المسئلة بعد ذكر هذا الحديث والكلام عليه حديث دعاء النبي عليه السلام[٤] ربه يوم بدر وقوله « ان تهلك هذه العصابة لا تعبد » مع تقدم الوعد له من ربه عز وجل بنصره وظهوره ومعنى هذا الحديث في الصحيح والكلام عليه كالكلام على الاول الا ان معنى الافتقار فيه اظهر .

واما قصة موسى عليه السلام وخوفه بعد التأمين فهي من جنس ما تقدم من تنزيه علم الحق تعالى وكلامه ومشيئته واحكامه واظهار الافتقار الى ربه وعلو مقامه وهو معنى قول الشيخ ابي طالب : « فلم يامن موسى » الى قوله « لمعرفة موسى بخفي مكره وباطن وصفه » .

وقوله : « ولعله انه لم يعطه الحكم » معناه انفراد الحق تعالى باسم الحكم[٥] اذ الحكم نوع قهر وهو القاهر فلو لزمه حكم او احتج به عليه كان محكوماً فيكون مقهورًا ويتعالى ربنا عن ذلك علوًا كبيرًا .

ولا يلزم في الخطاب الثاني ما لزم في الاول على حسب ما توهمتموه لاحتمال

---

١) س خ : استعلام || ٢) إر : واعتقاد || ٣) ف : + هـذا || ٤) ر س : صعلم || ٥) س : — معناه . . . الحكم ||

اشتمال الثاني على سر من اسرار الحق تعالى اوجب طمأنينة موسى عليه السلام وسكونه وانتفاء خوفه وامنه اكراماً له ولطفاً به وانفاذاً لما شاء من احكامه .

وقد نبه عليه الشيخ ابو طالب بقوله : « فاطمأن الى القايل ولم يسكن الى الاظهار الاول » الا ترى كيف اورده الحق تعالى على ابلغ وجوه الايراد في قصد معنى التأمين من كونه جملة خبرية مصدرة بحرف التأكيد مع تأكيد (7) الاسم ودخول الالف واللام على الخبر على صيغة افعل[1] بعد وقوع السبب والقيام بحق الخطاب الاول . فهذا فرقان ما بينهما من حيث[2] الظاهر .

واما قصة عيسى عليه السلام ففيها من تنزيه العلم والكلام وحسن الادب في ذلك المقام ما تكل عن وصفه الالسنة والاقلام وتقرير ذلك موكول الى اربابه[3] نفع الله بهم .

فلنقتصر على هذا القدر من الكلام في هذه المسئلة ولنستغفر الله عز وجل مما وقع منه فانه لا يفهم حقيقة ذلك الا من حظي بذوق من مقام الخاصة الذي ذكرناه قبل هذا وانا منه في غاية الافلاس .

وما ذكرتموه عن الخطيب ابي بكر من اخباره بمخالفة[4] ابي طالب لمذاهب الناس في الصفات بعد ثنايه عليه فشيء مجمل[5] لا بيان فيه لكيفية المخالفة . فان اراد به مخالفة تؤدي الى بدعة على ما فهمه المعترض كخلاف من خالف في ثبوت الصفات او قدمها او عموم[6] تعلقها او[7] تنزيهها فحاشاه من ذلك ولا شيء من كلام ابي طالب يدل عليه وكيف يصح ذلك مع[8] ثنايه عليه اذ يكون اذ ذاك تقبيح حاله وذمه اولى به من مدحه والثناء عليه . وان اراد به مخالفة لا تودي الى بدعة كالمخالفة المالوفة بين[9] اهل الظاهر والباطن فذلك جايز ولا حجة فيه للمعترض .

فالمراد منكم ان تقفوا على هذا الموضع من كتاب[10] الخطيب وتنقلوه بلفظه مستوفى وتبعثوا به الي لانظر فيه .

وقد سرنا اخذكم في هذه العلوم وبحثكم فيها على حال غربة وعدم قابلية

---

١) س خ : مصوغاً بصيغة افعل || ٢) ق : حديث || ٣) ق : اوصافه || ٤) ف ق ر س : + مذهب || ٥) إ : مجهول || ٦) س : عدم ؛ خ : عموم || ٧) ر : و || ٨) ر : بعد || ٩) إ : من || ١٠) إ : كلام ||

بالنسبة الى الزمان والمكان والاخوان فاثبتوا على ذلك وداوموا عليه تحمدوا عاقبته .

واوصيكم بوصية[1] لا يعرف قدرها الا من عقل وجرب ولا يستهين بها
(8) الا من غفل فحجب . وهي ان تأخذوا في هذا العلم مع من هو متصف باحدى ثلاث صفات : كبر او بدعة او تقليد . اما الكبر فانه وبال يمنع من فهم الآيات والعبر . واما البدعة فهي ضلال يوقع في البليات الكبر . واما التقليد فانه عقال يعقل عن درك الظفر وبلوغ الوطر . ومن[2] اتصف بواحدة منها فقد ادركه سوء القضاء وبلي بجهد البلاء فكيف بمن اجتمعت فيه . ثم لا يؤمن[3] من سريانها فيكم وانسداد[4] الفهم في هذا العلم بسببها عليكم فيقع الفساد من وجه الصلاح وتنغلق عليكم ابواب الرشاد والفلاح . وما[5] يزخرفه احد هؤلاء من كلام[6] او ينتحله من حال او مقام فحاصله سفسطة وزور وتلبيس وغرور وفتنة للقايل والقابل وسبب الى استمالة كل غمر جاهل وكل ذلك باطل في باطل وهذا من ادل دليل على افضلية هذا العلم اذ لا يفتح بابه الا لعبد تقي نقي ولا يرفع حجابه الا لقلب منيب زكي بخلاف غيره من العلوم . ولا تجعلوا لاحد من اهل علم الظاهر حجة على احد من اهل هذا العلم فان فيه عكس الحقيقة وسوء الادب وفساد الطريقة والافضاء الى العطب لكونهم شاهدوا ما غاب عن غيرهم وتحققوا بحقائق عجز عنها سواهم فهم كما قال القايل :

لَيْلِيَ مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَى   وإِنَّمَا السُّدْفَـةُ فِي الجَوِّ
والنَّاسُ فِي الظُّلْمَةِ مِنْ لَيْلِهِم   وَنَحْنُ مِنْ وَجْهِكَ فِي الضَّوِّ

وقال الشبلي : ما ظنك بعلم علم العلماء فيه تهمة . واذا وقعت لكم مسئلة لا تقبلها عقولكم فقابلوها بالتسليم وترك الاعتراض فعما قريب ينكشف لكم من امرها ما تطمين به قلوبكم وتنشرح له صدوركم . وعليكم بحسن النية وصدق الارادة في هذا العلم فانه علم شريف به يهتدي العبد الى معرفة ربه عز وجل ومشاهدة آلايه وبه يتوصل الى نيل سعادة لقايه مع خاصته

---

١) س : وصيته ‖ ٢) ر : فمن ‖ ٣) س خ : لا آمن ‖ ٤) إ ق ف ر : انسداد ‖ ٥) إ ف ق ر : ما ‖ ٦) س : — من كلام ‖

(9) واحبابه وقد قال الجنيد [1]: لو علمت ان لله تعالى علما تحت اديم السماء اشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع اصحابنا واخواننا لسعيت اليه ولقصدته . وملاك ذلك كله صدق اللجا والافتقار ودوام التضرع والانكسار في حضرة الملك الجبار . فبذلك تنشرح الصدور وتتفتح مغاليق الامور فلا حول ولا قوة الا بالله[2] .

فمن قبل هذه الوصية بقبولها وعمل بمضمونها ومحصولها فقد سعد في الدارين وفاز بقوة العين والا فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الاخطار فلا يعدل العاقل بالسلامـــة شيئاً فنسأل[3] ربنا عز وجل ان ينور بصايرنا ويطهر سرايرنا ويلحقنا بحزبه المفلحين ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين بمنه وكرمه .

وصلى الله اولًا وآخرًا على سيدنا محمد[4] وآله وسلم[5] تسليما[6] .

---

١) ق : + رحمة الله تعالى || ٢) ف ر : به || ٣) س : فلنسأل || ٤) ف ق : + وعـلى || ٥) ف : — وسلم تسليماً || ٦) ق ر س : — تسليما ||

[الرسالة الثانية]

(10) كتاب تضمن مداواة علل وذنوب[1]
وعيوب اتصف بها رجل من ارباب القلوب

اما بعد فقد وصلني كتابكم وتعرفت منه ما اخبرتم به من احوالكم واعلم يا اخي ان ذلك كله ليس بغريب ولا مستنكر في ذلكم الموضع في مثل هذا الوقت فان الطالب لاصلاح قلبه فيها لا يكاد يجد مسلكاً يسلكه الى ذلك الا وقد ترصد له عدوه المسلط عليه ليقطعه عليه وقد اعد لذلك جنوداً من شياطينه الانسية فضلاً عن الجنية ونصب شباكاً واشراكاً من فتن الدنيا وغرورها وامانيها وسترها باطائف الحيل والتزويرات عن ابصار الناظرين اليها فاذا تعثر المريد ببعضها على غير علم ولا بصيرة انتهز اللعين الفرصة وارسل عليه جنوده وبث شياطينه فزخرفوا له انواعاً من الغرور والتمويهات فيعمى بها بصر قلبه ويصده ذلك عن سبيل ربه فيبقيه[2] حايراً ولا يهتدي سبيلاً ولا يجد دليلاً . فكيف يستقيم صلاح القلب مع هذا الا بتأييد من الرب عز وجل وعناية سابقة منه .

وقد كنت كتبت لكم قبل هذا كتابا تكلمت فيه على المسايل التي كنتم رسمتموها اذ كنتم ها هنا وذكرت فيها فصولاً نافعة للمريد في سلوكه وآدابا يقوم بها في جميع حالاته بذلت فيها جهدي . وذكرت فيها لباب ما عندي وما لم يشك احد له عقل في صحته ولا يرتاب في كونه شفاء لكل عليل من علته وبعثت به اليكم فلما وصل هذا الكتاب منكم واخبرتم فيه بما اخبرتم ساء الظن في وصوله اليكم اذ لم يقع لي بذلك منكم كتاب ولا اخبرني به مخبر وبتقدير وصوله هل وقع منكم موقع القبول وبتقدير وقوعه كذلك هل بقيتم على[3] ذلك ولم تتغيروا عنه بقول قايل او عذل عاذل[4] . فان كان بعض

---

١) إ : ذنوب ‖ ٢) ر س : فيبقى ‖ ٣) إ : — على ‖ ٤) إ : عدل عادل

ذلك فها انا اذكر لكم في جواب كتابكم نبذا مقنعة بتوفيق ربنا عز وجل تأدية لحق سؤالكم ورجاء المنفعة لكم ومنكم .

فنقول : جملة ما ذكرتموه يرجع الى ثلاثة معان : المعنى الاول انكم متصفون بذنوب وعيوب . والثاني عجزكم عن ازالة ما وقع وعن الاحتراز مما[1]
(11) لم يقع . والثالث : تحيركم بسبب ذلك وتشوش خاطركم من قبله. وكأن هاذين المعنيين راجعان[2] الى المعنى الاول لان العجز عن الازالة وعن الاحتراز عيب والتحير بسبب ذلك لفقد علم اليقين لا مطلقاً عيب فرجع حاصل الامر الى انكم متصفون بعيوب .

ثم ان هذه العيوب التي اخبرتم بها تصريحاً او تلويحاً ينبغي لكم ان تنظروا فيها بعين البصيرة ولا تأخذوا الامر جزافا فانكم تسرفون في ذلك ويؤول الامر بكم الى جهالات وسوء ادب وتتوهمون ما ليس بعيب عيبا وترون ما هو عين الدواء داء . ومعرفة العبد باحكام احواله من الخيرية والشرية وشرية الخيرين وخيرية الشرين من اعظم المعارف وادقها وهي التي كسدت اسواقها في هذه الازمنة وانما الموجود الان عند من يوسم عند الناس بمعرفتها والوصول الى حقايقها امور وهمية وعلوم رسمية ليست من الحقيقة في شيء فلا تزيد المريد الا تحييراً ولا الناظر فيها الا تشويشاً وتكديراً وما ذلك الا لعدم اهل التحقيق الدالين على محجة الطريق فعلى فقد مثل[3] هؤلاء ينبغي ان يبكى ويتأسف وعلى خلو الزمان عنهم ينبغي ان ينشد ما قاله بعض السلف :

يا حَسْرَتَا[4] مِنْ فِرَاقِ قَوْمٍ هُمُ المَصَابِيحُ والحُصُونُ
والمُزْنُ والمُدْنُ وَالرَوَاسِي وَالخَفْضُ[5] وَالأَمْنُ وَالسُكُونُ
لَمْ تَتَغَيَّرْ لَنَا اللَّيَالِي حَتَّى تَوَفَّتْهُمُ[6] المَنُونُ
فَكُلُّ جَمْرٍ لنا قُلُوبٌ وَكُلُّ مَاءٍ لَنَا عُيُونُ

وللنظر الى العيوب التي ذكرتموها اعتباران : احدهما من حيث اختراعها وخلقها صفة لكم والثاني من حيث نسبتها اليكم شرعاً . وهذان الاعتباران

---

١) ق : عما || ٢) ق : راجعين || ٣) ف ق ر س : امثال || ٤) ف ر س : حسرتي || ٥) ر : والحفظ || ٦) ر : توفيهم ||

هما المعنى بقول بعضهم : ارادها منه ولم يردها له . فبالاعتبار الاول لا حمد فيها ولا ذم بحسب من قامت به . والباري سبحانه[1] وتعالى هو المحمود عليها بكل حال ويجب عليكم الرضى بقضايه والتسليم لحكمته ومشيئته فتستعجلون بذلك راحة انفسكم وتتفرغون[2] للنظر فيما يجب عليكم .

وبالاعتبار الثاني هي مذمومة ويجب عليكم التوبة منها والحزن والندم عليها فان وفيتم بذلك حزتم اجرًا جزيلًا فيما تكابدونه من ذلك وفزتم برضى
(12) مولاكم عنكم اذا[3] فعلتم ما امركم بـه . فلا معنى للكروب فيما يعتريكم في ذلك من النصب والتعب اذا حصل لكم ما حصل . وان لم توفوا بذلك بل غلب عليكم طبعكم واستولت عليكم شهوتكم فالبدار البدار الى اللجا الى ربكم بصدق الافتقار ولزوم بابه بالخضوع والانكسار والوقوف بين يديه موقف الاضطرار . وما اقرب هذه الحالة منكم حسبما ذكرتموه في تمثيلكم بغريق الموج واكيل[4] الدابة والاسير المعذب والمشرف على الهلاك . فاذا قمتم بذلك فابشروا فقد حزتم مرتبة يا لها من مرتبة لا يعرف قدرها الا الاحاد من الاولياء . وصاحب هذه الحالة جدير بان يسعف بطلبته ويجاب الى مقصوده وبغيته لصدق الوعد باجابة[5] المضطر وربنا عز وجل لا يخلف الميعاد . حتى ان بعض العلماء من هذه الطايفة ذهب الى انه لا ينبغي لصاحب هذه الحالة ان يسأل من احد ان يدعو له وقال : الاجابة انما هي مضمونة في دعائه لا في دعاء غيره . وقد حكي ان امرأة جاءت الى الجنيد فقالت ادع لي فان ابنًا لي ضاع فقال لها اذهبي واصبري فمضت ثم عادت وقالت مثل ذلك وفعلت مثل ذلك مرات والجنيد يقول اصبري . فقالت عيل صبري ولم يبق[6] لي طاقة فادع لي . فقال الجنيد ان كنت[7] كما قلت فاذهبي فقد رجع ابنك فمضت ثم عادت تشكر الله[8] . فقيل للجنيد بم عرفت ذلك فقال لقوله تعالى « امن يجيب المضطر اذا دعاه »[9] . وعلامة المضطر اياسه من نفسه وتبرؤه من حوله وقوته وان لا يرى عند فجأة الامر الملم به كاشفا ولا دافعا الا الله[10] مولاه . كما

١) ف ق ر س : — سبحانه و || ٢) ف ق ر س : + بذلك || ٣) س : اذ || ٤) إ : واكليل || ٥) ف ق س : + دعوة || ٦) ف ق ر س : تبق || ٧) ف ر س : كان || ٨) ف ر س : له || ٩) قرآن : ٢٧ : ٦٣ || ١٠) ف ق ر س : — الله ||

قال بعض العارفين : معبودك اول خاطر يخطر لك عند المهمات . وقال بعض العارفين في معنى قول الله تعالى « امن يجيب المضطر اذا دعاه » فقال: المضطر الذي يقف بين يدي مولاه فيرفع اليه يديه بالمسئلة فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئاً فيقول هب لي مولاي بلا شيء . فهذا هو المضطر مع ما تنالون في هذه الحالة مزية القرب وخاصية الحب . فلا معنى لحيرتكم وانتم متمكنون من هذا .

وان لم تظهر لكم اجابة ولا اعتقدتم توبة ولا انابة مع بقائكم على الحال المذكورة من لزوم الباب وقطع الاسباب فانتم في ذلك بين خلتين : اما تجزعوا وتضطربوا او تصبروا وتحتسبوا . اما الجزع والاضطراب فلا وجه له ها هنا لانكم حصلتم في الامان ووصلتم الى حقيقة الايمان فلا يخشى عليكم ان تقعوا في مثل هذا لتنافي الحالين فلم يبق الا الصبر والاحتساب (13) وفي هذه الحال[1] يكون ترك الاجابة اجابة وقد قال ابن عطاء الله[2] : « اذا فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء » وقال ايضاً : « متى اعطاك اشهدك بره ومتى منعك اشهدك قهره . فهو في كل ذلك متعرف اليك ومقبل بوجود لطفه عليك » . ثم لكم في هذه الحالة مشاهدات ومنازلات تستريحون[3] اليها وتجدون المزيد بها وتكون ان شاء الله سببا في حصول غرضكم والبرء من مرضكم اذ تشاهدون ربكم تعالى وجل بصفة الكبرياء والاستعلاء وما هو عليه من كمال الاستيلاء والاستغناء وتشاهدون انفسكم ايضاً محلًا لنفوذ قدره وقضائه وظهور آثار صفاته واسمائه فان دمتم على تكرار[4] هذا بقلوبكم وصار لكم ذلك شغلًا شاغلًا عن كثير من اموركم تجدد عليكم ان شاء الله تعالى[5] منازلات[6] احوال سنية ومقامات علية كالمحبة والرضى والمعرفة والخوف. ثم لا شك في ان هذه صفات كمالية ومواهب ربانية يستدل بها من اظهرت عليه واقيم فيها على انه مراد مقرب مكرم محبب وتكون هذه المشاهدة تقتضي منازلة احوال ومقامات اخر كمقام الصبر والشكر

---

١) س : الحالة ‖ ٢) ف ق ر س : — الله ‖ ٣) ف س: تستروحون ؛ س خ: تستريحون ؛ ر : تسترحون ‖ ٤) ف ق ر س : تذكار ‖ ٥) س : + بسبب ذلك ‖ ٦) ف ق ر : منازلة ‖

والرجاء والحياء والتوبة وقد يكون هذا كله في لحظـة فتنجبرون من حيث انكسرتم وتقبلون الى من[1] منه فررتم . وفي الصحيح من حديث ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم ». وقال ابراهيم بن ادهم : طفت ذات ليلة بالبيت وكانت ليلة مظلمة ذات مطر ورعد فخلا الطواف فلما انتهيت الى الباب قلت اللهم اعصمني حتى لا اعصيك ابدًا. فقال: فسمعت قايلًا يقول من جوف البيت يا ابراهيم انت تسألني العصمة وكل عبادي يسألني[2] العصمة فاذا عصمتهم فعلى من اتفضل والى من[3] اغفر .

فان لم تصدقوا في التجايكم وافتقاركم وبقيتم في عماكم واغتراركم الا انكم كارهون لاحوالكم التي انتم عليها شديد حرصكم على ان تجدوا سبيلًا الى الانتقال عنها ماقتون لانفسكم متأسفون على تفريطكم وتضييعكم فلكم ها هنا معاملات قلبية وبدنية فلتسلكوا طريق ربكم عليها ولا يمنعكم من ذلك ما انتم عليه من المرض . وقد[4] قال بعض الكبار[5] : سيروا الى الله عرجا ومكاسير .

واقرب طريق لكم[6] اليه ان تحافظوا على مقام الشكر وتوفوه حقه والتمسوا الزيادة من قبله وذلك بان تستحضروا في قلوبكم عظمة ربكم وكبرياءه وما هو عليه من صفات الكمال والتعالي وتستشعروا خسة انفسكم (14)
ومهانتها وحقارة قدرها وما هي عليه من سمات الدناءة والنقص وتنظروا الى ما انعم به عليكم من نعمة كاينة ما كانت فاذا وفيتم النظر في ذلك حقه عرفتم حينئذ قدر نعمته عليكم فقمتم بشكرها . ومعرفتكم بقدر النعمة هو شكرها وهو مفتاح كل خير وسبب المزيد في كل[7] فلاح وبر . قال ربنا عز وجل : « لئن شكرتم لازيدنكم »[8]. وقال تعالى : « فاذكروا الاء الله لعلكم تفلحون »[9]. فلا شيء انفع للعبد عند مولاه من ذلك لانه الصراط المستقيم الذي قعد الشيطان به ليصرف عنه سالكيه ويصدهم عنه كما قال

---

١) إ : مـا ‖ ٢) ف س : يسألوني ؛ ق: يطلبون ‖ ٣) ف ق ر س : ولمن ‖
٤) س : فقد ‖ ٥) س : الاكابر ‖ ٦) ف ق ر س : اليكم ‖ ٧) ق : + حال ‖
٨) قرآن : ١٤:٧ ‖ ٩) قرآن : ٧:٦٧ ‖

تعالى اخبارا عنه: « لاقعدن لهم صراطك المستقيم » الى قوله: « ولا تجد اكثرهم شاكرين[١] » . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فانه اجدر الا تزدروا نعمة الله عليكم » . ولا شك انكم تعلمون من نعم ربكم عليكم في دينكم ودنيا كم ما لا تقدرون على احصائه. ومن جملتها بل من اعظمها كراهتكم لما انتم عليه من الاحوال المذكورة وذلك من نتائج الايمان لقوله صلى الله عليه وسلم: « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ». وكم من شخص مبتلى باكثر من ذلك ثم لا يجد في قلبه كراهية بل استلذاذًا لذلك وفرحا به .

وقد كنتم في ابتداء امركم فيما اظن كذلك[٢] على هـذه الحالة السيئة فرحمكم ربكم وانعم عليكم بان ابدلها لكم بما تحمدون عاقبته وتجدون منفعته ان شاء الله تعـالى من غير حول منكم ولا قوة . فلتفرحوا بفضل ربكم عليكم فيستغرقكم[٣] ذلك ويشغلكم[٤] عن كثير مما انتم عليـه وتستوجبون بذلك رضوان ربكم عليكم[٥] . وقد اوحى الله عز وجل الى بعض انبيايه : ادرك[٦] لطف الفطنة وخفي اللطف فاني احب ذلك فقال : يا رب وما لطف الفطنة وما خفي اللطف قال : لطف الفطنة هو ان وقعت عليك دبابة فاعلم اني أنا[٧] اوقعتها عليك فسلني[٨] رفعها عنك . وامـا خفي اللطف فهو ان وردت عليك فولة مسوسة فاعلم اني ذكرتك بها فاشكرني عليها . فلتتخذوا تلك الحالة المحمودة التي انعم بهـا ربكم عليكم عبرة وتشتغلوا بتربيتها[٩] بالشكر عليها لربكم والاستزادة منهـا وتعتدوا ما انتم عليه من الجزع والهلع والانقباض والضيق نعما سابغة وحكما بالغة وتحتسبوا ثوابها عند ربكم عز وجل . وقد حكي عن بعض المشايخ انه رأى شابا بعـد الموسم دخل مكة منقطعاً منكسرًا محزونا كما يكون المنقطعون فقال له ذلك الشيخ : انا حججت كذا وكذا مرة فهب لي هذه الحسرة التي انت فيها وأهب لك (15)
تلك الحجات كلها . ولتتحققوا من ذلك انـه صرف عنكم بسببها آفات

---

١) قرآن : ٧ : ١٦-١٧ || ٢) ف ق ر س : — كذلك || ٣) إ: فيستغركم ؛ س: فليسغرقكم || ٤) س: فليشغلكم || ٥) ف ق ر س: عنكم || ٦) ف ق س : + لي || ٧) إ : — انا || ٨) ر س : فتسألني ؛ خ : فسألني || ٩) ر : بترتيبها ||

مهلكة وصفات موبقــة مثل الكبر والعجب وانواع من الغرور وكذلك كل ما يعرض عليكم[١] مما يزعج نفوسكم ويؤلم قلوبكم من امثال هذا .

ورؤيتكم انكم اشرفتم على الهلاك هو عــين سلامتكم وغنيمتكم عند العارفين المحققين اذ لو لم تروا ذلك كان مرضاً يجب عليكم علاجه. وقد قال رجل لحذيفة رضي الله عنه : اني اخاف ان اكون منافقا فقال : لو كنت منافقا ما خفت النفاق . واهم ما على المريد مراعاة هذه الخصلة وحرصه على ان تكون[٢] فيه فبذلك يزكو عمله وينجح سعيه ويكون ذلك دليلًا عــلى صحة مقصده وصدق ارادته . فكم من شخص متعبد مجهد عــامل بظواهر الطاعات مجتنبا لظواهر السيئات وهو مع ذلك معجب مغتر متكبر فهو بجهده[٣] وكده سالك سبيل طرده وبعده. وكم من شخص ترك الدنيا ورفضها ورد نفسه الى قدر يسير منها وفاسق من الفساق المنهتكين[٤] اعلى منزلة منه عند ربه لان من اشهد البعد في القرب فهو ملطوف به في وجود الخوف فيرقى بذلك درجات عليا ، ومن اشهد القرب في البعد فهو ممكور به في وجود الامن فيتردى بذلك الى دركات سفلى . وقد قال ابن عطاء : « ربما فتح لك[٥] باب الطاعة وما فتح لك باب القبول وقضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول » . وهو المعنى بقول بعضهم : رب ذنب ادخل صاحبه الجنة . فان[٦] انضاف الى ذلك تفطنكم بخفايا[٧] عيوبكم وما سترته النفس من هواها عليكم فذلك اعظم نعمة ومثل هذا مما يغتنمه الاكياس على ألسنة اعدايهم فكيف في مثل هذه الحالة .

وقولكم : ان في ذلك تكثيرا للحجة عليّ . فالحجة لربكم عليكم في كل حال سواء عرفتم ذلك او لم تعرفوه وحبذا قيام الحجة المولى عــلى عبده فان رزقتم انابة واقلاعا عن بعض ذلك فنعمة جزيلة سواء كان في ذلك تعويض بما فيه حظ لكم او لم يكن لان المعوض المنتقل اليــه لا يكون ابدًا الا اخف وادنى من المنتقل عنه في هذا الحال .

فلتغتنموا ما بينهما من التفاوت ولعل ذلك يكون تدريجا للاقلاع التــام . فاذا عرفتم سر هذا لم تكترثوا بشدة ولم تبالوا بكربة بل عددتموها نعما كما ذكرناه .

---

١) ف ق ر س : لكم || ٢) إ : يكون || ٣) ر : بجـده || ٤) ف ق ر س : المتهتكين || ٥) ف ق : عليك || ٦) ق : فاذا || ٧) ر س : لخفايا ||

(16) فان قلت : عدم الاكتراث بها وعدها نعا مما يخفف وقعها علـى القلب فيؤدي ذلك الى نقض ما اصّلتم من ان كل ما نغص النفس وازعج القلب فهو افضل فقد ادى الى ترك الافضل بما ذكرتموه. ويؤدي ايضاً الى استحقار المعاصي والذنوب لفتور الخوف والحزن .

فالجواب عن الاول ان هذا التخفيف ها هنا محمود وهو ارجح مما ذكرته لما في وجوده من النفع ولما في عدمه من الضرر المتوقع . اما المنفعة في وجوده فلانه عامل في استخراج خفايا اللطف ودقائق النعم واستشعاره سابغ[1] الفضل والكرم فيرقى بذلك الى مقامـات من اليقين وكل ما ادى الى مثل هذا فلا يوازيه في الفضيلة شيء البتة. واما الضرر في عدمه فهو ان صاحبه اذا دام على ما هو به وشغل قلبه وعقله استضر[2] بذلك من احد وجهين : احدهما اداؤه له الى اليأس والقنوط وهما من اكبر الكبائر والثاني[3] اداؤه له الى الاستيلاء الوسوسة عليه وقد يختل عقله بسببها . وحفظ العقل[4] وصونـه عن عروض الوسوسة واجب لانه[5] عمدته في طريقه التي هو سالكها ومـا كان ولي قط ناقص العقل. وبمعنى ما ذكرناه يضمحل الخيال الثاني وهو انه يودى الى استحقار المعاصي والذنوب فان هذه الحالة تسرع به الى الاقلاع والتوبة ابلغ مما يسرع به الخوف والحزن عما ذكرناه مجردين[6] لانه يصحبه فيها مشاهدات تؤديه الى مقامات تقلعه عن هواه في اسرع وقت وذلك كثل الحياء من ربـه عز وجل لان الحياء صفة في العبد تتولد بين معرفته بقدر مولاه وعلو شأنه وعظيم سلطانه ومعرفته بخسة نفسه ومهانتها ونقصها وتقصيرها في طاعـة مولاها . ولا شك ان استعظام المعصية من اجل حيايه من ربه اعلى واكبر من استعظامهـا من قبل خوفه منه لانه في حال خوفه ناظر الى نفسه وفوات حظها بالوقوع في المعصية وفي حال حيايه ناظر الى ربه باجلال وتعظيم محترزاً من ان يراه مرتكبا مـا يكرهه منه . وقد قيل : كثير من يترك المعصية حذرا من عقوبته وقليل من يتركها[7] حياء من اطلاعه ورؤيته . وهذا هو وصف المراد وما ذكرتموه صفة المريد وبينهما عند العارفين بون بعيد .

---

١) ف : سابق ‖ ٢) ر : استحضر ‖ ٣) إ : – اداؤه . . . والثاني ‖ ٤) ر : بالعقل ‖ ٥) ر : لان ‖ ٦) ف ق ر س : مجردين عما ذكرناه ‖ ٧) ر : يرتكبها ‖

وما ذكرناه ايضاً ادخل في وصف العبودية لانه في مقام مشاهدة الربوبية
متأدباً بين يدي ربه عز وجل قاصرا نظره عليه والمتصف بالعبودية مكفي (17)
مقضي الحوائج بدليل قوله تعلى: « اليس الله بكاف عبده »[١] . فمن الله كافيه فهو لا محالة شافيه ومعافيه. على ان ما توهمه السائل من فتور الخوف لا يصح لان الخوف في هذا الموطن انما نشأ من معرفة العبد بنفسه وخدعها وشرورها ومن عرف نفسه حق المعرفة رأى انها اعدى العدو له لان دواعيها كلها مصروفة الى اقتحام ما يسخط مولاه عليه ويوجب له غضبه وعقابه وقد تخدعه فتوقعه في الشر من حيث الخير ولا يشعر بذلك وقد تعده بالنصرة فتخلفه وتخذله احوج ما يكون اليها وتحرص على هلاكه وخسارته[٢] فاي[٣] عدو اعدى له منها وقد اخبرنا بذلك ربنا عز وجل بابلغ وجوه الاخبار واشدها تأكيدًا فقال تعالى: « ان النفس لامارة بالسوء »[٤]. فصفاتها المرذولة لا يتصور ان ينفك عنها بشر الا برحمة من الله تعالى وعنايته[٥] كما قال تعالى في الاستثناء : « الا ما رحم ربي »[٦] . فكيف يتوهم فتور الخوف مع هذا كله فلا وجه اذا لما ذكره السائل بل ربما زاد وتضاعف بسبب تزيد المعرفة الحقيقية بالنفس لان ذلك من اعظم نعم الله تعالى على[٧] عبده وكثير من الناس قد فقد هذا ففقد ثمرته التي ذكرناها فتكون النعمة سبباً في وجود النعمة من غير نسبة شيء من ذلك الى عمل العبد . وينضاف اليه ما ذكرناه فتتضاعف الخيرات وتزيد وقد قال العارفون : ان مقامات اليقين لا يزيل بعضها بعضاً بل يزيدها تاكيدا ورسوخا.

وهاتان الصفتان الجليلتان اعني الحياء والخوف اذا تحققتا في العبد حصل منهما ميراث شريف وهو ان يقذف الحق سبحانه[٨] في قلبه نورا ويكون من ادنى فوايده ان يتفطن العبد به[٩] لدقائق عيوبه وخفايا آفاته ويكون له معينا وناصرا على الطاعة لمولاه عز وجل كما قال ابن عطاء : « النور جند القلب كما ان الظلمة جند النفس فاذا اراد الله[١٠] ان ينصر عبده امده بجنود الانوار وقطع عنه مدد الظلم والاغيار » . وذلك بان يتراءى له كأنه رقيب حاضر موكل به

---

١) قرآن : ٣٩ : ٣٧ ‖ ٢) ف ر س : — وخسارته ‖ ٣) إ : واي ‖ ٤) قرآن : ١٢ : ٥٣ ‖ ٥) ف ر س : وعناية ‖ ٦) قرآن : ١٢ : ٥٣ ‖ ٧) ر : — عليه ‖ ٨) ف ق ر س : تعالى ‖ ٩) إ : — به ‖ ١٠) س : + تعالى ‖

اعنى النور المذكور فمهما[1] هم بفعل من الافعال فان كان طاعة سارع اليها بنشاط وبصيرة وحسن احتساب وان كان معصية لم يجد من نفسه اقتحاما عليها لانها مقهورة ماسورة فيتركها طيبة نفسه بذلك وان وقع فيها بعادة جارية او شهوة غالبة[2] لم يجد لمنالها لذة ولا خفة بل يستثقلها ويكرهها ويتنغص بها . ومن
(18) فوائده ايضاً معرفته بقدر نفسه فتنتفي عنــه اخلاق المتكبرين والمتجبرين فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين عبّاده فيتصف بالتواضع والذلة والخضوع والخشوع والانقياد للحق والشفقة وكف الاذى واحتماله والنصيحة للمسلمين ومحبــة الخير لهم وادخال المسرات عليهم وحسن الادب بين يدي مولاه عز وجل بان يستعظم من ربه كل نعمة ينيله اياها ويستقل من نفسه كل عمل يعمله له فــلا يعجب به ولا يــدل[3] من حيث نظره الى نفسه ولا يرى لنفسه وسيلة الا فضل الله واحسانه ولا شفيعا الا كرمه وامتنانه ويكون سؤال المغفرة له[4] والعفو عنه اعلى طلبه كما قيل : العارف لا تسمو همته الا الى طلب المغفرة . وقال تعالى اخبارا عمن رضي عنهم : « وكأين من نبي قُتِل[5] معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله[6] يحب الصابرين »[7]. ثم قال[8]: « وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنــا واسرافنا في امرنا »[9]. ويحكى عن ابن المبارك انه خرج يوما على اصحابه فقال: تجاسرت البارحة على الله تعالى فسألته الجنة . الى غير ذلك من محاسن احوالهم وسني خصالهم نفعنا ربنا بمحبتهم .

فاذا كنتم متمكنين من هذه الخيرات كما ذكرته لكم فلِمَ تهملونها[10] وتعملون في حرمان انفسكم منها وتقطعون زمانكم النفيس في مضادة قضاء ربكم وكراهية مراده منكم حتى يؤل الامر الى ما ذكرتم وقد قال ابن عطاء : « ما ترك من الجهل شيئاً من اراد ان يحدث في الوقت غير ما اظهره الله فيه » .

وليكن لكم[11] مع ذلك ورد من الذكر يتضمن التبري من الحول والقوة

---

١) ف س : فهمى || ٢) ف : خفية || ٣) إ ر : يذل || ٤) إ ر ق : — له || ٥) [كذا] || ٦) ق : — يحب الصابرين || ٧) قرآن : ٣ : ١٤٠ || ٨) ف ق: +تعالى || ٩) قرآن: ٣ : ١٤١ || ١٠) إ : تهملوها || ١١) إ : منكم ||

وكيفية من الاستغفار تمحوا عنكم اثار الكدورات[١] التي تحللت في[٢] بواطنكم واكثار مما نادى به نبي الله يونس عليه السلام ربه في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين[٣] لقوله تعالى « فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المومنين »[٤] . قال بعض العلماء : كل من قال من المومنين اذا اصابه هم او استقبله مهم مثل ما قال ذو النون نجاه الله[٥] كما نجى ذا النون لقوله: « وكذلك ننجي المومنين » . هذا كله نظر فيما كان من احوالكم ذنبا[٦] ومعصية .

(19) واما العيوب التي اشرتم اليها من عدم سكون النفس عند الابتلاء وجزعها من توقع الشدايد والمولمات واضرابها وعدم صبرها فذلك من العيوب المطبوع عليها الآدمي والمركوزة في جبلته وليس ذلك بمذموم مطلقا بل ربما كان محمودا في بعض الاحوال لان العبد يشاهد في ذلك ضعفه وعجزه وذله وفقره وفاقته . وقد قال ابن عطاء : « خير اوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك وترد الى وجود ذلتك » . وقال ايضاً : « ورود الفاقات اعياد المريدين » وربما وجدوا من المزيد في الفاقات ما لا يجدونه في الصوم والصلاة . وقد يبتلي الحق تعالى بذلك بعض الخواص . يحكى عن ابي عثمان الحيري انه كان عند ابي حفص استاذه فمد يده الى زبيبة فاخذ ابو حفص على حلقه واسترده[٧] منه فلما سكن ابو حفص قال له ابو عثمان يا استاذ انا اعلم انه ليس للدنيا عندك خطر فكيف ضايقتني[٨] في زبيبة فقال ابو حفص : من ذا يثق بقلب لا يملكه صاحبه . وقال بعضهم : كنت مع الخواص في سفر فنزلنا تحت شجرة فجاء اسد فربض بقربنا ففزعت فزعا شديدا وعلوت الشجرة فقعدت على غصن الى الصباح من خوف الاسد وقام الخواص ولم يحفل به فلما كان الليلة الثانية نزلنا في مسجد فنام الخواص فوقع على وجهه بقة فضج فقلت : ان في هذا لعجبا . لم تحتشم البارحة من الاسد وجزعت الليلة من البقة . فقال ان البارحة كنت ماخوذا عني والليلة

---

١) ف ق : الكدرات ؛ ف ط : قيل الواو ميسورة في نسخة الشيخ || ٢) ف ق س : — في || ٣) قرآن : ٢١ : ٨٧ || ٤) قرآن : ٢١ : ٨٨ || ٥) ف ق س : — الله || ٦) ف ق : ذنب || ٧) س : واستردها ؛ ف ط : قيل « واسترده » في نسخة الشيخ بالتذكير || ٨) س ط : عسى « خانقتني » ||

انا مردود علي فلهذا جزعت. وقال سهل بن عبدالله رضي الله عنه : ان الله تعالى يلقي على الخصوص الفاقة ويحوجهم الى الخلق بالطمع فيهم ويلقي في قلوب الخلق المنع لهم يحرمهم ما في ايديهم ليردهم اليه فاذا رجعوا اليه آيسين منقادين رزقهم من حيث لا يحتسبون. ويحكى ان رجلا راى بعض العارفين ممن كان يشير الى التوحيد وقطع الاسباب والاستغناء بالله تعالى عن غيره على باب نصراني يسأله شيئاً وقد بلغت به الفاقة والحاجة كل مبلغ فقال له في ذلك فانشأ يقول :

إِذَا كُنَّا بِهِ تُهْنَا دَلَالًا عَلَى كُلِّ ٱلْمَوَالِيَ وَالعَبِيد
وَلَكِنَّا إِذَا عُدْنَا إِلَيْنَا يُعَطِّلُ ذِلُّنَا ذِلَّ اليُهُود

(20) وانما المذموم من ذلك استتباع النفس للقلب وغلبتها عليه بطبعها لاجل ضعف اليقين فيرجع حاصله الى ما تقدم في قسم الذنوب .

فلتشتغلوا بالمعاملات المتقدمة وليكن لكم عند نزول شيء من ذلك والمامه بكم وغلبته عليكم تحقق بصفات العبودية وابتهال وتضرع الى ربكم عز وجل بالدعاء والنداء. فلتنادوه[1] من بساط الفقر : يا غني من للفقير غيرك . ومن بساط الضعف : يا قوي من للضعيف غيرك . ومن بساط العجز : يا قادر من للعاجز غيرك . ومن بساط الذل : يا عزيز من للذليل غيرك . فقد قال بعض العارفين : من لازم ذلك كانت الاجابة طوع يده[2] . وقال ابن عطاء : « تحقق باوصافك يمدك باوصافه[3] . تحقق بضعفك يمدك بقوته » .

وعليكم بتقوية اليقين واستعينوا على ذلك بان تواظبوا على النظر في علوم الصوفية وتجعلوا ذلك آكد اشغالكم ولا تقدموا على ذلك الا فرضا واجباً ولا تلتفتوا الى من يصدكم عنها او يقدح لكم فيها حالا او مقالا او[4] تصريحا او تلويحا . فقبيح بالعاقل اللبيب ان يدخل في امر ولا ينصره فضلًا عن ان يصرفه عنه صارف كما[5] ذكرناه .

وقد كنت ذكرت لكم في الكتاب المتقدم ذكره ما يقرأ من كتب القوم وان المقدم[6] عليها من كل وجه هو كتاب الشيخ ابي طالب . فليكن

١) ف ق س : فتنادوه || ٢) [انظر شرح الحكم ج ٢ ص ١٤] || ٣) ف ق ر س : + تحقق بذلك يمدك بعزه . تحقق بعجزك يمدك بقدرته || ٤) ف ر س : — او || ٥) ف ر س : مما || ٦) ف ق س : المتقدم ||

حرصكم على تحصيل هذا الكتاب والنظر فيه كمثل[1] حرصكم على تحصيل ما يزيل عللكم ويبرىء مرضكم فهو هو لو عقلتم فهو قوت القلوب والموصل الى كل غرض مطلوب وخذوا فيما يعز لكم من اموركم وتضيق بسببه[2] صدوركم مع شخص موقن صحيح الحال ولا اعلم من اخذ بحظ وافر من هاذين الوصفين في هذا الزمان الا سيدي سليمان[3] بارك الله له فخذوا عنه مـا ينفعكم في مواجيد قلوبكم ويحفظ به عليكم حالكم مع ربكم .

وليكن لكم كيفية من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فقد رأيت بعض العارفين اشار الى ان لها تأثيرًا في تقوية اليقين . فلتكثروا من ذلك .

فهذا ما رأيناه لايقا بكم في ازالة عللكم وبرء مرضكم ان عملتم به[4]
وإن[5] لم تعملوا[6] به ولم تتداركـكم جذبة من جذبات الرحمن توقفكم على (21)
الغرض المطلوب من غير سبب ظاهر وعمرتم الف سنة في تحصيل مـا رغبتم مجتهدين في الوصول الى ما طلبتم لا اظن انكم تصلون الى ذلك ابـدًا بل لم تزيدوا بذلك الا بعدًا. فاذا استوفيتم جميع هذه المعاملات واستراحت قلوبكم من المشوشات فقد تعرضتم بذلك لمهاب الرحمات .

ثم عليكم ان تستديموا هذه المعاملات في باقي عمركم . وجميع ما ذكرناه في هذه النبذة نبهناكم فيه على منهج قريب في السلوك يفضي الى الغرض المقصود بتوفيق ربنا عز وجل . اما كونه قريباً فلانه سبيل روحاني لا عمل للجوارح فيه الا بحسب التبع ولا مشقة فيه على النفس[7] فتضيق منه . فكان قريباً من هذا الوجه . واما افضاؤه الى المقصود قطعا فلانـــه محض تعلق بالله عز وجل ونظر اليه وعكوف بالهمّ عليه على سبيل الدوام وفي هذا من قرة العين ما لا يقدر قدره وهذا هو ابتداء الوصول الذي يشير اليه الصوفية . فاذا استمر عليه تحقق به . وقد قال سهل بن عبدالله : العبد لا بد له من مولاه على كل حال واحسن حاله ان يرجع اليه في كل شيء . اذا عصى يقول : يا رب استر عليّ.

١) ر : كمثال ‖ ٢) ق : بـه ‖ ٣) إ ط : هو البازغي رحمه الله ؛ ف ط : « هو البازغي رحمه الله » . كذا بخط سيدي يحيى السراج في طرة الأصل الـذي عليه خط المؤلف . وسيدي سليمان هذا هو الذي كان بحومة العيون وهو غير سيدي سليمان بن عمر رضي الله عنهم اجمعين ‖ ٤) إ : علمتم ‖ ٥) ف ر س : فان ‖ ٦) إ : تعلموا ‖ ٧) ر : النفوس ‖

فاذا فرغ من المعصية قال[1] : يا رب تب عليّ . فاذا تاب قال : يا رب ارزقني العصمة . فاذا عمل قال : يا رب تقبل مني . وقال بعض العارفين في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « يسّروا ولا تعسروا » قال : معناه دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره فان من دلك على الدنيا فقد غرك[2] ومن دلك على الاعمال فقد اتعبك ومن دلك على الله فقد نصحك .

ولا يصح[3] سلوك هذا الطريق الا لمن كان له قلب حي بالايمان وعلامة ذلك ان يكون يقظانا منتبها متأثرا[4] بالطوارق والعوارض الواردة عليه من جهة الدين قبضا وبسطا . اما من مات قلبه حتى لا يتأثر بشيء من ذلك ويكون غريقاً في شهواته قرير العين بسيء حالاته فحرام عليه ان ينظر في هذا كله لانه لا يزيد معرفة ذلك كله[5] الا شرا ولا النظر فيه الا ضلالا وخسرا[6] فليجتنبه
(22) اجتنابه للسم القاتل بل يشتغل بما ورد في الكتاب والسنة واقاويل العلماء من التحذير عن ارتكاب المعاصي ويستحضر في عقله ما ورد في ذلك من الاحكام والعقوبات في الدارين فلا دواء له الا ذلك .

ولولا ما رايتكم بخلاف هذا الوصف المذموم ما وسعني ان اكتب من ذلك حرفا . فاعتمدوا على ذلك واعملوا بـه فهو سبب مبلغ ان شاء الله[7] ربنا[8] عز وجل : « والله غالب على امره ؛ ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده »[9] . واليـه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

---

١) ف : يقول ‖ ٢) ر س : غشك ؛ س خ : غرّك ‖ ٣) ف ق : يصلح ‖ ٤) ف : — متأثرا ‖ ٥) ف ر س : — كله ‖ ٦) ق : وخسرانا ‖ ٧) ق ر : — الله ‖ ٨) س : — ربنا ‖ ٩) قرآن : ١٢ : ٢١ ؛ ٣ : ١٥٤ ‖

[الرسالة الثالثة]

كتاب يتضمن بيان التقليد والبدعة وما اشتملا عليه من القبــائح[1] والمفاسد

اسلم عليكم واعرفكم بوصول كتابكم الينا تعلمون فيه بوصول جوابنا اليكم وانه وقع منكم موقعا اقتضاه حسن ظنكم وسلامة اعتقادكم وطلبتم منا فيه بيان التقليد والبدعة اللذين اشرت اليهما في الجواب المذكور وان اكتب اليكم نبذا في ذلك .

فاعلم ان هذين المعنيين قد ورد الشرع بذمهما وعيّب المتصف بهما .

اما التقليد فهو نوع من انواع البدع التي يأتي ذكرها وهي[2] عبــارة عن اتباع الغير من غير دليل ولا حجة كمن يقلد شخصاً لعظم محله عنده او[3] امــة من الناس لكثرتهم او قدم[4] زمانهم . وقد عاب الحق تعالى ذلك على طوايف من الكفرة في آي كثيرة من القرآن فقال تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[5] — اشاروا بذلك الى عظيمي القريتين الوليــد بن المغيرة بمكة ومسعود بن عمر بالطايف واستبعدوا نبوة العظيم القدر حقا واتخذوه هزوا لكونه يتيم ابي طالب كما قال تعالى : « واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا »[6] . ولما اقترح كفار قريش على نبينا عليه السلام الايات حين دعاهم الى دين الحق طلبوا منه ان يحيي لهم قصي بن كلاب عظيما من عظمايهم فيسألونه عما جاء به النبي عليه السلام ويقلدونه ويرجعون اليه . ولما حضرت ابا طالب الوفاة وعنده نفر من قريش فيهم ابو جهل جاءه النبي عليه[7] السلام فدعاه الى التوحيد فقال له اوليك النفر : يا ابا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فعاد له النبي صلى الله عليه وسلم بالنصيحة وعادوا[8] له بمقالتهم فكان آخر ما

---

١) س : المقابح ‖ ٢) ف ق س : وهو ‖ ٣) ف : و ‖ ٤) س : لقدم ‖ ٥) قرآن : ٤٣ : ٣٠ ‖ ٦) قرآن : ٢١ : ٣٧ ‖ ٧) ف ق : + الصلاة ‖ ٨) ف خ : وعاودوا ‖

تكلم به ان قال هو على ملة عبد المطلب فنزلت هذه الاية : « انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء »[1] (الآية) وهذا كله تقليد بمجرد التعظيم . وقال تعالى مخبرا عنهم : « انا وجدنا آباءنا على امة »[2] . لانهم كانوا (24) يعظمون اباءهم وربما حلفوا بهم . وقال تعالى مخبرا عن قوم صالح عليه السلام: « ابشرا منا واحدا نتبعه »[3] . فانكروا اتباعهم لواحد . ودليل ذلك انه لو بعث اليهم عدد منهم لاحتمل اتباعهم لهم . وهذا تقليد بمجرد الكثرة وقال تعالى مخبرا عن فرعون وقوم نوح عليه[4] السلام : « ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين »[5] . فمقتضى ذلك انه لو بلغهم عن اسلافهم ومتقدمي آبايهم ايمان بنبوة نبيهم لقلدوهم في ذلك واتبعوهم عليهم. وهذا تقليد بمجرد قدم الزمان. ولم يعذر الحق تعالى سفلة الكفار في تقليدهم لرؤسايهم واضلال رؤسايهم لهم بل جمعهم معهم في الضلال وجعلهم مشتركين في العذاب والنكال . وقد شبّههم الحق تعالى لفرط جهالتهم وشدة غباوتهم بالحمر والانعام وحكم بافلاسهم عن ثمرات العقول والافهام .

واعلم ان هذه الصفة الذميمة قد استطار في هذا الزمان شررها وعم ضررها فترى المتفقه الغبي اذا قرع سمعه شيء من علوم التحقيق او علم من اعلام اهل التصديق يلوي خده ويقطب وجهه ويقول لفرط غباوته : لو كان هذا حقا لنص عليه فلان ولتداولته القرون والازمان . وترى المتصوف الجاهل اذا ذكر عنده مسئلة من مسايل الاحكام ومعالم الحلال والحرام يتنكر لجليسه ويغتر بتزويره وتلبيسه ويقول لشدة جهالته : هذه ظواهر ورسوم ومخاطبات للعموم وقد كان سيدي فلان لا يقرأ ولا يكتب ولا ينتسب الى مذهب . وترى الفاجر العيّار من ذوي الكباير والاصرار يقتدى بهفوات القدماء وزلات العلماء ويعتد ذلك دينا متينا وحقا مبينا . وقد ينتهي الجهل باقوام الى ان لا يروا لاحد فضلا على من قلدوه من ايمتهم ويستحقرون بذل مهجهم[6] في محاماتهم ونصرتهم . وامثال هولاء كثير ولا حاجة الى تكثير الامثلة . والمقصود ان

---

١) قرآن : ٢٨ : ٥٦ ؛ ف ق ر س : — ولكن الله يهدي من يشاء || ٢) قرآن : ٤٣ : ٢٢ || ٣) قرآن : ٥٤ : ٢٤ || ٤) س : عليهما || ٥) قرآن ٢٨ : ٣٦ || ٦) ق: مهجتهم ||

تعلم ان مجالسة امثال[1] هولاء تبلد القلوب وتبعد[2] عن الغرض المطلوب ولذلك وقع تحذيرنا اياكم فيه فيما تقدم .

واعلم ان كل مسئلة مطلوب[3] فيها اصابة ما في نفس الامر وله مندوحة عن التقليد فيها بان ينظر الى[4] وجه الدليل المنصوب عليها اما على[5] جهة
(25) الوجوب كمسايل الاعتقادات او على غير جهة الوجوب كغيرها من المسايل . فالتقليد في ذلك مذموم سواء اتفقت اصابته ام[6] لم تتفق . فلا يدخل في هذا تقليد العامة للمجتهدين في المسائل الفقهية الفرعية لان المطلوب فيها اصابة ما غلب على ظن المجتهد ولا سبيل للعامي الى هذا الا بالتقليد . ولا يدخل فيه ايضا تقليد من يحتاج الى فن من فنون العلم لاربابه وان كان المطلوب فيه اصابة ما في نفس الامر اذ لا مندوحة له عن التقليد فيه كعلم التفسير والحديث والتاريخ والنحو واللغة والطب الى غير ذلك . فالتقليد[7] في نفسه مذموم لا ينبغي الاعتماد عليه الا عند الضرورة . الا ترى ان الابله البالغ في البله يسعه من التقليد في اعتقاداته ما لا يسع غيره اذا وافق الصواب. والله عز وجل اعلم.

واما البدعة فقد ورد في ذمها ايات كثيرة واخبار . قال الله عز وجل : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء »[8]. قال اهل التفسير: هم اهل الاهواء والبدع . وقال تعالى : « وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم »[9] اي عالمين بضلالتهم فيما احدثوا من التفرق والاختلاف طلبا للبغي . وقال تعالى : « شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا »[10] — يعني حسنه وزينته. الى غير ذلك من الآيات[11]. وحيث ما ورد في القرآن ذم اتباع الهوى واعتقاد الباطل والنهي عنها فالاشارة فيه الى ما ذكرناه . وقال النبي[12] صلى الله عليه وسلم : من احدث في ديننا ما ليس فيه فهو ردّ . وقال عليه الصلاة والسلام : لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به. وقال عليه السلام : شر الامور محدثاتها. وكل بدعة ضلالة .

---

١) إ : — امثال ‖ ٢) ف ق س : وتباعد ‖ ٣) ر : المطلوب ‖ ٤) ف ر س : في ‖ ٥) إ : من ‖ ٦) ر : او ‖ ٧) س : وحاصل الأمران التقليد ‖ ٨) قرآن: ٦ : ١٦٠ ‖ ٩) قرآن : ٤٢ : ١٣ ‖ ١٠) قرآن : ٦ : ١١٢ ‖ ١١) إ : الآفات ‖ ١٢) ر : عليه الصلاة والسلام ‖

وقال النبي[1] عليه السلام : ان بَنِي اسرائيل افترقت[2] على اثنتين[3] وسبعين ملة وتفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار الا ملة واحدة — قالوا : وما[4] هي يا رسول الله — قال : ما انا عليه واصحابي . وفي رواية : ثنتان وسبعون[5] في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة وانه سيخرج في امتي اقوام تجارى بهم تلك الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله . وقال رجل لابن عباس اوصني فقال له : اتبع ولا تبتدع. وقال ابن مسعود : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم . وقال ايضاً : من كان مستنا فليستن بمن قد مات اوليك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا
(26) خير هذه الامة ابرها قلوبا واعمقها علما واقلها تكالفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونقل دينه فتشبهوا باخلاقهم وطرايفهم فهم كانوا على الهدى المستقيم . وقال شريح :ان السنة قد سبقت قياسكم فاتبع ولا تبتدع فانك لن تضل ما اخذت بالاثر. وقال الشعبي : انما الرأي بمنزلة الميتة ان احتجت اليها اكلتها . وسأل رجل مالكا عن مسئلة فقال له: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا فقال الرجل ارأيت فقال مالك فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم . وقال سفيان الثوري : البدعة احب الى ابليس من المعصية . المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها . والاخبار والاثار في هذا المعنى كثيرة . والبدعة عبارة عما احدث على خلاف الحق المتلقى[6] عن رسول الله صلى الله غليه وسلم من علم او عمل او حال بنوع شبهة او استحسان وجعل ذلك دينا قويما وصراطا مستقيما وتعديد اصنافها يطول ولكنا نذكر هنا نبذة يستغني بها عن[7] تطويل[8] الكلام فيما لا فائدة فيه فنقول :

ان الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا الى جميع الانام وهاديا لهم الى دار السلام وكانوا اذ ذاك في جاهلية جهلاء وضلالة ظلماء مشتتة[9] آراؤهم[10] مفترقة[11] اهواؤهم لم تامر احلامهم الفاخرة الا باهمال النظر في مسالك

---

١) س: صلعم || ٢) ف ق س : تفرقت || ٣) إ : اثنين || ٤) ف ق ر س : من || ٥) إ : وسبعين || ٦) ق : الملتقى || ٧) إ :—عن || ٨) إ: طول || ٩) ف ر س: متشتتة || ١٠) ر : اباؤهم || ١١) ف ق س : متفرقة ||

العبد ولم تهدهم ألبابهم الوافرة الا الى عبادة حجر وشمس وقمر . فمنّ الله تعالى عليهم بان بعث فيهم رسولا من انفسهم وازكاهم وانفسهم. حلّاه باكمل الصفات واحسن الاخلاق ووفاه من مواهبه ومنحه نفايس الاعلاق فلا جرم كان في ذاته وصفاته آية باهرة وحجة قاهرة فخمدت نيران الضلالات[1] بطلوع انواره وامحت رسوم الجهالات[2] بظهور اثاره وزال الاختلاف وحصل الايتلاف وتواخى المومنون في الدين وتصافوا في طاعة رب العالمين وباعوا انفسهم لمالكها ومعتقها وقنعوا من الدنيا ببلغها وعلقها واستبشروا بمبايعة الجليل وقالوا: ربحنا[3] البيع لا نقيل ولا نستقيل. واعتدوا صحبة[4] رسوله صلى الله عليه وسلم انفس الذخاير واقوى الاعتاد وفدوه من محبتهم له بمهج النفوس وقطع الاكباد وآثروه بالسبد واللبد وهجروا في مرضاته الاهل والولد وبايعوه على الموت الاحمر وحازوا بمدحه: « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله »[5]. كل شرف باذخ ومفخر — الى غير ذلك من محاسن افعالهم واحوالهم.

وجميع ما ذكرناه شهدت به نصوص الكتاب ونقله الينا الثقات من (27)
اولي الالباب . وحاصل ذلك انهم اتفقوا على اقامة العبودية لربهم وكانوا يدا واحدة في اعلاء كلمة الله تعالى بنصرهم وذبهم اذ لم يجمعهم الله تعالى على شريعة واحدة الا ليألف بعضهم بعضاً به وفيه فيكونوا كشخص واحد كما قال تعالى : « انما المومنون اخوة »[6] . وقال : « والمومنون والمومنات بعضهم اولياء بعض »[7] . ولذلك امر النبي صلى الله عليه وسلم بلزوم الجماعة ونهى عن خلع اليد عن الطاعة فقال في الحديث الصحيح : من رأى من اميره شيئاً يكرهه فليصبر فانه ليس احد يفارق الجماعة شبرا فيموت الا مات ميتة جاهلية. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره : وانا آمركم بخمس أمرني ربي بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله وانه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه الا ان يراجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي جهنم . واراد بقوله خلع ربقة الاسلام من عنقه اي فارق عقد الاسلام بترك السنة واتباع البدعة . وقال الشعبي: خرج ناس من اهل الكوفة الى الجبانة يتعبدون واتخذوا مسجدا وبنوا بنيانا فاتاهم ابن مسعود

---

١) ف : الضلالة ‖ ٢) س : الجيالات ‖ ٣) ف ق ر س : ربح ‖ ٤) ر : بصحبة ‖ ٥) قرآن : ٤٨ : ١٠ ‖ ٦) قرآن : ٤٩: ١٠ ‖ ٧) قرآن : ٩: ٧٢ ‖

فقالوا : مرحبا بك يا ابا عبد الرحمن لقد سررنا ان تزورنا قال[1] : ما اتيتكم
زايرا ولست بالذي اترك حتى يهدم[2] مسجد الجبان انكم لاهدى من اصحاب
محمد صلى الله عليه وسلم ارايتم لو ان الناس صنعوا كما صنعتم من كان يجاهد
العدو ومن كان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ومن كان يقيم الحدود ارجعوا
وتعلموا[3] ممن هو اعلم منكم وعلموا من انتم اعلم منه . قال واسترجع فما
برح حتى قلع ابنيتهم وردهم .

فلما قبض الله تعالى نبيه[4] عليه السلام الى رضوانه وبوأه مبوأ انعامه
واحسانه خلفه في امته الخلفاء الراشدون الموفقون المسددون فجروا في ذلك
على سنته وناضلوا عن دينه وسنته واستضاءوا بانواره الباهرة وآياته الزاهرة فبقي
الحال على نحو ما كان عليه مدة بقايهم الى ان استأثر الله تعالى بهم . فلما
ان[5] انقضت دولة الاحسان والعدل وذهب القرن الموصوف بالخير والفضل
خبت[6] انوار اليقين بعد ظهورها وانتشارها وانتعشت صفات النفوس الامارة
لاستعلايها واستكبارها وحدثت الاهواء والبدع وانصدع من شمل الدين ما (28)
انصدع ووقع الاختلاف والفرقة وتباينت مذاهب كل طايفة وفرقة واشتغلوا
بالتبديع والتجهيل ودانوا بالتكفير والتضليل وحادوا عن سواء السبيل فتقاطعوا
وتدابروا وتباغضوا وتنافروا وتحاسدوا وتناكروا حتى آلت بهم[7] هذه الفضائح
الى هتك الحرمات واراقة الدماء وقادتهم هذه القبائح الى ابداء العورات بالقاء
جلابيب الحياء فباعوا دينهم بعوض[8] يسير وتعرضوا لمساخط من اليه المصير[9] .
ثم انتهى الامر الينا على هذا القياس ونفذ القدر علينا[10] بتجرع هذا الكاس .
« فانا لله وانا اليه راجعون »[11] .وقد روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال:
انا أمنة لاصحابي فاذا ذهبت[12] اتى اصحابي ما يوفدون واصحابي امنة لامتي
فاذا ذهبت اتى امتي ما يوعدون او كما قال صلى الله عليه وسلم[13] . وهذه
ازمنة الفتن التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام وامر فيها بالانفراد والاعتزال
عن الانام .

---

١) ق : فقال ‖ ٢) إ : يعدم ‖ ٣) ف ق ر س : فتعلموا ‖ ٤) س : صلعم ‖
٥) س : — ان ‖ ٦) إ : خفت ‖ ٧) إ ق : بينهم ‖ ٨) ف س : بعرض ‖ ٩) ر : —
فباعوا . . . المصير ‖ ١٠) س خ . الينا ‖ ١١) قرآن : ٢ : ١٥١ ‖ ١٢) إ : اتى
امتى ما يوعدون ‖ ١٣) [كذا] ‖

ونحن ذاكرون ها هنــا شيئا من احاديث الفتن ذات البلايا والمحن تبركا بالاحاديث النبوية وتذكرة بالمعجزة الباهرة في وقوع ما انذر بـه من الامور الغيبية. فقد قال رسول الله[١] صلى الله عليه وسلم: كيف بكم وبزمان يغربل فيه الناس غربلة ثم تبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم واماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا — وشبك بين اصابعه — قالوا كيف بنا يا رسول الله. قال: تأخذون ما تعرفون وتذرون ما تنكرون وتقبلون على امر خاصتكم وتذرون امر عامتكم — وقال صلى الله عليـه وسلم في حديث عبدالله بن مسعود: كيف انتم اذا لبستكم فتنة فتتخذ سنة يوافيهـا الصغير ويهوم فيها الكبير واذا ترك منها شيء قالوا تركت سنة — قالوا: ومتى ذلك يا رسول الله قال[٢]: اذا كثر قراؤكم وقل علماؤكم وكثر امراؤكم[٣] وقل امناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقه لغير الله. قال عبدالله بن مسعود: فاصبحنا فيها. وقال صلى الله عليه وسلم في معنى قوله تعـالى « عليكم انفسكم »[٤]: ايتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى اذا رايتم شحا مطاعا وهوى متبعـا ودنيا موثرة واعجاب كل ذي راي برايه فعليك بنفسك ودع العوام فان من ورايكم ايام الصبر الصبر فيها مثل قبض على الجمر للعامل فيها[٥] اجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله — قيل: يا رسول الله اجر خمسين منهم قال: اجر خمسين منكم —
(29) وقال صلى الله عليه وسلم: بادروا بالاعمال فتنـا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مومنا ويمسي كافرا ويمسي مومنا[٦] ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا. قال الحسن: معنى هذا يصبح محرما لدم اخيه وماله وعرضه فيمسي مستحلا لذالك. وقال صلى الله عليه وسلم[٧]: انكم في زمان من ترك فيه[٨] عشر ما امر به هلك ثم يأتي زمان من عمل فيه بعشر ما امر به نجا وان من ورايكم ايام الصبر الصبر فيه كالقبض على الجمر وان العبادة في الهرج كهجرة الي. وقال ابن عدي: دخلنا على انس بن مالك فشكونا اليه ما نلقى من الحجاج فقال ما من عام الا الذي بعده اشر منـه حتى تلقوا ربكم. سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي حديث حذيفة: حدثنا رسول

---

١) إ: — رسول الله || ٢) ق: قالوا || ٣) اموالكم || ٤) قرآن: ٥: ١٠٤ ||
٥) س خ: ايام الصبر فيها || ٦) إ: كافرا || ٧) إ: — وسلم || ٨) إ ف ر س: — فيه ||

الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت احدهما وانا انتظر الاخر . حدثنا
ان الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن فقرأوا من القرآن وعملوا
من السنة ثم حدثنا عن رفعها قال ترفع الامانة فينام الرجل ثم يستيقظ وقد
رفعت الامانة من قلبه ويبقى اثرها كالكوكب[١] او كالمجل كجمر دحرجته
على رجلك فهو يرى ان فيه شيئاً وليس فيه شيء وترفع الامانة حتى يقال ان في
بني فلان امينا[٢] وان كان في بني فلان رجلا امينا. ولقد رأيتني حينا وما ابالي
ايكم ابايع لئن كان مسلما ليردنه عليّ اسلامه ولئن كان معاهدا ليردنه عليّ
ساعيه . فاما اليوم فاني لم اكن لابايع منكم الا فلانا وفلانا . وفي بعض
روايات هذا الحديث : ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل اثرها
مثل اثر[٣] الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى اثرها مثل اثر المجل كجمر
دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شيء ويصبح الناس يتبايعون
ولا يكاد احد يودي الامانة ويقال للرجل ما اعقله وما اظرفه وما اجلده ،
وما في قلبه مثقال حبة خردل من الايمان[٤] . وفي حديث ايضاً : كان الناس
يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت اسأله عن الشر مخافة
ان يدركني . فقلت يا رسول الله : انا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا
الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال نعم — قلت هل بعد ذلك[٥] الشر من
خير قال نعم وفيه دخن — قلت وما دخنه قال قوم يهدون بغير هدى تعرف
منهم[٦] وتنكر قلت فهل بعد ذلك الخير من شر قال نعم دعاة على ابواب جهنم
من اجابهم اليها قذفوه فيها — قلت يا رسول الله صفهم لنا قال هم من جلدتنا
ويتكلمون بالسنتنا قلت فما[٧] تامرني ان ادركني ذلك قال تلزم جماعة المسلمين
وامامهم قلت فان لم تكن لهم جماعة ولا امام قال فاعتزل تلك الفرق كلها
ولو ان تعض باصل شجرة حتى يدركك الموت وانت على ذلك. وعن اسامة بن
زيد: اشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على اطم من آطام المدينة فقال هل (30)
ترون ما ارى قالوا لا قال فاني ارى الفتن تقع في[٨] خلال بيوتكم كوقع

١) إ خ : كالوكدف : كالوكت ؛ ط : في المنتسخ منه « كالكوكب » ولا اخاله إلا سهوًا فأن التي فى الحديث كما في الاصل هنا ؛ س خ : كالوكت || ٢) إ : أمين || ٣) إ : — اثر || ٤) س : ايمان || ٥) س : هذا || ٦) إ ق : منكم || ٧) ر : — فما || ٨) ر س : — في ||

القطر. وقال صلى الله عليه وسلم: انها ستكون فتن الاثم تكون فتن[١] النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي . من تشرف لها تستشرفه فمن وجد ملجأ او معاذًا فليعذ به. وقال صلى الله عليه وسلم: يوشك ان يكون خير مال المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن — فانظر هذا مع ما قدمناه عن ابن مسعود مع اولئك النفر المعتزلين يظهر لك التفاوت بين الازمنة . وقد قال ابن مسعود في زمانه ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر . والموت اليوم تحفة لكل مسلم . واحاديث الفتن اكثر من هذا .

وقد روى في بعض الاخبار : يأتي على الناس زمان يضلون دينهم فلا يعرفونه يصبح الرجل على دين ويمسي على دين يظل من امره على غير يقين تسلب عقول اكثر اهل ذلك الزمان فاول ما يرفع منهم الخشوع ثم الامانة ثم الورع . وقيل لابن المبارك : ايظهر بعد المايتين عدل فقال تذاكرنا ذلك عند حماد بن سلمة فغضب وقال: ان استطعت ان تموت بعد المايتين فمت فانه يحدث في ذلك الزمان امراء فجرة ووزراء ظلمة وامناء خونة وقراء فسقة حديثهم في ما بينهم التلاوم يسمون عند الله الانتان .

فاذا كان هذا في زمانهم فما ظنك بزماننا هذا . فحق على العاقل اللبيب في هذا الزمان الغريب ان ينصح لنفسه ويفر عن ابناء جنسه ويرتاد فيه قرين صدق وخدين حق سالك[٢] مسلك السلف الصالح تارك[٣] لما خالف المنهج الواضح فيقتص اثره ويتبع سيره فان الله تعالى لم يخل زمانا من الازمنة عن قايم بالدين حجة على الملحدين ينعش الله تعالى بهم حقوقه ويهدي بهم طريقه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة من امتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي امر الله وقال علي رضي الله عنه في حديث كميل بن زياد الطويل حين تكلم في العلم والعلماء. فقال في آخره : اللهم لا تخلو[٤] الارض

١) س : انهـا ستكون فِتنٌ النائمُ ؛ خ : فتن الأثم تكون فتن النائم ‖ ٢) س : سالكا ‖ ٣) إ س : تاركا ‖ ٤) ف : تخلو . كذا ؛ ط : قيل كذا في النسخة التي عليها خط المؤلف غير معتنى بـه . والصواب « لا تخل » ؛ س : لا تخلِ الأرضَ ؛ خ : ارضك ؛ ق: تخلي ‖

من قايم لك فيها بحجتك اما ظاهرا مشهورا واما خافيا مغمورا ليلّا تبطل حجج
(31) الله وبيناته . وكم واين اوليك هم الاقلون عددا الاعظمون قدرا بهم يحفظ الله حججه حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها[١] في قلوب اشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الايمان فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وانسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بابدان ارواحها معلقة بالمحل الاعلى اوليك خلفاء الله في ارضه والدعاة الى دينه هاهْ هاهْ شوقا الى رؤيتهم واستغفر الله لي ولك يا كميل—انتهى كلامه— وقد يقلون في العدد حتى ينتهوا[٢] الى واحد في القلة لكنه بمنزلة الجماعة والكثرة . فقد روي عن ابن المبارك انه سيل عن الجماعة المامور بلزومها فقال : ابو بكر وعمر فقيل مات ابو بكر وعمر فقال فلان وفلان فقيل قد[٣] مات فلان وفلان فقال : ابو حمزة السكري جماعة . وقال سفيان الثوري في تفسير الجماعة : لو ان فقيها على رأس جبل لكان هو الجماعة وهذه اشارة الى ما قلناه آنفا .

وقد بعدنا عن المقصد[٤] فلنرجع اليه. فجميع ما ذكرناه في هذه النبذة اشارة الى نوع واحد من انواع البدعة وهو ما يؤدي الى اختلاف وتنازع وتهاجر وتقاطع من اي وجه ادى الى ذلك ويقع ذلك بين مبطلين بسبب شدة التعصب من الجانبين وبين مبطل ومحق فينقسم الامر فيكون سببه من جهة المبطل هوى مرديا وشيطانا مغويا ومن جهة المحق قياما بواجب الدين ونصيحة للمسلمين . ويستحيل وقوعه بين محقين لفقدان السبب الموجب لذلك كالاختلاف الواقع بين اهل الحق من علماء الظاهر في المسايل الفقهية والاحكام الشرعية فان اختلافهم في ذلك رحمة اراد الله[٥] ان لا يجعل علينا حرجا في الدين رحمة منه . وقد كان هذا الاختلاف واقعا بين الصحابة الجلة الموصوفين[٦] بالرافة والرحمة المبرئين[٧] من المقاطعة والبغضة وكلهم طالب للحق سالك سبيل الصدق . وقد قال عون بن عبدالله : ما احب ان اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا فانه لو اجتمعوا على شيء فتركه رجل ترك السنة ولو اختلفوا واخذ رجل بقول واحد اخذ بالسنة . والسر في ذلك ما تقدم من ان المقصود في ذلك انما هو

١) إق : ويزرعوها || ٢) ق : ينتهون || ٣) ف ق ر : فقد || ٤) ق : المقتصد ||
٥) ر س : + تعالى || ٦) إ : الموصوفون || ٧) إ : المبرئون ||

اتباع غلبة الظن لا اصابة ما في نفس الامر . وكالاختلاف[١] الواقع بين علماء الباطن في واردات القلوب ومقامات المحب[٢] والمحبوب فانــه كلا اختلاف في الحقيقة لانبنايه على اختلاف احوالهم وتباين اذواقهم وكل واحــد منهم معبر عن وجده واقف على حده . ومعرفة المحق من المبطل غامض جــدا فمن اراد
(32) ذلك فليكثر التحفظ للسنن والاثار والتنقير عن السير والاثار[٣] ليتفقه في ذلك بقلب[٤] سالم من التقليد سايل من ربه التوفيق والتاييد .

وهذا النوع من البدعة واقع في العقايد والعلوم الظاهرة والباطنة والاعمال التي تضاد السنة بالكلية وهي التي سبق منا التحذير لكم من المتصف بها وان كان جميع انواع البدعة[٥] حقيقة بذلك فقد قال بعض العلماء : موالاة اهل البدع بالعودة تذهب بانوار القلوب وتحسين افعالهم يورث المقت من الله والبعد منه . وقال سهل بن عبدالله : من داهن مبتدعــا سلب حلاوة السنة[٦] ومن ضحك الى مبتدع نزع نور الايمان من قلبه . وقال بعض العلماء : لا يفلح تايب من بدعة وان وجد معنى من الحق لم يجد معنى من الحقيقة .

ووراء هذه بدعات[٧] كثيرة في العلوم والاعمال داخلة في رسم البدعــة المذكور اولا منها ما يرجع الى وسوسة واسراف وغلو وتنطع وكلها مذمومة ليست من السنة في شيء . فاذا فهمت ما ذكرناه علمت منه انه لم يحض باتباع السنة الا هذه الطايفة المختارة من الصوفية قبل دخول الاحداث عليهم في هذه الاعصار فان من بداية امورهم التي ضل بعدم مراعاتها الزايغون مجاهدة انفسهم عن اتباع الهوى والمبالغة في ترك الدنيا . ومن نهايتها انفراد قلوبهم بربهم واستهلاكهم في شهودهم وقربهم[٨] وقد اندرج[٩] في ذلك جميع وظايف الدين ومقامات اهل المعرفة واليقين واحوالهم السنية ومقاماتهم العلية مواريث محافظتهم على الاداب الشرعية فلا ارتياب عند منصف في انهم فازوا من اتباع السنة بالحظ الاعلى وضربوا في ذلك بالقدح المعلى وانهم المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم : ان لله عز وجل ضناين من عباده يغذيهم في رحمة ويحييهم في عافية اذا توفاهم توفاهم[١٠] الى جنته اوليك

---

١) ق : والأختلاف ‖ ٢) إ : — المحب و ‖ ٣) ر : — والآثار ‖ ٤) ر : بقلم ‖ ٥) ف ر : البدع ‖ ٦) ف ر : السنن ‖ ٧) ف ق ر س : بـدع ‖ ٨) إ : — في ترك . . . وقربهم ‖ ٩) ق : انفرد ‖ ١٠) س : توفيهم ‖

الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم هم[١] منها في عافية. وقد قال سيد هذه الطايفة وامامهم ابو القاسم الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتفى اثر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقال ايضا : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الامر لان علمنا هـذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال ايضاً: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. (33)
وقال سهل بن عبدالله : بنيت اصولنا على ستة اشيا.: كتاب الله وسنة رسوله واكل الحلال وكف الاذى واجتناب الاثام والتوبة واداء الحقوق . وقال ابو[٢] عثمان الحيري : من امّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن امّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة . قال الله تعالى.« وان تطيعوه تهتدوا »[٣]. وقال ابن عطاء : « من الزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ». ولا مقام اشرف من متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في اوامره وافعاله واخلاقـه . وقال ابو حمزة البغدادي : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الى الله الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في افعاله واحوالـه واقواله. وقال ابو بكر الطمستاني : من صحب الكتاب والسنة وتغرب عن نفسه والخلق وهاجر بقلبه الى الله تعالى فهو الصادق والمصيب. وقال ابو القاسم النصراباذي : اصل التصوف ملازمـة الكتاب والسنة وترك البدع والاهواء وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية اعذار الخلق والمداومة على الاوراد وترك اتباع الرخص والتأويلات . وقال ابو يزيد البسطامي لجليس له : قم بنا حتى ننظر الى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية — وكان رجـلا مقصودا مشهورا بالزهد . قال فمضينا فلما خرج من بيته دخـل المسجد ورمى ببزاقه[٤] تجاه القبلة فانصرف ابو يزيد ولم يسلم عليه وقال هذا غير مأمون على ادب من اداب النبي عليه السلام[٥] فكيف يكون مامونا على ما يدعيه . وقال ابو يزيـد ايضا : لقد هممت ان اسأل ربي عز وجل ان يكفيني مؤنة الاكل ومؤنـة النساء. ثم قلت كيف يجوز لي ان اسأل الله هذا ولم يسأله رسول الله صلعم. ولم اسأله . ثم ان الله سبحانه كفاني مؤنة النساء.[٦] حتى لا ابالي استقبلتني امرأة او حائط.

---

١) ر :— هم ‖ ٢) إ : ابن ‖ ٣) قرآن : ٢٤ : ٥٣ ‖ ٤) ق ر : ببصاقة ‖ ٥) ف ق س : صلعم ‖ ٦) إ : — ثم قلت . . . النساء ‖

وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري وكان يخدم الشبلي فقال له : ما الذي رأيت منه. فقال قال عليّ درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بالوف فما على قلبي شغل اعظم منه ثم قال وضيني للصلاة ففعلت فنسيت تخليل اللحية[١] وقد امسك على لسانه فقبض على يدي وادخلها في لحيته ثم مات[٢] فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره ادب من آداب الشريعة .

والحكايات[٣] عنهم في هذا المعنى مما يكثر[٤] وفيما ذكرناه كفاية نفعنا الله ببركاتهم وحشرنا في زمرتهم ولا خالف بنا عن سبيلهم[٥]. ويلتحق بهم من سلك مسلكهم او احب طريقتهم من علماء الظاهر ولم يكن له عليهم اعتراض

(34) بلسان ولا خاطر[٦] والله تعالى اعلم .

فهذا ما حضرني من الكلام في معنى التقليد والبدعة ولم نر احدا من العلماء ذكر فيها حدا ولا ضابطا وانما فهمنا هذا من مقتضيات اشاراتهم[٧] ومفهومات اطلاقاتهم ولعل[٨] ما ذكرناه يكون صحيحا والله تعالى الموفق للصواب بمنه وكرمه[٩] .

ورأينا ان نختم هذه النبذة بكلام رايناه لامام الائمة الحسن بن ابي الحسن البصري رضي الله عنه نبه فيه على سنن دارسة خالية وسير ينبغي ان يتنافس فيها ذو الهمم العالية . فرأينا ان نجمع به شمل ما ذكرناه ونتمم به الغرض الذي قصدناه. قال رحمه الله بعد ان ذكر قوله عز وجل[١٠]: « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة[١١] » .

« ان الله تعالى[١٢] اختار محمدا صلى الله عليه وسلم على علم وانزل عليه كتابه وجعله رسوله الى خلقه ثم وضعه من الدنيا موضعا لينظر اليه اهل الدنيا فاتاه منها قوتا ثم قال: « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » فرغب عن ذلك اقوام نعم والله فابعدهم الله . النجا النجا . الوحا الوحا . على مَ تعرجون. على

---

١) ف ق ر س : لحيته ‖ ٢) إ : — ثم مات ‖ ٣) ق : والحكاية ‖ ٤) ق : تكثر ‖ ٥) ف ق ر س: — نفعنا . . . سبيلهم ‖ ٦) س:+ فخذوا هذا دستورا تعتمدوا عليه في مواضع الألتباس والأشكال وتفرقوا له بين الصحيح الحال والمحال ‖ ٧) ف : اشارتهم ؛ ط : لعله « اشاراتهم » بلفظ الجمع ‖ ٨) س خ : ولعل عند غيري ما هو ابلغ من هذا واكثر تحريرًا والله . . . ‖ ٩) ف ق ر س : — بمنه وكرمه ‖ ١٠) ف ق ر س : تعالى ‖ ١١) قرآن ٣٣: ٢١ ‖ ١٢) ف ق : عز وجل ‖

مَ تفرحون . قطعوا عنكم حبال الدنيا وغلقوا عنكم ابوابها. كانكم ركب وقوف اذا دعي احدكم اجاب . كان اشتراطها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصبحتم في غيها فوالله ما نعلمه[1] بقي الا المعاينة . ان الله عز وجل لما بعثه ، قال هذا نبي. هذا خياري . خذوا في سنته وسبيله . ولم يكن صلى الله عليه وسلم تغلق دونه الابواب ولم يقم دونه الحجبة ولا يغدى عليه بالجفان ولا يراح بها عليه ولكنه كان بارزا . من اراد ان يلقى رسول الله صلى الله وسلم لقيه . يجلس بالارض ويضع طعامه على الارض[2] ويلبس الغليظ. ويركب الحمار . ويردف بعده . ويلعق يده . ويقول من رغب عن سنتي فليس مني . فكثر الراغبون عن سنته التاركون لها . علوج . فسّاق. اكلة الربا[3] وغلول. قد سفههم ربي ومقتهم . زعموا ان لا بأس عليهم فيما اكلوا وشربوا وزخرفوا. يتأولون قول الله سبحانه : « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »[4] . وانما هي لاولياء الشيطان قد جعلها ملاعب لبطنه وفرجه . ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا موافقين لكتاب الله وسنة
(35) رسوله صلى الله عليه وسلم[5] . ما قالوا كذلك فعلهم وما فعلوا كذلك قولهم. اذا جنهم الليل فقيام على اقدامهم يفترشون وجوههم . تجري دموعهم على خدودهم. يرغبون في فكاك رقابهم. واذا عرض لهم شيء من الدنيا او اشرف عليهم منها شيء اخذوا منها بلغتهم ووضعوا الفضل في معادهم فادوا فيه الشكر لربهم واشتروا منه الفضل لانفسهم . واذا زويت عنهم استبشروا وقالوا هذا نظر من الله عز وجل واختيار[6] منه لنا . ان عملوا الحسنة سرتهم ودعوا الله[7] ان يتقبلها . وان عملوا سيئة ساءتهم واستغفروا الله منها . فما زالوا كذلك وعلى ذلك ولا والله ما سلموا من الذنوب ولا وصلوا الى الجنة الا بالمغفرة .

فاصبح اقوام يتمنون الاماني ويركضون فيها. ولقد ادركت اقواما يعملون الحسنات خايفين الا تقبل منهم . ثم ادركت بعدهم اقواما يعملون السيئات آمنين غير خايفين ان يوخذوا بها . ولقد كان طوايف من هذه الامة يعيش احدهم الخمسين سنة ونحوها ما له ثوب يطويه ولا يجعل بينه وبين الارض شيئا

---

١) س : نعلم || ٢) إ : — ويضع . . . الأرض || ٣) ف ق : ربا || ٤) قرآن : ٨ : ٣٠ || ٥) ف ر س : — صلعم || ٦) إ : واختبار || ٧) ف ق ر س : + عز وجل ||

ولا يامر اهله بصنعة طعام يشتهيه . اذا دخل بيته دخل ناحلا ذابلا. لما جاءتهم هذه الدعوة صدقوا بها وافضى يقينها الى قلوبهم. فخشعت لذلك افئدتهم وابدانهم وابصارهم كأنهم قد رأوا ما يوعدون. ولا والله ما كانوا باهل جدل ولا باطل ولا تحلي[1]. جاءهم من الله امر فصدقوا به فنعتهم الله تعالى في كتابه احسن نعت فقال: « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا — والهون في كلام العرب اللين والسكينة والوقار وقال: « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »[2]. حلماء اتقياء صبراء . ان بغي عليهم لم يبغوا وان جهل عليهم حلموا وصبروا حتى يكون الله هو الذي ياخذ لهم . ويصاحبون بذلك عباد الله . نهارهم ثم ليلهم خير ليل . يبيتون لربهم سجدا وقياما ينتصبون له على اقدامهم ويفترشون له وجوههم : تجرى دموعهم على خدودهم فرقا من ربهم لامر ما سهروا لـه ليلهم ولامر ما خشعوا نهارهم. « يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما »[3]. قال : وكل شيء يزول فليس بغرام وانما الغرام اللازم مـا دامت السموات والارض صدق القوم والله الذي لا اله الا هو فعملوا ولم يتمنوا الاماني . فاياكم رحمكم الله وهذه الاماني فان الله لم يعط عبدا بها خيرا قط
(36) في دنياه ولا اخراه . ان المؤمنين صبر ذلل اتقياء بررة . وقال: والله ما عقل عبد عن ربه فتكبر ولا تعظم . ولا اختال . ولا طلب عبد هذا الخير حتى جهد فيه واجتهد وناصح وصدق الله في السر والعلانية واستقام على ذلك حتى ينزل به الموت . اذ سمع ربه اثنى على قوم « قالوا ربنا الله ثم استقاموا »[4]. استقاموا والله على معرفته وسارعوا في طاعته « تتنزل عليهم الملايكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون »[5]. وتركوا الدنيا لاهلها لم يجزعوا من ذلك ولم ينافسوا اهلها في عزها . حلماء علماء حكماء مصابيح الهـدى يخرجون من كل فتنة غبراء مظلمة. يجهلهم اهل الارض ويعرفهم اهل السماء ».

فهذا ما اردنا ذكره من كلماته النفيسة البديعة وانفاسه الرفيعة التي بلغت الغاية في الحسن واعجزت عبارتها البلغاء اللسن وقضى متأملهـا منها العجب .

---

١) إ : يخلا ‖ ٢) قرآن: ٢٥: ٦٤ ‖ ٣) قرآن ٢٥: ٦٥ ‖ ٤) قرآن: ٤١: ٣٠ ‖
٥) قرآن : ٤١ : ٣٠ ‖

وحصل منها على منتهى السؤل والأرب . وكم له رضي الله عنه من مقامات حميدة في نصر الدين وقهر الملحدين وطرقات سديدة في ارشاد الضالين وتعليم الجاهلين . فجزاه الله على[1] ذلك خيرا ، واعظم له اجرا ووفقنا لاقتفاء آثاره[2] والاستضاءة بانواره .

---

١) ق : عن ، ف خ + كل ‖ ٢) ر س : أثره ؛ س خ : آثاره ‖

[الرسالة الرابعة]

فصل في آداب الآخذين في علم الظاهر
وما احدثوا فيه من بدع ومناكر

اعلم ان هذا الفن كثرت فيه البدع في هذا الزمان وعم بسببها الضرر والعدوان . وسبب ذلك فساد نية[1] طلبته وحملته وجهلهم بفايدته وآفته . فمن فساد نيتهم وقعوا في مهاوي الغرور . ومن جهلهم بامره اعوزتهم من قلوبهم[2] وجدان النور فصاروا بذلك مثلة عند ذوي البصاير محقوقون[3] بالخزي يوم تبلى السراير . وحسبك دليلا على صحة[4] ما قلناه ووضوح ما قررناه مشاهدة افعالهم ومعرفة احوالهم . فليس الخبر كالعيان ولا كبيان ذلك بيان .

وجملة الامر ان منهم من اخذ فيه مع خبث طويته وقبح سريرته مغترا بما ظهر من حالته فلا جرم حصل بذلك على جميع مقاصده الذميمة وقويت بذلك صفات نفسه اللئيمة فما زاده ذلك الا شرا وما كانت عاقبة امره الا خسرا وهو يظن ان له عند ربه قدرا .

ومنهم من اخذ فيه بحسن النية بزعمه[5] محتسبا ثواب ربه في تعلمه وعلمه يرى انه قام بواجب الوقت وانه سلم من دواعي المقت فاغتنم ذلك منه عدوه اللعين واستحوذ عليه بانواع التزوير والتزيين . فذكره ما ورد من فضايل[6] اهل[7] العلم ودرجات اهل[8] الفقه والفهم . ولم يعلم المسكين انه قد انخدع بسرابه ووقع على مراده في رفض ما هو اوجب عليه واولى به .

ومنهم من اقدم عليه بنية سليمة جادا في هربه من هذه الخلال الذميمة واضعا الامور في مواضعها قامعا لدواعي[9] نفسه ونوازعها . الا انه لم يجد من يعينه على حاله من اضرابه وامثاله فاضطره اعواز المناسب الى مخالطة الاجانب

---

١) س : — نية || ٢) ر : — من قلوبهم || ٣) ف ط : قيل الجاري محقوقين وهو ظاهر || ٤) ق : حجة || ٥) ف ق س : في زعمه || ٦) ق : انواع || ٧) إ : — اهل || ٨) إ : — اهل ٩) ر : لداعي ||

فلم يلبث ان سرت حمتها في باطنه بلطيف الاستغراق[1] وترآت على ظاهره سمات النفاق فجاء الفساد من حيث رجا الصلاح واستبهم عليه سبيل النجاح (38) والفلاح . « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم »[2]. وقد جاء في الخبر عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم انه قال: اكثر منافقي امتي قراؤها. وقال الحسن بن ابي الحسن[3] : كان الرجل اذا طلب العلم لم يلبث ان يرى ذلك في تخشعه ولباسه وبصره ولسانه ويده وصلاته وهديه وزهده وان كان الرجل ليصيب الباب من ابواب العلم فيعمل به فيكون خيرا له من الدنيا بما فيها لو كانت له فيضعها في الاخرة . قال : ولا يقبل الله من صاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا عتقا ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا وليأتين على الناس زمان يشتبه فيه الحق بالباطل . فاذا كان ذلك لم ينفع فيه الا دعاء كدعاء الغريق . فعليكم بالعلم فان العلم لا يسلم اهله . اشار بذلك رحمه الله الى ما ظهر في زمانه من طلب العلم على غير بصيرة . وقال سفيان الثوري : اياكم وفتنة العالم الفاجر . واياكم وخشوع النفاق. وقال مالك: دخلت على عبد الرحمن بن هرمز وهو مخل وليس[4] عنده احد فذكر شرايع الاسلام وما يخاف من صنيعته وان دموعه لتنسكب . قال مالك : وكان ابن هرمز رجلا كنت احب ان اقتدى به وكان قليل الكلام قليل الفتيا شديد التحفظ وكان بصيرا بالكلام شديدا على اهل الاهواء. وكان من[5] اعلم الناس بما اختلف فيه من الامور . فقال مالك : ودخلت على ربيعة فوجدته يبكي. فقلت له[6] اصلحك الله ما لك تبكي فقال يا مالك تكلم في هذا العلم او قال في هذا الدين من ليس بمامون ومن لا[7] ترضى حالته. قال مالك: فكيف لو ادرك ربيعة ما نحن فيه. وقال بعضهم: رأيت سفيان الثوري حزينا فسالته عن ذلك فقال : ما صرنا الا متجرا لابناء الدنيا. فقلت وكيف ذلك قال: يلزمنا احدهم حتى اذا عرف بنا وحمل عنا جعل عاملا او حاجبا او قهرمانا او جابيا فيقول: حدثني الثوري .

فان قلت : كيف يكون المتعلم والمعلم سالكين سبيل السنة متبعين لما عليه هذه الامة . فاعلم ان اخذهما فيه اعني تعلم المتعلم وتعليم المعلم ان كان

---

١) ر : الاستراق || ٢) قرآن :٣٨: ٢٣ || ٣) ق: + البصري || ٤) ف: ليس || ٥) ق: — من || ٦) ق ر : — له || ٧) ق : ولا من ||

فرض عين عليها فالسنة في طلب المتعلم اعتماد الاعلم الاتقى للتعلم[١] منه ان وجده . والسنة في تعليم المعلم الرفق بالمتعلم وبسط خلقه له وتفهيمه بابلغ ما يقدر عليه. وان كان غير فرض عين فسنته فيها مع ما تقدم اخلاص النية وان
(39) لا يرتكبا معه محظورا ولا مكروها ولا يخلا بادب من اداب الشرع الظاهر[٢] . فان واقعا شيئا من ذلك واحتسباه قربة فهما مبتدعان ومذهبهما ذلك بدعة لان ذلك لم يكن من شان السلف . وان كانا معترفين بخطاهما وادين ان ينجوا من ذلك كفافا لا لها ولا عليها فليسا مبتدعين بل هما اما عاصيان او تاركان للافضل. مثاله مما[٣] يجري في العادة : اما المتعلم فأن[٤] يتعلم ممن يحب الرياسة والاستتباع فيكثر سواده او يشاهد عليه او في مجلسه منكرا ولا يغيره مثل الغيبة والوقيعة والمراء والمجادلة ورفع الصوت ان كان في مسجد او في حال اسماع[٥] حديث من احاديث النبي صلى الله عليه وسلم او الرد على كلام احد من اهل العلم على وجه التعصب واساءة الادب بنسبته الى الفساد وعدم الصحة وخرق الاجماع وما يجرى هذا المجرى . او يسيء ادبه على المعلم فيعنته في السؤال ويعارضه في المقال او يتكبر على احد من اقرانه وجلسايه او يسيء مجاورتهم في المجلس بقول او فعل او يسيء ظنه بهم الى غير ذلك .

واما المعلم فان يعلم من يظهر له من مخايله فساد نية او خبث طوية ظهورا بينا . فان اكثر ما يقع من الفساد في هذا الزمان انما هو من عدم مراعاة هذا الامر. وان يجلس على[٦] موضع مرتفع على اصحابه من غير غرض صحيح وان يسامحهم في سوء ادب ان صدر من احدهم عليه او على بعضهم بل يغلظ القول تارة ويامر بالخروج من المجلس اخرى على حسب ما يراه في مقتضى الدين وان يخص الاغنياء وابناء الدنيا بادناء مجالسهم منه دون الفقراء والمساكين من غير وصف ديني يقتضي ذلك وان يدخر عنهم نصيحة ان وجد لها محلا وان يخلي مجلسه عن[٧] ذكر الله تعالى وتلاوة آية من كتابه وحديث من حديث نبيه صلى الله عليه وسلم وخبر من اخبار الصالحين وصلاة على النبي صلعم[٨] وسؤال مغفرة ورحمة واستعاذة اذا وجد لجميع ذلك مفصلا . بل يعتمد

---

١) إ: للتعليم ؛ ق: المتعلم || ٢) ق: الظاهرة || ٣) إ: ما || ٤) إ: − فان (فيتعلم)
٥) ر س: استماع س خ: اسماع || ٦) إ: + غير || ٧) س: من || ٨) إ: − وخبر . . . صلعم ||

ذلك ويقصده ويعتده من أعظم فوايد المجلس . وذلك ادل دليل علـى يقظة قلبه وطهارة نفسه. بل ان كان له حظ من علم اليقين وحال صالح من احوال العارفين الموفقين فليذكر لهم من نفيس علومه مـا تحتمله عقولهم وليديهم من شريف[1] احواله ما تصح به احوالهم وينبههم على كيفية ارتباط الشريعـة بالحقيقة ويسلك بهم[2] الى تفهيمهم اسرار ما يتعلمونه اوضح طريقة[3] ويصرفهم
(40) بقوله وهمه عن ملاحظة كل محدث وزايل ويحققهم بمعنى قول النبي صـلى الله عليه وسلم : اصدق بيت قالته الشعراء :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَى اللهِ بَاطِل

فهذه كانت سير سلفنا الصالحين ووصايا علمائنا الناصحين فمن حذا عـلى مثالهم ونسج على منوالهم فقد حاز قصب السبق في عصره وفاز بقدم الصدق عند ربه في عاقبة امره ومن نـكب عن اتباع سنتهم وانحاز الى غـير فيئتهم فقد باع آخرته بدنياه وتعرض لسخط مولاه ودخل في مقتضى قوله تعالى : « قل هل ننبيكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيـا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا »[4] .

والعياذ بالله من ذلك .

---

١) ر : شرف ‖ ٢) إ : ويسلكهم ‖ ٣) إ : وصح طريقه ‖ ٤) قرآن : ١٨ : ١٠٣ – ١٠٤ ‖

[الرسالة الخامسة]

كتاب تضمن تطييب قلب صاحب أصابه كرب من اعتراض معترض عـــلى كلام صاحبه[1]

الحمد لله وحده . اسلم عليكم كثيرا. وبعد فموجبه اليكم اني اخبرت عن الكرب الذي كان اصابكم من اجل الكلام الواقع من قبل زيــد او عمر[2] بسبب ما تضمنه الكتاب الذي كنت كتبته اليكم قبل . وانه بلغ ذلك منكم مبلغا عظيما .

فاعلموا اني لم اقدم على مثل ذلك النمط وبيان الصواب فيه من الغلط الا وقد علمت اني تعرضت لتطويل الالسنــة بالكلام واستهدفت لوقوع المطاعن والملام. وليس ذلك بضار لي شيئاً اذا خلصت فيه النية وحصلت به الامنية . ومن قدر انه يسلم من عيب النــاس وطعنهم فهو مجنون . ولست اخاف من راد لما فيه لاختصاص ضرر ذلك به وانما اخاف من قابل له باحالته عن وجهه وعدم احاطته بكنهه . وعهدي اني حررت الكلام فيه تحريرا لا مزيد عليــه وتحاميت الافصاح بما لا تهتدي العقول اليه . ولقد صدق الشافعي حيث قال في وصيته لبعض اصحابه : لا اقول لك الا حقا انه ليس الى السلامة من الناس سبيل . فانظر الى ما يخلصك فألزمه . وقال بعض الحكماء : داء الانسان[3] بالناس اعظم من دايه بالسباع العادية والافاعي الضارية لان التحفظ من ذلك ممكن ولا يمكن التحفظ من الناس اصلا . ثم ان الله تعالى منّ علينا بسكينة انعشت القلوب والارواح وطمأنينة تجلى بها ضوء الصباح فلم نبــال معها بمن برق ورعد ولم نحفل من اجلها بمن قام وقعد بل اتخذنا ذلك سببا للاعتبــار وسبيلا للادكار[4] فلربنا الحمد كثيرا كما هو اهله. وقد قال بعض العارفين: من نظر الى الخلق بعينه طالت خصومته معهم ومن نظر اليهم بعين الحق عذرهم .

---

١) س خ: وله ايضاً رضي الله عنه كتاب فيه تسلية قلب صاحب اهتم من اجل اعتراض من اعترض على صاحبه || ٢) ر : عمرو || ٣) س : الانس || ٤) ر س : للاذكار ||

ثم لنا في الانتظام في سلك من اعترض عليه من اهـــل الحق ونسب الى الضلال والتزنـــدق وهم خاصة الاولياء من اهل المحن والابتلاء نعمة جزيلة لا يقدر قدرها ولا يوفي شكرها. بيد انهم لم يتنقصهم ذلك ذرة من احوالهم المكينة (42)
ولم ينقلب الطاعن الا عليهم بالعين السخينة ، وكيف لي بذلك وانى لي وهل يطمع في نيل هذه المرتبة العلية امثالي . « عَلَى أَنَّنِي رَاضٍي بِأَنْ أَحمِلَ الْهَوَى وأَخْلُصَ مِنهُ لا عَلَيَّ وَلَا لِيَا » ـ ثم لنا في آفات النفوس التي نكست الرؤوس، ما يشغلنا عن الالتفات الى ما وقع والمبالاة به ضر او نفع .

فهذه اوجه بينـــة قصدنا ذكرها تطبيبا[1] لقلوبكم وحرصا على اراحة خواطركم . وآثرنا ذلك على الاضراب عما تضمنه هذا الكتاب من تعريض بذكر الغير او تلويح بما يقتضي الكتمان والستر . فلا يهولنكم شيء من ذلك ولا تكترثن به .

ثم اني مجدد[2] لكم الوصية التي كنت اوصيتكم بها ومؤكد عليكم في تعهدها والقيام بموجبها . وربنا عز وجل المسئول في التوفيق لما يرتضيه ويزلف[3] لديه والجمع لهمومنا بصدق العبودية بين يديه انه مالك[4] كريم جواد رحيم .

---

١) ق: تطبيبا ‖ ٢) إ : أجدد ‖ ٣) ر: ويزلفه ‖ ٤) س : ملك ‖

[الرسالة السادسة]

كتاب تضمن الكلام على مسايل مفترقة مكتوبة تراجمها في طرره لكون الكلام فيها مرتبطاً بعضه ببعض[1] واولها مسئلة المشي الى الحج وحكمه بالنسبة الى الاشخاص والاحوال

الحمد لله وحده[2] . المشي الى الحج في هذه الازمنة مما يعظم حرص الناس عليه وتميل نفوسهم اليه . ويوثرون المشقة والقلة والغربة اللازمة له على الراحة والجدة والاقامة . وقد يترك بعضهم دينه وما هو اهم عليه منه[3] بسبب ذلك. فاذا قضوا صورة ذلك الفعل الذي قصدوه لم تكن لهم حينئذ همة ولا ارادة الا الرجوع الى اوطانهم والاجتماع باهاليهم واخوانهم . فاذا نالوا من ذلك بغيتهم واستطالوا مدة اقامتهم وادركهم الملل والكلل اشتاقوا الى معاودة الحال الاولى وحرصوا عليها اشد من حرصهم اول مرة . وهذا كله مركوز في طباعهم مجبولون عليه .

فيجب على العاقل البصير اذا سنح في خاطره شيء من ذلك ان يعرض عن مقتضى طبعه ويعرض ذلك على[4] بصيرته ويستفتي فيه قلبه ويعمل على حسب ما يظهر له في مقتضى الدين او يسترشد من فيه اهلية ذلك ولا يتبع هواه من غير بصيرة او مشورة فيكون عمله باطلا ولم ينل بتعبه ونصبه طايلا. ومعرفة احكام ذلك بالنظر الفقهي لا يخفى فلننظر[5] في ذلك على وجه اعم منه فنقول:

المشي الى الحج على ثلاثة اوجه : مشي محمود مطلقا — ومشي[6] مذموم مطلقا — ومحمود من وجه مذموم من وجه .

فالمشي المحمود مطلقا مشي عالم موقن سالم من حظ النفس وغلبة الطبع لان باعثه على ذلك مقتضى الدين ونور اليقين وهذه حالة شريفة ومنزلة عالية منيفة لا يعرفها الا من اقيم فيها .

---

١) إ : — لكون . . . ببعض ‖ ٢) إ ف ق ر س : ط : حكم المشى الى الحج ‖
٣) ر : — منه ‖ ٤) ق : + مقتضى ‖ ٥) ر س : فلينظر ‖ ٦) ق ر : مشي ‖

(44) فقد حكي عن بعض العلماء انه قال : بينا انا اطوف بالبيت اذ لقيني رجل كبير السن فسألني عن بلدي فاخبرته فقال لي : كم بينه وبين هذا الموضع. فقلت له نحوا من شهرين فقال لي: يمكنكم ان تحجوا هذا البيت كل سنة . فقلت له : وانت كم بين ارضك وبين هذا الموضع . فقال لي :سيرة خمس سنين خرجت من بلدي وانا شاب. قال: فتعجبت من ذلك فأنشا يقول :

زُرْ مَنْ هَوِيتَ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ ٱلدَّارُ أَوْ[1] حَالَ مِنْ دُونَهُ حُجُبٌ وَأَسْتَارُ

لَا يَمْنَعَنَّكَ بُعْـدٌ مِنْ زِيَارَتِـهِ إِنَّ ٱلْمُحِبَّ لِمَـنْ يَهْوَاهُ[2] زَوَّارُ

وحكي[3] ان الشيخ ابا الحسن اللخمي كان ذات يوم جالسا مع اصحابه فتذاكروا حكم الحج في زمانكم وهل وجوبه باق او ساقط وكثر في ذلك كلامهم ومن وراء الناس فقير يستمع اليهم فلما فرغوا من ذلك ادخل ذلك الفقير رأسه في الحلقة وقال مخاطباً للشيخ :

يا سيدي :

إن كَانَ سَفْكُ دَمِي أَقْصَى مُرَادِكُمْ

فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمْ بِسَفْكِ دَمِي

والمشي المذموم مطلقا مشي من اتصف باضداد تلك الصفات وكان غرضه من ذلك مجرد الرياء والسمعة لان باعثه على ذلك هو غلبة الهوى فقط. ووجود هاذين القسمين نادر ووجه حكمها ظاهر .

واما المشي المحمود من وجه المذموم من وجه فهو مشي انسان متدين او مترسم بالعلم باق مع حظوظه وشهواته ، جاهل بمكايد العدو وخدع النفس لاشتراك البواعث الحاملة له على المشي وعدم استقلال احدهما . وهذا القسم يحتاج الى بيان وجه ترجيح البواعث فيه بالنظر الى الاشخاص والاحوال .

فلا يخلو هذا الشخص اما ان يكون صرورة او لا . فان كان صرورة فان قلنا ان وجوبه على الفور وتوفرت الشروط وانتفت الموانع فمشيه محمود

(45) ومامور به ولا يعارضه شيء البتة الا ما قيل من مراعاة حق الاباء والابناء والغرماء على تفصيل الفقهاء في ذلك. وان قلنا انه على التراخي الى حين خوف

---

١) ف ق ر : و || ٢) إ خ: يحب || ٣) ر : ويحكى ||

الفوات او انتفى شرط او وجد مانع فان كان من عامة الناس اعني من اهل مقام الاسلام وليس فيه قابلية لغير المعاملة بالظاهر وكان في حال اقامته بصدد طاعات وخيرات يعملها سواء كانت قاصرة عليه او متعدية الى غيره لتمكنه من اوراد ونوافل ولقيامه بمنافع متعدية الى غيره[1] من تعلم علم او تعلمه او ادخال رفق على مسلم فان توقع في سفره تضييع فرض او ارتكاب نهي هو سالم منه في موضعه فمشيه مذموم من قبل قوة ميل نفسه وهو في غاية الذم من مثله ولفوات تلك المقاصد الدينية التي هو عليها . وان علم من نفسه المحافظة على الفرايض واجتناب النواهي في طريقه بظن غالب فيحتمل ان يترجح ذم مشيه لقوة ميله وفوات مقاصده الدينية المذكورة واذ ليس على يقين من سلامته. ويحتمل ان يترجح حمد مشيه لانه يسعى في اداء فرضه على وجه المبادرة والخروج عن شبهة الخلاف لا سيما ان كان له قوة في بدن او سعة في مال او[2] وجد طريقاً سابلة . وعليه حينئذ المحافظة على فرايضه واجتناب ما يتعرض له من المعاصي في طريقه . فان لم يكن في حال اقامته بصدد ما ذكر فالامر فيه ابين .

وان كان من الخاصة او ممن فيه قابلية لسلوك مسالكهم كاخذه في مجاهدة نفس وتصفية قلب ومراعاة خاطر وتصحيح هم واستغراق في فكر او ذكر الى غير ذلك من احوالهم الرفيعة ومقاماتهم الشريفة فان كان له منها اصول راسخة بحيث توجب طهارة باطنه من كباير معاصي القلوب الواجب ازالتها عليه كالكبر والعجب والحسد والحقد والرياء والنفاق والمداهنة في الدين وسوء الظن بالمسلمين وقوة محبة الدنيا وبعد انواع الغرور فمشيه راجح على الوجه الذي ذكرناه آنفاً وعليه حينئذ الاجتهاد في تحصيل فروعها ما امكنه. وان لم يكن له منها اصل[3] البتة او كانت بحيث لا توجب[4] ما ذكرناه من التزكية والتطهير فان كان ضعيفا في بدنه او ذات يده فمشيه مذموم من قبل تفويته لاصول تلك الاحوال المذكورة فضلًا عن فروعها اذ هي اولى من تقديم الحج . ومن قبل قوة ميل نفسه. وان كان له مزيد قوة بدنية او سعة مالية تحمل عنه الكلال (46)

١) إ : — لتمكنه . . . الى غيره ‖ ٢) س: و ‖ ٣) س : شيء ‖ ٤) ف ق ر: يوجب . كذا ‖

والتعب وتبلغه من مراده الى غاية آلارب ، فان كانت محبته للمشي قوية بحيث لو قدرنا سقوط فرض الحج عنه وتحصيله ثوابــه في حال قعوده بطريق قطعي كانت قوة محبة مشيه باقية فقعوده ارجح لوجود قوة الميل وتوقــع فوات تلك الفوايد التي هو بصددها في حال الاقامة لانه عــلى غير يقين من تحصليها في المشي لا سيما مع عدم السبيل الآمنة . وان كانت محبته ضعيفة لا باعث عليها الا اداء الفرض بحيث لو قدرنا سقوطه عنه بطريق قطعي عدم الميل والمحبــة بالكلية فمشيه اذ ذاك محمود لضعف محبته وقوة رجايه بلوغ امله بصحة بدنه او سعة ماله لا سيما ان صحبه في طريقه اخوان صالحون ورفقاء موافقون ووجــد طريقا سابلة . هذا كله ان كان صرورة .

فان لم يـكن صرورة فان كان من العامة فان كان[1] بصدد ما ذكرناه[2] من الخيرات والطاعات فذم مشيه راجح من قبل ميل نفسه ومن قبل تعرضــه لفوات تلك المقاصد المحققة وكونه على غير يقين من تمام ما رامه وسلامته من الخطر الذي يتصدى له. وان لم يـكن في حال اقامته بصدد ما ذكرناه فيحتمل ان يترجح ذم مشيه من جهة قوة ميل نفسه وتعرضه بسفره لتضييع فريضة او وقوع في معصية — ويحتمل ان يترجح حمده لارادته ايقاع عبــادة من جنس عباداته مع ان ميل مثله[3] لا يعتبر ولان[4] وجدان سلامته من الآفات المذكورة ممكن في حقه . اما اذا غلب على ظنه عدم السلامة منها ترجح الذم على كل حال اذ لا يعدل بالسلامة شيء .

وان كان من الخاصة فمشيه مذموم لفوات ما هو بصدده من سني الاحوال وما يتبع ذلك من افعال واقوال لان ذلك يستدعي فراغ قلب واجتماع همــة وصفاء محل وذلك معدوم في مثل هذه الاسفار الطويلة قطعا او ظنا . وانمــا رجحنا ما ذكرناه على التنفل بالحج لكون ذلك ملاكا[5] لامره وتصحيحا لاعمال بره من قبل انه سالك سبيل التوحيد والاخلاص الرافعين له في مقامات اهــل الاختصاص . ومثل هذه الاعمال القلبية لا يوازيها شيء من نوافل العبادات ولا ينجبر فواتها بشيء من الطاعات ، ويترجح ذم مشيه ايضاً لكونــه غير مخلص

---

١) ف : وكان || ٢) س : ذكرنا || ٣) ف: نفسه || ٤) إر : وان || ٥) إ: مالكا ||

(47) فيه . وعلامة عدم اخلاصه وجود ميله اليه مع بقاء حظوظ نفسه واغراضه . فمحبتها اذ ذاك نيل حظوظها بواسطة ما يفعله من الطاعــات في مشيه كلقاء العلماء والصلحاء واستفادة العلوم منهم والتماسه بركة دعايهم وخدمته لرفقايــه واصدقايه واحتسابه ثواب نصبه وعنايه ورؤيته[1] الامصار والقفار بعين التفكر والاعتبار الى غير ذلك من مناسك حجه ووظايف عجه وثجه . وغرضها من ذلك ما اخفته من نيل شهوة التفرج[2] برؤية البلاد والتحدث بلقــاء العلماء والعباد والتخلص من كروب الوطن المعتادة واستراحته من تعب الافادة والاستفادة الى غير ذلك من اغراضها وخفايا حظوظها . وعلامة اغتراره في ذلك انه قــد يتمكن من كثير من تلكم[3] الطاعات او مما هو اعظم منها في موضعه ثم لا يلقي لها بالا ولا يجد عليها اقبالا . وهذه هي حــال السايل الذي سأل بشر الحافي عند مشيه للحج . فقد روى ابو نصر التمار ان رجلًا جاء يودع بشر[4] بن الحارث وقال : قد عزمت على الحج فتامرني بشيء. فقال له بشر: كم اعددت للنفقة قال : الفي درهم . قال بشر: فاي شيء تبتغي بحجك نزهة او اشتياق[5] الى البيت او ابتغاء مرضاة الله قال : ابتغاء مرضاة الله . قال : فان اصبت رضى الله تعالى وانت في منزلك وتنفق الفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تفعل ذلك قال: نعم . قال: اذهب فاعطها عشرة انفس: مديان يقضي[6] دينه وفقير يرم[7] شعثه ومعيل يحيي عياله ومربي يتيم يفرحه . وان قوي قلبــك ان تعطها الواحد فافعل فان ادخالك السرور على قلب امرء مسلم وتغيث لهفــان وتكشف ضر محتاج وتعين رجلا ضعيف اليقين افضل من ماية حجة بعد حجة الاسلام . قم فاخرجها كما امرناك وإلّا قل لنا ما في قلبك. فقال : يا ابا نصر سفرى اقوى في قلبي. فتبسم بشر واقبل عليه فقال له : المال اذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس ان تقضي به وطرا تسرع اليه بظــاهر اعمال الصالحات وقد آل الله تعالى[8] على نفسه الا يقبل الا عمل المتقين . قال فبكى الرجل .

---

١) ر ف خ: ورؤية ‖ ٢) إ : والتفرج ‖ ٣) س خ: تلك ‖ ٤) ر: — بشر . . . بشر ‖ ٥) ف ر : اشتياقا ؛ ف خ : اشتياق ‖ ٦) ف ق ر : تقضي ‖ ٧) ر : ترم ‖ ٨) ف ق ر : — تعالى ‖

فان كان هذا الشخص مستقيما على هذه الاحوال التي ذكرناها[١] في حال اقامته مستوفيا لاحكامها واراد تجربة نفسه في الوفاء بها في حال الغربة وفقد المألوفات التي اعتادها في وطنه وعزم على مجاهدة نفسه في ذلك فان مشيه في ذلك محمود ولا يختص ذلك بسفر الحج بل له ان ينشي سفرا لاجل هـذا
(48) الغرض ولم يزل ذلك من عادات السالكين واهل التجريد وانما حكمنا على ميل النفس الى المشي بالذم في اغلب الاحوال طردا لقاعدة ان ميل النفس الى العبادات الشاقة على البدن مذموم .

وقد[٢] يتعجب من هذا من يسمعه[٣] فيقول : كيف تميل النفس الى مـا فيه المشقة وهي منافية لحظّها — ولم يدر انها انما تطلب حظوظاً[٤] لا تتوصل اليها الا بترك حظها من الراحة كمن استولى عليه حب الجاه والمـال وقضاء الاوطار منها والامال فتراه يرتكب الاخطار ويجوب القفار ويخوض البحـار ويتعرض لانواع المضار قد حمله تأميل حصول اغراضه على استحلاء هذه الشدايد وقد لا ينال ما امله من تلك الفوايد . ولا فرق بين المسئلتين الا ان هـذه اغراض معروفة لعامة الناس وسبلها واضحة لا اشكال فيها ولا التباس وما ذكرناه يختص به اهل الدين ومن ارتفعت احواله[٥] عن احوال عامة المسلمين . بل من جهل النفس وشدة غباوتها انها تفعل الافعال الشاقة لغرض تافه كالذي يعرض نفسه لمعارك الحرب ومباشرة الطعن والضرب ليثنى عليـه بالشجاعة والجلادة بعد موته . وهذا جهل عظيم واي منفعة للنفس في ذلك بعد الموت .

وقد تفعل ذلك من غير تصور غرض ولا تحصيل عوض[٦] كما قال[٧] علي بن حزم في كتاب السياسة . واحمق من هولاء قوم شاهدناهم لا يدرون في مـا يبذلون انفسهم فتارة يقاتلون زيدا عن عمر وتارة يقاتلون عمرا عن زيـد لعل ذلك يكون في يوم واحد فيتعرضون للمهالـك بلا معنى فيقتلون الى النار ويفرون[٨] الى العار . وقد انذر بهؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : يأتي على الناس زمان لا يدرى القاتل فيمَ قتل ولا المقتول فيمَ قُتل . ومثال

---

١) ف ق ر : وصفناها ‖ ٢) إ ف ق ر س : ط : جواب السؤال الثاني في كيفية ميل النفس الى ما فيه المشقة ‖ ٣) إ : —من يسمعه ‖ ٤) إ س : حظوظها ‖ ٥) ف ق س خ : حاله ‖ ٦) إ : غرض ‖ ٧) س خ : حكى ‖ ٨) ف ق : او يفرون ‖

مسئلتنا ما يعتري بعض الناس من ميل نفوسهم الى التعمق في العبادات والايغال
في فنون المجاهدات والقاء النفس في المهلكات وفرضها بذلك استعجال احوال
اتصف بها الاكابر والرؤية لكمالها بنظرها القاصر استبدالا منها هذه الاغراض
بما تركته من اغراضها الدنياوية واستظهارا لصدق قصدها في زعمه بتعاطي
الوظايف الدينية . فلم تلبث الا يسيرا حتى سيمت الاعمال والاوراد وطالت
عليها الآماد فنكصت على عقبها ورجعت القهقرى الى اقبح من مرادها واربها .
ولو كانت صادقة في قصدها لاتت الامر من باب مخالفتها بالكلية ولعلمت ان
(49) ذلك لا يتأتى لها الا باتباع الملة الحنيفية . فلعمري لمن اخذ نفسه باتباعها في
هذا الزمان والجري على اسلوبها العجيب الشأن ليكابدن من الشدة[1] ما لم
يخطر له قط ببال وليتجرعن من الغصص ما يعجز عن تجرعه آحاد الرجال .
وبحسب ذلك يكون اجره موفورا وسعيه مشكورا . وذلك لصحة قاعدة ان
كل ما يثقل على النفس خير محض .

وبيانه[2] ان الحق تعالى اوجب على عباده اقامة عبوديته واخبرنا انه انما
خلقهم لاجلها فقال تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »[3] وهذه
الصفة من أجلّ ما وصف[4] به انبياءه ورسله من الصفات العظام وسماهم به
من الاسامي الكرام . وخصوصاً نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام[5]. فلقد حاز
من[6] ذلك غاية الامكان وتبوأ من درجاتها اعلى مكان وبرز بها على العالمين
في يوم الدين وكان[7] تحت لوايه كافة النبيين[8] والمرسلين . ومن اوجز ما
قيل فيها وابلغه قول بعضهم : العبودية مشاهدة الربوبية . وهذه عبارة جامعة
لمعاني العبودية على مذهب هذه الطايفة وهي اشارة الى مقام الاحسان المذكور
في حديث جبريل عليه السلام . وقيل : العبودية ان تكون عبده بكل حال
كما انه ربك بكل حال ، وقيل : العبودية في اربع[9] خصال : الوفاء بالعهود
والحفظ للحدود والرضى بالموجود والصبر عن المفقود . وقيل غير هذا — وحاصل
اشاراتهم ان العبودية صفة قايمة بالعبد تحمله على امتثال الاوامر واجتناب النواهي

---

١) ف ق ر س : الشدايد || ٢) إ ف ق ر س : ط : جواب السؤال الثالث في وجه خيرية المشاق على النفس || ٣) قرآن : ٥١ : ٥٦ || ٤) ق : + الله || ٥) ر : صلعم || ٦) ر : في || ٧) إ : كان || ٨) إ : المسلمين || ٩) إ : اربعة ||

والرضى بالاقدار . ولها اول في مقام الاسلام وآخر في مقـام الاحسان . ولا صارف للعبد عن اقامتها[١] في مقاماتها الا النفس الامارة ولا سبيل الى استسلامها لاحكام الربوبية الا بمجاهدتها على طريقة هذه الطايفة المختارة . قـال الله عز وجل[٢] : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »[٣] . وقال تعالى : « ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى »[٤] . وفي الخبر : اعدى عـدوك[٥] نفسك التي بين جنبيك . واوحى الله تعالى الى داوود عليه السلام : عاد نفسك فليس لي في المملكة منازع غيرها. وقال الجنيد . ارقت ليلة فقمت الى وردى فلم اجد ما كنت اجد[٦] من الحلاوة فاردت ان انام فلم اقدر عليه فقعدت فلم اطق القعود ففتحت الباب وخرجت فاذا رجل ملتف في عباءة مطروح عـلى
(50) الطريق فلما احس بي رفع رأسه وقال يا ابا القاسم الى الساعـة فقلت يا سيدي من غير موعد . فقال بلى[٧] سألت محرك القلوب ان يحرك لي قلبك . فقلت قد[٨] فعل فما حاجتك . فقال : متى يصير داء النفس دواءها. فقلت اذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها . فاقبل على نفسه وقال اسمعي قد جاوبتك[٩] بهذا الجواب سبع مرات فابيت الا ان تسمعيه من الجنيد فقد سمعت. وانصرف عني ولم اعرفه . فتأمل هذه الحكاية ترى فيها العجب . والحكايات عنهم في هذا المعنى اكثر من ان تحصى . وفوايد هذه المجاهدات والرياضات حاصلة في البلايا التي يبتلي الحق تعالى بها بعض عباده لمنافاتها لاراداتهم[١٠] وتنغيصهـا لشهواتهم[١١] فيستفيدون باحتمال ذلك والصبر عليه مذلة وافتقار وتواضعا وانـكسارا وهي من اخلاق العبيد المطلوبة منهم . واهل البلايا هم الامثل فالامثل بالانبيا وقيل في معنى قوله تعالى « فاصبروا كما صبر اولوا العزم من الرسل »[١٢] انهم اهل الشدايد والبلاء مثل ايوب عليه السلام . قرضوا بالمقاريض ونشروا بالمنـاشير وكانوا سبعين نبيًا — فلهذه المعاني كان كل بلاء نعمة كما ان كل ما يثقل على النفس خير .

فان قلت[١٣]:ينبغي[١٤] على هذا ان يكون وجود كل ما يخف على النفس

١) ف : اقاماتها ' كذا || ٢) ر : —عز وجل || ٣) قرآن٢٩ : ٦٩ || ٤) ٧٩ : ٤٠ — ٤١ || ٥) ق : عدو لك || ٦) إ : — اجد || ٧) إ : بل || ٨) ر : فقد || ٩) ف ق رس : اجبتك || ١٠) س خ : الارادات || ١١) س خ : الشهوات || ١٢) قرآن : ٤٦ : ٣٤ || ١٣) إ ف ق ر س : ط : جواب سؤال رابع في بيان امور خفيفة محمودة || ١٤) ق ر : فينبغي ||

من الاعمال او يصيبها من النعم والرخاء شرا وبلاء وان يستحسن سؤال الثقل والبلاء وتمنيها لكونها خيرا ونعمة او يجوز ذلك — قلت :

اما السؤال الاول فلا يلزم لاننا نجد انواعا من اعمال البر الخفيفة على النفوس محمودة وضروبا من النعم المستلذة لها خيرا محضاً لا شر فيها كالخفة التي يجدها بعض الناس في العمل عند فراغه من الاشغال الدنياوية وزوال بعض العلايق القلبية وعند شكر كل[1] نعمة طال ما كان يؤملها من نفع او دفع فانعم عليه بها . وعند اغاثة لهفان واطعام جوعان[2] واكساء عريان وسقي عطشان وتفريج يتيم وقضاء دين غريم وما اشبه هذا من انواع الاعمال الخفيفة المحمودة . وكذلك خفة النعم المسداة الى العبد[3] والفرح بها من حيث كونها وسيلة الى طاعة الله وعبادته كنعمة المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب والمنكح . بل نقول : الفرح بالنعم من حيث كونها ملايمة لطبعه لا من حيث توصله بها الى اغراضه المذمومة محمود[4] على ما ياتي بيانه .

(51) واما[5] السؤال الثاني وهو استحسان سؤال[6] البلاء وتمنيه او جوازهما فانه[7] يصح ذلك لو لم يرد فيه نهي فلما ورد فيه النهي وجب الا يجوز . فقد روى في الصحيح من حديث ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تتمنوا لقاء العدو واذا لقيتموهم[8] فاصبروا — وفيه من حديث عبدالله بن ابي اوفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا ايها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم[8] فاصبروا[9] واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف — وفي الصحيح ايضاً من حديث انس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلا من المسلمين قد خفت حتى صار مثل الفرخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كنت تدعو بشيء او تسأله اياه قال : نعم كنت اقول : اللهم ما كنت معاقبي[10] به في الاخرة فعجله لي في الدنيا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله لا تطيقه ولا

---

١) ف ق ر س : — كل ‖ ٢) ر : جيعان ‖ ٣) س : المستلذة للعبد ‖ ٤) ر : محمودة ‖ ٥) إ ف ق ر س : ط : جواب سؤال خامس في وجه المنع من سؤال المشاق وتمنيها ‖ ٦) س : — سؤال ‖ ٧) إ : فانما ‖ ٨) س : لقيتموه : خ : لقيتموهم ‖ ٩) ق : — وفيه . . . فاصبروا ‖ ١٠) س خ : تعاقبني ‖

تستطيعه افلا قلت اللهم إتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . قال فدعا الله له فشفاه . وفي بعض روايات هذا الحديث : لا طاقة لنا بعذاب الله . ولم يزل من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء باسباغ النعم والمعافاة من النقم[1] . فقد روي في الصحيح ان اكثر دعوة كان يدعو بها رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار — وفيه ايضا من حديث ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من سوء القضاء ومن درك الشقاء ومن شماتة الاعداء ومن جهد البلاء الى غير ذلك من ادعيته واستعاذاته صلى الله عليه وسلم — وقد قال صلى الله عليه وسلم في بعض المواطن التي ناله المشركون فيها بالاذى: ولكن عافيتك هي اوسع لي .

والحكمة في ذلك ان البلايا غير مرادة لذاتها بل لما فيها من الفوايد التي ذكرناها ومن تضعيف الثواب الموعود به الصابرون عليها . وجميع ذلك قد يعطيه الحق تعالى واضعافه لمن شاء من غير نزول بلاء او تحمل[2] عناء كما ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : لله اضن بعبده من احدكم بكريمة ماله حتى يقبضه[3] على فراشه . وفي الخبر ايضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : ان لله عبادا يضن بهم عن الامراض والاسقام في الدنيا . يحييهم في عافية ويميتهم في عافية ويدخلهم الجنة في عافية . فالواجب على العبد ان يسأل مولاه الفضل المطلق لا من حيث البلاء والمشقة. وايضاً من
(52) الآداب اللازمة للعبد ان لا يسأل مولاه ولا يتمنى عليه شيئًا من المشاق لانه يحتاج في ذلك الى فضل قوة وعزيمة صبر وقد خلق ضعيفا لا يقدر على مقاومة ذرة او بعوضة لو سلطت عليه الا بتأييد من الله وعون فيقع من سؤال ذلك وتمنيه في عظيم من الدعوى فيخاف اذ ذاك ان يرد الى نفسه ويوكل اليها فيهلك حسبا وقع لبعض الناس — وقد كان الشافعي رحمه الله اعتل علة شديدة فكان يقول : اللهم ان كان في هذا رضاك فزدني منه. فكتب اليه المعافري من سواد مصر : يا ابا عبدالله لست وايانا من اهل البلايا[4] فنسأل الرضى .

١) س : — والمعافاة من النقم ‖ ٢) ر :وتحمل ‖ ٣) ر : ويُقبضه ‖ ٤) ف ق ر : البلاء ‖

الاولى بنا ان نسأل الرفق والعافية . فرجع الشافعي عن قوله وقال : استغفر الله واتوب اليه. فكان بعد ذلك يقول : اللهم اجعل خيرتي فيما احب .

وما ورد عنهم من مثل قوله :

أُرِيدُكَ لا[1] أُرِيـدُكَ لِلثَّوَابِ وَلَكِنِّي أُرِيدُكَ لِلعِقَـابِ
وَكُلُّ مَأرَبِي قَدْ نِلْتُ مِنهَا سِوَى مَلذُوذِ وُجْدِي بِالعَذَابِ

وقول سمنون :

وَلَيسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيفَ مَـا شِئتَ فَاخْتَبِرْنِي

وقول معاذ بن جبل عند الموت : اخنقني خنقك فوعزتك انك لتعلم ان قلبي يحبك — فذلك كله من غلبات الحال واستيلاء سلطان الوجـد عليهم . ومثل هذا قد يغلب على المحبين في مقام المحبة كما يغلب عليهم البسط والاذلال فينطقون باشياء منكرة في الظاهر . وقد ينتهي بعضها الى ما يشبه الكفر . وهم في جميع ذلك معذورون وفي مقاماتهم العالية محفوظون . وقد قال الشبلي: المحب اذا سكت هلك والعارف ان[2] لم يسكت هلك. وحكي ان سمنون لما انشد البيت المتقدم قال بعض اصحابه لبعض : سمعت البارحة وكنت بالرستاق[3] صوت استاذنا سمنون بن حمزة يدعو الله تعالى ويتضرع اليه ويسأله الشفـاء . وقال آخر : وانا ايضاً كنت اسمعت[4] هذا البارحة وكنت بالموضع الفلاني . فقال ثالث ورابع مثل هذا . فاخبر سمنون وكان قد امتحن بعلة الاسر وكان يصبر ولا يجزع . فلما سمعهم يقولون هذا ولم يكن هو قد دعا ولا نطق بشيء من ذلك علم ان المقصود منه اظهار الجزع تأدبا بالعبودية وسترا لحاله فاخـذ يطوف على المكاتب ويقول ادعوا لعمكم الكذاب. وسمنون هذا من المحبين
(53) وله في مقام المحبة اعاجيب . فالواجب على العبد سؤال العافية وتمنيها والرضى بها وذلك باب من ابواب الادب . فاذا ابتلي فالواجب حينئذ الصبر والاستسلام والرضى بجريان الاحكام والعلم بانه سلك بـه سبيل المصطفين من الانام .

فتبين بما ذكرناه ان العبودية التي اشرنا اليها لا تتم بانواع من المجاهـدات

---

١) إ : + اني || ٢) ر : اذا || ٣) [كذا وهي « بالرسداق »] إ: بالرستان ||
٤) ف ق : اسمع ؛ إ خ س : سمعت ||

والمكابدات ومرجع جميعها الى معاملات بدنية وقلبية . فان وجد المريد شيخا مرشدا يهديه الى مسالكها ويحميه عن مهالكها ذا طريقة سنية وهمة علية فليتعلق باذياله ولينسج على منواله وليقتد به في اقواله وافعاله وليتحقق انه حصل[1] على الكبريت الاحمر ونال من السعادة الابدية الحظ الاوفر . وان[2] اعوزه وجدانه وتعذر امكانه فليعمد كتب ايمة القوم ككتب المحاسبي والسلمي والقشيري وكتاب ابي طالب المكي وكتاب ابي حامد الغزالي وعوارف المعارف للسهروردي . فهذه امهات كتبهم التي تداولها الناس واقتبست منها علومهم ومعارفهم اى اقتباس . وكذلك ما تفرق من كلام ايتهم في الكتب والدواوين وشهر نقله بين علماء المسلمين. وذلك بعد تصحيح اعتقاده على المذهب السني واعتماده في تقليده في فروع دينه على امام مرضي . وليقدم الاستخارة على سنتها وصدق النية والعزيمة على العمل بما يفتح عليه منها ثم تحقيق ذلك في الافعال والاقوال والاستعانة بربه في جميع الاحوال .

فاذا اتصف بهذه الصفات واقبل على النظر في هذه المصنفات رجونا له بلوغ المطلوب وادراك المرغوب .

ولم نرَ في هذه الكتب المذكورة والمصنفات المشهورة ما هو اشفى للغليل وابرأ للعليل واهدى للسبيل من كتابي الامامين ابي طالب المكي وابي حامد الغزالي . فقد اودعا فيهما من غرايب العلوم وعجايب الفهوم ما تثلج به الصدور وتتيسر به الامور . وخصوصاً الغزالي فانه فصل وبوب واوضح وقرب ونقح وهذب وجمع في اوراق يسيرة ما تفرق في كتب كثيرة . وضرب الامثال وازاح الاشكال واظهر غوامض الاسرار ونبه على طرق الاعتبار والاستبصار — الا ان فيه اشياء اعتاصت على[3] الافهام وخرجت عن مذاهب اهل علم
(54) الكلام ولكن لا حاجة بالمريد الى معرفتها ولا ينبغي شيء من احكام طريقته عليها . واكثر ذلك في ربع المنجيات ككتاب التوبة وكتاب الشكر وكتاب التوحيد وكتاب المحبة وقد يوجد منها شيء يسير في غير هذا الربع . فيجب على الناظر في كتابه اذا وقف على بعض هذه المواضع ان يتجاوزها الى غيرها

١) ر : وقع ‖ ٢) إ ف ق ر س : ط : جواب سؤال سادس فيما يقرأ من كتب التصوف وكيفية الاخذ في ذلك ‖ ٣) ر : عن ‖

وان يسلم له ما خفي عليه من امرها. وكذلك يسلم له بعض الاحاديث التي ينقلها ولا يردها ولا يقبلها فبذلك يجمع بين تحصيل فوايد الكتاب وتحسين الادب مع العلماء من اولي الالباب .

واما كتاب ابي طالب فعليه وقف[١] الاختيار واليه انتهى التقديم والايثار اذ لم يقع بايدينا مثل منزعه ولا رأينا من حام حول مشرعه[٢] . فانه فتح فيه مغلق علم التصوف الذي اعجز حله وفك خواتم اسرار لا يفكها الا مثله وجمع فيه بين المعاني الصحيحة والالفاظ الحسنة وساقه مساقاً تصغى اليه الاسماع وتستحليه الالسنة. وذكر فروع علومهم واصولها ورسم مسايلها وفصولها. فكان لذلك كالمدوّنة في علم الفقه يقوم مقام غيره ولا يقوم غيره مقامه — الا ان فيه بعض علوم غامضة لا تدرك ببضاعه العقول ولا توافق ظاهر العلم المنقول واحاديث له فيها مذهب معروف وطريق مالوف. فعلى الناظر في ذلك ان يتصف بما ذكرناه من التسليم ويعتقد جريانها على المنهج القويم ويرجو ان يفتحها عليه الفتاح العليم—وما عدا هذين الكتابين من التصانيف التي ذكرناها مشتمل على فوايد زايدة لا يستغني المريد عنها ولا يجد في غيره عوضا منها. فعليه ان يطلبها من اماكنها ويستخرجها من مكامنها ويستعين على ذلك بمشاركة من يتمذهب بمذهبه ويساهمه في مطلبه[٣] ومآربه .

وليجتنب[٤] المريد مخالطة طايفتين من النـاس والتشاغل باشغالهم والعمل باعمالهم. احداهما المستغرقون في علم الظاهر كالفقه وما اشبهه من العلوم الظاهرة لعدم وجدان السلامة في ذلك غالباً ووقوعه في انواع[٥] المعاصي الظاهرة والباطنة. وان سلم من ذلك نادرا فلا يسلم من تشتت قلبه وغفلته بسبب استعماله في تفهم نوادر الاحكام وما ليس له به[٦] حاجة من مسايل التداعي والخصـام . فيقطع عمره في التعب والفضول ويستغرق اوقاته بما ليس له طايل ولا محصول . فتنحل بذلك عقدة عزمه وتزول بركة عمله وعلمه. اذ من احسن حال[٧] الآخذين فيه في هذه الازمنة — ولا حال لهم — حال رجل دخل فيـه بنية تعليمه من

---

١) ر س : وقع ؛ س خ : وقف || ٢) إ : مشرعة || ٣) ق : مذهبه || ٤) إ ف ق ر س : ط : جواب سابع في اجتناب المريد الاخذ في التصوف مع من يستضر به في حاله || ٥) ر س : + من || ٦) ر س : ليس به اليه || ٧) س خ : احوال ||

يحتاج اليه وفتواه في نازلة يعول فيها عليه محتجا على ذلك[١] بحجج داحضة كقوله (55)
انا آخذ في فرض الكفاية وما انفي به عني الجهالة والغواية وقد استمر عليه عمل الناس قديماً وحديثاً واوسعوه اجتهادا وطلبا حثيثا كما فعله مالك وغيره من العلماء. وانا في ذلك سالك سبلهم وعامل عملهم وهل انا في ذلك الا بمنزلة من سعى في انقاذ غريق وهداية[٢] ضال الى سواء الطريق الى غير ذلك.[٣] وهذه حجج صلحايهم التي بها يتمسكون ومحاج نصحايهم التي عليها يسلكون ويُسلكون. وهي من تلقين الشيطان وإلقايه ليتمكن بذلك من فتنته وإغوايه — ومن اعظم ما قاده اليه بكلماته المزخرفة وادلته المحرفة ان انساه نفسه ومولاه والقى زمامه بيد هواه فاصمه بذلك واعماه وفقد الخوف والخشية واستحوذت عليه الغفلة والقسوة فاثر له ذلك انواعاً من الخبايث وصار في عداد[٤] السفلة والاخابث. وعلى قدر استغراقه فيه تتضاعف عليه هذه الآفات ويتعذر عليه الخلاص منها والافلات. وكل ما ازداد على العلم الذي هو فيه حرصا ازداد[٥] عماية ونقصا فكان مثله[٦] كمن بنى قصرا وهدم مصرا. وآية ذلك تحسينه ظنه بنفسه وعجبه بعقله وحدسه وتكبره على ابناء جنسه وعدم قبوله للنصائح والمواعظ وتلقي ذلك ممن يلقيه اليه باذن غير واعية وقلب غير حافظ ومعاداة اقرانه ونظرايه في العلم ووقوعه من غيبتهم بغيبتهم وبهتهم بحضرتهم في كباير الاثم. ومن مارس احوالهم وشاهد اعمالهم علم يقينا صحة ما ذكرناه عنهم. فاين هذا من سيرة السلف الصالح ومواخاة بعضهم بعضاً[٧] وتانس بعضهم ببعض[٨] وانبساط بعضهم الى بعض.

فان تفطن هذا المسكين لغفلته واغتراره ورأى قبح افعاله وآثاره ورام التوبة والاقلاع والانصاف بالاوصاف الرفاع وجد تلك البلايا في طباعه راسخة وظلماتها لانوار بصيرته ناسخة. فان كان ممن سبقت له العناية وهدي الى طريق الرعاية رأى في مجاهدة هواه اهوالا لا تطاق ولقي في مكابدة قلع صفاته الذميمة احوالا يضيق عنها النطاق. وان كان ممن نفذ عليه الحكم واضله الله على علم قوي عماه وبقي على هواه فخسر دينه ودنياه. والعياذ بالله من ذلك.

---

١) ر س خ: في ذلك ‖ ٢) س: او هدايته ‖ ٣) إ: — الى غير ذلك ‖ ٤) ر: عدد ‖ ٥) س: زاد ‖ ٦) ف ق ر س: كمثل من ‖ ٧) ر س: لبعض ‖ ٨) ق: لبعض ‖

فيجب على من انقدحت في قلبه تلك الشبهات التي قبلها من اعدى العداة ان ينظر احواله مع احوال من ذكره[1] من الايمة بعين الانصاف السالم من الزيغ والانحراف فسيظهر له افتراقها وبونها ويقول حينئذ شتان ما بينهما . وذلك انهم بنوا امورهم على قاعدة التقوى والبر واخلاص السر والجهر فاوجب لهم
(56) ذلك نفوذا في بصايرهم وصفاء في سرايرهم . وادركوا[2] بها الحقايق الباطنة والظاهرة وعلوم الدنيا وعلوم[3] الآخرة وساعدهم على ذلك الزمان والاخوان ووجدوا الرفقاء والاعوان فاستقام لهم بذلك من امرهم ما لم يستقم لمن بعدهم. وهذا كله معلوم من احوالهم بالقطع لتواتر الاخبار منهم بذلك .

والطائفة الاخرى الشاطحون المترخصون الذين لا يتقيدون بحكم ولا ينضبطون لرسم. فليجتنبهم المريد كما يجتنب المتفقهة[4] بل اشد وذلك[5] لان ضررهم اعظم من قبل ان احوالهم موافقة لهوى النفس لانهم جمعوا بين دعوى المقامات العلية والراحات من الاعمال البدنية . وذلك خلاف لمذهب[6] اهل التحقيق وعدول عن محجة الطريق — قال الاستاذ ابو القاسم القشيري رحمه الله : شيوخ هذه الطايفة مجمعون[7] على تعظيم الشريعة متصفون بسلوك طريق الرياضة مقيمون على متابعة السنة غير مخلين بشيء من آداب الديانة متفقون على ان من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن امره على اساس الورع والتقوى كان مفتريا على الله سبحانه فيما يدعيه مفتونا. هلك في نفسه واهلك من اغتر به ممن ركن الى اباطيله . وقال الجنيد : ما اخذنا التصوف من القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المالوفات والمستحسنات. وقال ايضاً : ان العارفين بالله اخذوا الاعمال عن الله واليه رجعوا فيها ولو بقيت الف عام لم انقص من اعمال البر ذرة الا ان يحال بي دونها . ورئي في يده سبحة فقيل له انت مع شرفك تاخذ بيدك سبحة فقال : طريق وصلت به الى ربي لا افارقه . وكان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ويصلي اربع ماية ركعة ثم يعود الى بيته. وقال رويم : ما هذا الامر الا بذل الروح فان امكنك الدخول فيه مع هذا والا فلا تشتغل بترهات الصوفية . وقال ايضاً : قعودك مع كل طبقة من الناس اسلم من قعودك مع

---

١) إ : ذكرناه ‖ ٢) إ : ادركوا ‖ ٣) س : — وعلوم ؛ خ : وعلوم ‖ ٤) ر : المتفقه ‖ ٥) إ : — وذلك ‖ ٦) ر س : لمذاهب ‖ ٧) ق : مجموعون ‖

الصوفية . فان كل الخلق قعدوا على[1] الرسوم وقعدت هذه الطايفة على الحقايق. وطالب الخلق انفسهم بظواهر الشرع وطالب هؤلاء انفسهم بحقـائق الورع ومداومة الصدق . فمن قعد معهم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الايمان من قلبه . وقال يوسف بن الحسين الرازي : اذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم انه لا يجيء منه شيء — وكتب الى الجنيد : لا اذاقك الله طعم نفسك فانك ان ذقتها لا تذوق بعدها خيرا ابدا . وقـال ابن خفيف : الارادة استدامة الكد وترك الراحة وليس شيء اضر على المريد من مسامحة
(57) النفس في قبول الرخص والتاويلات . وقال الحصري : الناس يقولون الحصري لا يقول بالنوافل وعلي اوراد من حال الشباب لو تركت منها ركعة لعوقبت . فان[2] انضاف الى ذلك هتك[3] استار الشريعة والتشاغل بالغيبة والوقيعـة فامرهم اشد والفرار منهم آكد. وقال ابو يزيد البسطامي : لو نظرتم الى رجل اعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا بـه حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهي وحفظ الحدود واداب[4] الشريعة . وقال ابو الحسين[5] النوري: من رايته يدعي مع الله حالة تخرجه من حد العلم الشرعي فلا تقربن منه . وسيل ابو علي الروذباري عمن يسمع الملاهي ويقول هي لي حلال لاني قد وصلت الى درجة لا يوثر فيّ اختلاف الاحوال فقال: نعم قد وصل ولكن الى سقر . وقيل للنصراباذي[6] : ان بعض النـاس يجالس النسوان ويقول انا معصوم في رؤيتهن فقال: ما دامت الاشباح باقية فان الامر والنهي باق والتحليل والتحريم مخاطب به ولن يجترى على الشبهات الا من هو معرض بالحرمات[7]. وقال ابو بكر الزقاق : تهت في تيه بني اسرائيل مقدار خمسة عشر يوما فلما وقعت على الطريق استقبلني انسان جندي فسقاني شربة[8] ماء فعادت قسوتهـا على قلبي ثلاثين سنة — وقال ابو حفص الحداد : من لم يزن افعاله واحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعـده[9] في ديوان الرجال . وسيل اسماعيل بن نجيد عن التصوف فقال : الصبر تحت الامر والنهي . وقال

---

١) إ : مع ‖ ٢) س خ : وان ‖ ٣) س : هتك ؛ خ : هتك ‖ ٤) ف ق ر س : وأداء ؛ س خ : وآداب ‖ ٥) ف : الحسن . كذا ‖ ٦) إ : وقال النصر اباذي ‖ ٧) إ : — بالحرمات ‖ ٨) ف ق ر س : + من ‖ ٩) ف : نعده ‖

ابو العباس الدينوري : نقضوا اركان التصوف وهدموا سبيلها وغيروا معانيها باسام[1] احدثوها سموا الطمع زيادة وسوء الادب اخلاصا والخروج عن الحق شطحا والتلذذ بالمذموم طيبة واتباع الهوى ابتــلاء والرجوع الى الدنيا وصولا وسوء الخلق صولة والبخل جلادة والسوال عملا وبذاءة[2] اللسان ملامة . وما هذا كان طريق القوم . والاخبار والحكايات عنهم في هذا المعنى اكثر من ان تحصى .

فان[3] احب هذا المريد ان ينظر في شيء من علم التفسير والحديث فحسن لان القرآن والحديث مشتملان على حقايق الدين ومقامات اهل اليقــين وفيهما مجال عبرهم ومسرح فكرهم ومطمح نظرهم وشفاء ادوايهم ومنع اعدايهم وقمع اهوايهم . وهذا هو الفرق بينهما وبين الفقه وان كان فرعا عنهما ومأخوذا منهما . وقد ذكرنا ما يلزمه من الافات قبل — وليأخذ من الفقه ما يحتاج اليه في عباداته ومعاملاته ويدع ما سوى ذلك .

(58) واكد[4] ما على المريد ان يكون له حال من الادب الظاهر والباطن فيما يتقلب فيه من الاحوال ويتصرف به[5] من الاعمال من غناه وفقره وعافيتــه وضره[6] وطاعته وعصيانه وذكره ونسيانه — ونعني بالذكر شهود القلب وحضوره وبالنسيان[7] غيبته واستتاره فذلك مما يجب مراعاته في السلوك والوصول لانه من اقوى العمد والاصول وفي ذلك من خلوص التوحيد ومحاسن اوصاف العبيد ما يندفع بهما عن باطنه انواع من الكروب والامال ويتخلص بها من تبعات[8] الذنوب ومتاعب الاعمال. اما الغنى والعافية والطاعة والذكر — وفي معناها[9] رفعة القدر والجاه — فادبها[10] الباطن معرفته بجلال ربه وعظمته وكبريايه وقدرته ويكفي في ذلك معرفة قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قــدره »[11] — ومعرفته بخسة نفسه وضعتها ومهانتها وآفتها[12] ويكفي في ذلك معرفة قولــه تعالى[13] : « هل اتى على الانسان حين من الدهــر لم يكن شيئاً

---

١) ف ق ر : باسامي ‖ ٢) ر س : وبذاذة ‖ ٣) إ ف ق ر س : ط : جواب سوءال ثامن في ذكر عدم منافاة النظر في علم القرآن والحديث للتصوف ‖ ٤) إ ف ق ر س : ط : جواب سوءال تاسع في ذكر احوال شريفة ينبغي ان يكون عليها المريد ‖ ٥) ف ق ر س : فيه ‖ ٦) س خ : وضروه ‖ ٧) س : والنسيان ؛ خ : وبالنسيان ‖ ٨) س خ : تباعات ‖ ٩) إ : معناها ‖ ١٠) إ : فادبها ‖ ١١) قرآن : ٦ : ٩١ ‖ ١٢) ر س : وآفاتها ‖ ١٣) ف ق ر س : سبحانه ‖

مذكورًا »[1] — فاذا احكم هاتين المعرفتين علم على القطع حينئذ انه لا وجه لاستحقاقه شيئا من ذلك وان قل لولا فضل الله وكرمه وانه لو صب عليه انواع البلايا وامتحنه باشد الرزايا واوقعه في سبب يضل به في دينه ويهلك به في[2] دنياه لكان اهلا له ومستحقا وقد فعل ذلك بامم لا تحصى — فينبغي ان يستغرقه الفرح بربه والشكر له ويشتغل بذلك عن التطلع الى ما هو اعلى والكون على حال يتوهمه اولى — وادبها[3] الظاهر اما الغنى والعافية وما في معناهما فالاستعانة بها على طاعة الله عز وجل وان لا يستعين بها[4] على معصيته[5] . واما الطاعة فاخلاصها وتحسينها واتهام النفس في الوفاء بحقوقها ورجاء قبولها — واما الذكر فان لا يجره البسط الى سوء الادب ولا يمنعه القبض من العمل بما يجب او يستحب ويراعي في ذلك آداب الحضرة ولا يخل منها بمثقال ذرة .

واما الفقر والضر — وفي معناهما الضعة والخمول — فادبها[6] الباطن معرفته بان الحق تعلى سلك به سبيل احبابه من انبيايه واوليايه ورآه اهلًا لتقريبه واصطفايه وعلمه بان في الامكان ما هو اعظم مما به[7] ابتلاه في دينه ودنياه — فينبغي ان يستغرقه الفرح بمولاه لايثاره اياه بما به[8] ابلاه واولاه والشكر له على اصابته منه بهذا القدر اليسير لطفا منه به ونظرا له يشغله ذلك عن مكابدة البلوى والاستراحة الى البث والشكوى . فقد حكي انه كان لبعض الاولياء صديق فحبسه السلطان فارسل اليه فقال له صاحبه اشكر الله فضرب الرجل فكتب اليه فقال اشكر الله[9] فجيء بمجوسي مبطون وقيد فجعلت حلقة من قيده على رجل هذا وحلقة على رجل المجوسي فكان يقوم المجوسي بالليل مرات وهذا يحتاج ان يقوم معه ويقف على رأسه حتى يفرغ فكتب الى صاحبه — فقال : اشكر الله — فقال الى متى تقول واي بلاء فوق هذا. فقال (59)
له صاحبه : لو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع . وقال رجل لسهل بن عبدالله : ان اللص دخل داري واخذ متاعي فقال له : اشكر الله ولو دخل اللص قلبك — وهو

---

١) قرآن : ٧٦: ١ || ٢) إ : — في || ٣) إ : وادبها || ٤) ف : بها ؛ ف خ ق : بها || ٥) إ ق : معصية || ٦) ر : فادبها || ٧) ق : — به || ٨) ف ق ر س : — به || ٩) إ : — فضرب . . . الله ||

الشيطان — وافسد التوحيد ماذا كنت تصنع . ومر بعض المشايخ في شارع فصب على رأسه طست رماد فسجد لله تعالى[١] شكرا. فقيل له في ذلك فقال: كنت انتظر ان يصب علي النار فالاقتصار على الرماد نعمة — وادبها الظاهر حسن الصبر وسؤال كشف الضر واستعمال ظاهر السنة في التسبب والطب والفرار من الموذي والمهلك . وان ترقى في المعرفة حتى ترك الدعاء[٢] والسؤال في بعض حالاته فحسن. فقد قيل ألسنة المبتدئين منطلقة بالدعاء وألسنة المتحققين خرست عن ذلك . وسيل الواسطي ان يدعو فقال : اخشى ان دعوت ان يقال لي ان سألتنا[٣] ما لك عندنا فقد اتهمتنا وان سألتنا ما ليس لك عندنا فقد اسات الثناء[٤] علينا وان رضيت اجرينا لك من الامور ما قضينا لك في الدهور. وروى عن عبدالله بن منازل انه قال : ما دعوت منذ خمسين سنة ولا اريد ان يدعو لي احد—يعني بذلك الدعاء[٥] المقصود به قضاء حاجته في خاصته لا مطلقا. اذ الدعاء على قصد اظهار[٦] العبودية وموافقة الامر والدعاء للغير على وجه مندوب اليه في الشرع مطلوب من الخاصة .والعامة لا يضاد شيئاً من مقاماتهم العالية بل يجدون المزيد بذلك فيها. الا ان يكون مستغرقا في حال من الاحوال فلا كلام في مثل هذا. وان غلب عليه اليقين حتى ترك التسبب والتطبب فحسن ايضا قد[٧] فعله جماعة من الايمة. وقد قيل : دخل جماعة على الجنيد فقالوا نطلب الرزق فقال ان علمتم في اي موضع هو فاطلبوه . قالوا : نسأل[٨] الله ذلك فقال ان علمتم انه ينساكم فذكروه فقالوا فندخل البيت فنتوكل على الله[٩] فقال التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة . وقال ابو حمزة : اني لاستحيي من الله ان ادخل البادية وانا شبعان وقد اعتقدت التوكل ليلا يكون سعيي على الشبع زادا اتزوده. وقيل لحبيب العجمي: تركت التجارة فقال وجدت الكفيل ثقة . وقيل لابي بكر الصديق[١٠] في مرضه: لو دعونا لك طبيبا فقال: الطبيب قد نظر الي وقال اني فعال لما اريد . وقيل لابي الدرداء : الا ندعو لك طبيبا فقال : الطبيب امرضني — وقيل لسهل : متى يصح للعبد التوكل قال اذا دخل

---

١) س : — تعالى || ٢) ر : — الدعاء || ٣) ق : سألت || ٤) س : الادب ؛ خ : الثناء || ٥) إ : — الدعاء || ٦) س خ : اشمار || ٧) س : وقد || ٨) ف ر : فنسأل || ٩) ف ق ر س : — على الله || ١٠) ق : + رضي الله عنه ||

عليه الضر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت اليه شغلا بحـاله وينظر الى قيام الله تعالى عليه .

(60) واما العصيان والنسيان فادبها الباطن علمه بانهما بقضاء من الله وقدر ومعرفته بوجه[١] اللطف في تخلية العبد والعصيان وتسليطه عليه دواعي الغفلة والنسيان . وذلك انه اراد ان تعرف صفاته العلية وتشهد نعوته القدسية كالعزة والعدل في سلب العصمة منها والاخذ بها والمنة والفضل في العفو عنها وقبول التوبة منها ثم في ذلك من وجود الرهب ونفي العجب حسبما ورد في الخبر:لو لم تذنبوا لذهب الله بـكم[٢] . وفي الخبر ايضا : لو لم تذنبوا لخشيت عليـكم ما هو[٣] اشد من ذلك العجب العجب . وقال ابراهيم بن ادهم : طفت ذات ليلة بالبيت الحرام وكانت ليلة ممطرة شديدة الظلمة وقـد خلا الطواف[٤] وطابت نفسي فوقفت عند الملتزم وقلت اللهم اعصمني حتى لا اعصيك[٥] فهتف بي هاتف فقال : يا ابا ابراهيم انت تسألني اعصمك[٦] وكل عبادي يسألوني العصمـة واذا[٧] عصمتهم[٨] فعلى من اتفضل ولمن اغفر .

فيجد بهذه الاحوال من المزيد ما لا[٩] يجده بالطاعة والذكر وهو المعني بقول من قال : رب ذنب ادخل صاحبه الجنة . فيستغرقه حينئذ شهود اللطف في العنف ويشغله ذلك عن تكدير الوقت بالحزن على فوات الحظ الابدي والنعيم السرمدي . وقد قال بعض العارفين : العاقل عن الله تعالى من غرق شدايـد الزمان في الالطاف الجارية من الله عليـه[١٠] وغرق اساءة نفسه في احسان الله اليه :« فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون »[١١]. وهذه الآداب الباطنية[١٢] والمعارف الروحانية لا تصح ويجد المزيد عنها[١٣] الا من كان له قلب حي بالايمان واليقين. وعلامة ذلك الا يقع منه خلل بالاداب الظاهرة والمعاملات البدنية التي سنذكرها ولا يقع منه فتور فيها بسبب ذلك بل يشتد حرصه عليها ويعظم فرحه بما حصل له منها. فمثل هذا الشخص يصح في حقه ذلك ويجد المزيد بتذكار تلك اللطايف

---

١) ق : + من ‖ ٢) إ : لكم ‖ ٣) إ :— ما هو ‖ ٤) ف خ ر س : المطاف ‖ ٥) س : + ابدا ‖ ٦) س خ : العصمة ‖ ٧) ق : فاذا ‖ ٨) س : عُصمتم ؛ خ : عصمتهم ‖ ٩) ق :—لا ‖ ١٠) ف ق ر س :— الجارية من الله عليه ‖ ١١) قرآن : ٧:٦٧ ‖ ١٢) ر : الباطنة ‖ ١٣) س خ : عليها ‖

والمعارف—واما غيره فيجب عليه الا يخطرها بخاطره ولا يتصرف فيها بفكره. فانها[1] تضره ضررا عظيما . وليقتصر على الآداب الظاهرة وهي المبادرة الى التوبة وحل عقد الاصرار وتذكار الخوف والندم والبكاء والفزع الى الرغبة والدعاء وحسن التيقظ في لزوم الذكر واحضار السر .

ومن الآداب الظاهرة في جميع هذه الاحوال اللازمة للمريد افراد كلّ حالة بذكر مخصوص يناسبها ومناجاة تليق بها لكونه يبعث[2] الحضور والمراقبة (61) ويجعل ذلك هجيراه ومعتاده . فاذا لازم العبد هذه الوظايف وتحقق بهذه المعاني والمعارف فقد قام بواجب مقام الشكر واستحق بذلك الزيادة الموعود بها في محكم الذكر — ولا زيادة اعلى من التحقيق في هذه الاحوال والترقي فيها — وحصل على اغتنام وقته النفيس وزوال حظه الخسيس ووصل الى مقصوده على طريق مختصر وقام بحق معبوده في كل ورد وصدر. فهنيا لهذا العبد ما اختص به من خصوص المزايا وخلع عليه من خلع العطايا .

وينبغي[3] للمريد ان يستعمل حسن الادب مع كل من اتصف بعلم او دين فلا يرد عليهم قولا ولا يعيب عليهم فعلا الا باذن من الشرع عن علم محقق منه ولا يظن باحد منهم ظن السوء الا اذا حصل على يقين من امره . واذا رأى كلاما لبعض اهل عصره او غيرهم او تعرف فعلا من افعالهم فليعرضه على مقتضى الكتاب والسنة على مذهب اهل الظاهر او على مذهب اهل الباطن[4] فان وافقه فحسن والا طلب له تأويلا صحيحا . فان وجده فحسن والا فليسلمه له . الا ان يقطع عليه بمخالفة فليرده حينئذ ولا يبالي به[5] وذلك هو الواجب في حقه . هذا كله ان احتاج الى ذلك وكان مما يعنيه . وان كان مما لا يعنيه فلا يأخذ في ذلك باثبات ولا نفي ولا تصحيح ولا ابطال وليتأدب بما ادبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال : من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

وليراع حسن الادب مع خاصة الناس وعامتهم وفي جميع اموره حسبا

---

١) ر : فانه || ٢) ف ر س : بنعْت || ٣) إ ف ق ر س : ط : جواب سؤال عاشر في ذكر آداب النظر في كلام العلماء || ٤) س : — او على مذهب اهل الباطن ؛ س خ : او على . . . الباطن || ٥) ر س : يباليه ||

شرحناه . فاذا احكم جميع ما ذكرناه وراعى الادب الذي وصفناه استفاد باذن الله قوة باطنية تحمله على اعتناق الاعمال والترقي في المقامات والاحوال واطلع بها على اسرار العلم الظاهر واشرق في قلبه نور اليقين الباهر وعرف مداخل الغرور في الاعمال والعلوم . وفرق بين الحقايق والرسوم . ولا تكون له حينئذ همة الا فيما يرضي ربه ولا نية الا فيما يرجو نفعه ويوجب[١] قربه وذاق حلاوة الايمان واليقين وخفت عليه اعمال المتقين . وهذه الخفة الكاينة في هذا المقام محمودة ملحقة بما استثنيناه من انواع الخفة المحمودة قبل هذا وهي من الترويحات التي يروح الحق تعالى بها بعض عباده كرامة لهم ولطفا بهم . وليست بلازمة في مقام العبودية بل ربما ضوعف على بعضهم الثقل وسلط عليهم القبض
(62) وهم قايمون بين يديه بوصف الاقبال راضون بما اقامهم فيه من تحمل الاثقال. ويكون حالهم اتم من حال الاخيرين لانهم يستفيدون بذلك مزيد ادب ومراقبة ويسلمون من انواع من[٢] الاخطار التي يتعرض لها سواهم . فقد قال الواسطي رحمه الله : احذروا لذة العطاء فانها غطاء[٣] لاهل الصفاء . وقال ايضاً : اياكم وحلاوة الطاعات فان تحتها[٤] سموما[٥] قاتلات . وذلك من اجل ان للنفس هنا[٦] انتعاشا وركونا الى ما ظهر عليها ووقوفا معه فيوجب ذلك غفلة ما يحرم بسببها مزيداً كثيرا[٧] لا يقدر قدره ولا يعرف خطره واليه — والله اعلم — اشار الجنيد بقوله : لو اقبل صادق على الله الف سنة ثم اعرض عنه لحظة كان ما فاته اعظم مما ناله . ومعنى وقوفه معه رضاه به واشتغاله بذلك عن ربه . كما قال بعض المشايخ[٨] في الرضى والتسليم: اخاف ان يشغلني حلاوتها عن الله عز وجل — وقال الاستاذ ابو القاسم[٩] : رؤية القرب حجاب عن القرب فمن شاهد لنفسه محلا او نفسا فهو ممكور به . ولهذا قالوا : اوحشك الله من قربه اي من شهودك لقربه . فان الاستيناس بقربه من سمات الغرة به اذ الحق تعالى وراء كل انس وان[١٠] مواضع الحقيقة توجب الدهش والمحو[١١] . وفي قريب من هذا قالوا:

---

١) س : ويرجو ؛ خ : ويوجب || ٢) ر : — من || ٣) إ : اعطاء || ٤) س خ : تحققها || ٥) ف : سموم || ٦) ف ر : ها هنا || ٧) ف ر س : مزيد كثير ||
٨) ف ط : هو سيدي عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ الشاذلي رضي الله عنهم اجمعين ||
٩) ف ر س : + القشيري || ١٠) ف : فان || ١١ س : والمحق ؛خ : والمحو ||

مِحْنَتِي فِيكَ أَنَّنِي لَا أُبَالِي بِمِحْنَتِي
قُرْبُكُمْ مِثْلُ بُعْدِكُمْ فَمَتَى وَقْتُ رَاحَتِي

وكان الاستاذ ابو علي الدقاق كثيرا ما ينشد :

وِدَادُكُمْ هَجْرٌ وَحُبُّكُمْ قِلَى وَقُرْبُكُمْ بُعْدٌ وَسِلْمُكُمْ حَرْبُ

ورأى ابو الحسين النوري بعض اصحاب ابي حمزة فقال : انت من اصحاب ابي حمزة الذي يشير الى القرب ، اذا لقيته فقل له ان ابا الحسين النوري[١] يقرؤك السلام ويقول لك : قرب القرب فيما نحن فيه بعد البعد — وتحقيق ما ذكرناه يستدعي طولا وكشفا عن اسرار لا حاجة بنا الى كشفها .

واذا انتهى المريد الى هذا الحد امتلأ قلبه بانوار باهرة ومعان قاهرة فظهر له من جلال ربه وعظمته ومن عجايب عوالم قدرته وحكمته ما يعجز عن وصفه.

(63) ومن[٢] ها هنا ينجز الكلام على مسئلة الشيخ ابي طالب المذكورة في كتاب الخوف في ذكر المكر ولا اتجاسر هنا على زيادة الكلام فيها على ما ذكرناه في الكتاب الاول . فلتقنعوا بذلك واتعتبروا هذه النبذة التي ذكرناها وتوفوها حقها من النظر فان الكلام فيها منظوم مرتب مرتبط بعضه ببعض سقناها[٣] مساق سلوك المريد الى منازل التوحيد وانهينا الامر فيها الى الغاية التي تتمكن فيها العبارة وذكرنا فيها من المعاني الكلية والاداب الجميلة[٤] مما يفتقر بسطه الى مجلدات . وفي ضمن ذلك كله استيفاء الجواب عن جميع اسيلتكم[٥] الا ما اعتذرنا[٦] عنه منها وذلك هو مقصودنا بالذات في ايراد هذه الكلمات .

فنسأل ربنا جل وعلا ان يوفقنا واياكم[٧] للعمل بما علمنا وان لا يجعله حجة علينا . والمراد منكم الدعاء لي بمثل هذا وكذلك كل من نظر فيه من اصحابنا . ومع هذا فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم هو حسبنا ونعم الوكيل . وصلى الله على سيدنا[٨] محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

---

١) ر : — النوري ‖ ٢) إ ف ق ر س : ط : جواب سؤال حادي عشر بالاحالة على كتاب آخر ‖ ٣) س : سقناه ؛ خ : سقناها ‖ ٤) إ : الجلية ‖ ٥) س خ : اسيلتهم ‖ ٦) س خ : اعتدونا . كذا ‖ ٧) إ : — واياكم ‖ ٨) ف خ ر : + ومولانا ‖

[الرسالة السابعة]

كتاب تضمن ذكر مراتب الناس في الصبر والرضى عند نزول البلايا بهم[1]

الحمد لله وحده . وقد بلغني كتابكم وانتم تذكرون فيه مسئلة الصبر على البلاء وانكم اختلفتم فيها . وليس في ذلك اشكال ولا ما يوجب الاختلاف. فان الصبر على البلايا[2] مقام من مقامات اليقين وهو تابع له في القوة والضعف والزيادة والنقصان . والصبر عبارة عن حبس النفس عن تعاطي افعال واقوال اختيارية مضادة للشريعة والحقيقة موافقة للجبلة والطبيعة . ولا يتأتى ذلك على الوجه المطلوب الا لمن قوي يقينه وضعفت صفات نفسه. واما من كان في نهاية ضعف اليقين وقوة صفات النفس فلا يقدر على ذلك ولا يدوم عليه بل يسترسل على مقتضى طبعه بلا رادع ولا مانع حتى ربما قارب الكفر — والعياذ بالله — وهو نسبة الله تعالى الى الجور .

وتتفاوت مراتب الناس بين هاذين المعنيين تفاوتاً[3] لا ينحصر كما يتفاوتون في اليقين . فان قوي يقينه جدا لم يجد لما اصابه من البلاء ألما بل ربما استحلاه واستطابه. وهذا من اعلى مقامات المحبة والرضى. كما روي عن سري السقطي وقيل له : هل يجد المحب طعم الالم[3] فقال لا — قيل[4] وان ضرب بالسيف قال وان ضرب بالسيف سبعين ضربة[5] على ضربة . ودون ذلك ان يستحليه بقلبه ويجد المه بجسده كما قيل : الرضى سرور القلب بمر القضاء . وقال ابو يعقوب النهرجوري : اذا استكمل العبد حقايق اليقين صار البلاء عنده نعمة والرخاء شدة . ودون ذلك ان يستوى عنده وجود ذلك وعدمه . فان اعتراه ضعف في يقينه انحط عن هذه المراتب فيضيق صدره لعدم الانشراح المستفاد من نور

---

١) س خ : وله ايضاً رضي الله عنه كتاب تضمن اختلاف احوال الناس في الصبر والرضى عند نزول البلاء ‖ ٢) ف ر س : البلاء ‖ ٣) ر س خ : البلاء ‖ ٤) ر : فقيل ‖ ٥) إ : — ضربة ‖

اليقين فيوديه ذلك الى الشكوى والجزع . ولقد عدوا من ضيق الصدر قول العبد عند البلاء : لا حول ولا قوة الا بالله. وهذا من سيئات المقربين التي هي من حسنات اصحاب اليمين . وعدوا ايضاً أنين المريض من الشكوى وجعلوه مما يكتب على العبد . وقد كان طاووس يكره الانين في المرض. ويروى في بعض الاخبار ان زكريا عليه السلام لما وضع على رأسه المنشار انّ انة. فاوحى الله تعالى اليه : ان صعدت الي منك[1] انة اخرى لاقلبن السموات والارض بعضها على بعض.

(65) فان حبس الانسان نفسه عن هذه الامور وعن الاخبار ببليته على سبيل الاستراحة الى الشكوى كان صابرا صبرا جميلا . حسبما ذكره الله تعالى في كتابه مخبرا عن نبيه يعقوب عليه السلام في قوله[2] : « فصبر جميل »[3] قيل هو الذي لا شكوى فيه ولا اظهار. فان واقع هذه الاشياء وكف نفسه عما وراء ذلك من كثرة التشكي واظهار التسخط ومجاوزة حد العلم واظهار التبرم والذم كان له مقام في الصبر ولكن ليس بمقام الخصوص . فان صدرت منه هذه الاشياء كلما كان خارجا عن حدود الصبر بالكلية داخلا في ضده وهو الجزع . فان شاهد قبح فعله وراض نفسه على الكف عنه وكان عنده في ذلك تكلف كان متصبرا وهو التعمل للصبر كالتزهد وهو التكلف للزهد. وليس بعد ذلك مقام يذكر ولا حال يغبط[4] .

وحاصل هذا ان وجدان الالم لا يناقض الصبر اذ لا اختيار للعبد فيه والعمل الاختياري الذي اقتضاه وجدان الالم مخالفا للشريعة والحقيقة يناقضه الا انه يقل ويكثر ويزيد وينقص على حسب مراتب اليقين . وهو في اصله على ثلاثة اوجه مذكورة في القرآن: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين . ولكل من هذه الوجوه مراتب لا تنحصر . قال بعض العارفين : لا يستحق العبد اليقين حتى يقطع كل سبب بينه وبين الله من العرش الى الثرى حتى[5] يكون مراده الله لا غيره ويوثر الله على كل شيء سواه . وليس لزيادات اليقين نهاية كلما تفهموا وتفقهوا في الدين ازدادوا يقينا على يقين .

رزقنا الله منه الحظ الاوفر بمنه وكرمه .

---

١) إ : — منك || ٢) س : — في قوله ؛ س خ : في قوله تعالى || ٣) قرآن : ١٨:١٢ || ٤) س : يضبط : س خ : يغبط || ٥) س : وحق ||

[الرسالة الثامنة]

كتاب[1] تضمن ذكر ما يلتزمه التايب من اعمال واحوال توجب له الثبات في مقامـــه وفيه زيادات مفيدة[2]

الحمد لله وحده . اما بعد فقد وصلتنا[3] كتبكم وعلمنا ما فيها ولم نر فيها ما يقتضي جوابا يكون صوابا الا ما كان من شأن العبد التواب وسلوكه مسلك من اخلص لله واناب . فقد سرنا ذلك كثيرا واحتسبنا له بذلك من ربنا اجرا كبيرا . وذلكم رحمني الله ربي وربكم فتح الهي ونفح رباني لا يقدر قدره الا من عرفه . وهو من نتايج التعرض المامور به في الحديث المشهور والذي عليه المعول[4] من جميع الامور لافتقار جميع المقامات الايمانية اليه ابتداء وانتهاء ودواما وبقاء . فلا غنى للمريد عنه في ترقيه فيها ولا بد منه في تنقله عنها . فلا جرم وجب على العبد مراعاة كونه وبقايه وزيادته ونمايه واعمال جده في حفظ جوهره المصون وتحصينه[5] بامنع الحصون[6] وتوفية حق نزوله والمامه وبذل الجهد في بره واكرامه . وذلك بشكره اللايق بالمقام المنزول به والحال الحادث بسببه . وعلم ذلك والعمل به من فروض الاعيان لكونه من حق الايمان . وهو[7] من الواجبات التي تستغرق الاعمار عند ذوي العقول والابصار . فـــاذا عرفتم ذلك فاعلموا ان ما[8] اشرنا اليه ينقسم على قسمين جملي وتفصيلي .

اما الجملي فقد اشتمل على بيانه واثارة برهانه كتاب ربنا المنزل واحاديث نبيه المرسل واقاويل السلف الصالحين وما اورده في تأويل ذلك ومعناه ايمـــة الدين. فعلى مستفيد العلم من ذلك وسالك تلك المسالك ان يصغي بسمع قلبه الى ما يرد عليه منها ويلغي المراء والجدال فيها ويتلقى بالقبول ما يتلاوى عـــلى العقول حتى تنكشف له حقايقها في ثاني حال ويتضح له اذ ذاك كل اشكال .

---

١) س : وله ايضا رضي الله عنه كتاب . . . ‖ ٢) إ : مفيدات ‖ ٣) إ: وصلنا ‖ ٤) إ : المعمول ‖ ٥) إ : وتحصيله ‖ ٦) إ : المحصون ‖ ٧) ر : — وهـــو ‖ ٨) إ : انما ‖

واما التفصيلي وهو علم مقامات العبد واحواله في سكونه وانتقاله وخلطته واعتزاله وزمانه ومجاله[1] وغناه واقلاله وتفرقه واشتغاله[2] وجميع افعاله واقواله لا[3] يستقل العبد بذلك على التحقيق الا بصحبة صديق صديق قد غاص في تلك (67) البحار وميز بين الجواهر والاحجار وايده مولاه بما به تولاه فترك له ما يهوى واقر بالحقيقة وهجر الدعوى فيعلمه بما يظهر له من خفياته وينبه على عيوبه وآفاتـه ويخبره بما يليق به في حالاته. فان ظفر هذا العبد بهذا الفرد فليشدد[4] عليه يد الضنين وليسلك سبيله المستبين . والا فليقلد دليل الاحتيـاط والحزم ويتحر[5] مذهب اهل التقوى والعزم فذلك اجدر بنهج[6] المطالب ونيل المآرب .

وقد رأينا ان نذكر هنا من حقوق مقام التوبة ما يحسن في هـذا الموطن اذ استيفاء حقوق كل مقام بالذكر والبيان في هذه البراءة لا يمكن وفـك خاتمه عن مستودعات سرايره في هذا الزمان لا يحسن لعدم الفايدة في ذلك البتة.

فاعلموا ان مقام التوبة هو اول المقامات واساسها وعليه[7] تنبني انواعهـا واجناسها وهي تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة . فيدخل في عموم هذا حركات الظاهر والباطن في العقود والاقوال والافعال . فعلى العبد اولا ان يعتقد بتوبته اداء حق مولاه ليرضى عنه[8] ويتولاه وينيله في جواره ما يتمناه . ثم ينظر الى حركات باطنه فينفي عنها اعتقاد المذاهب الباطلة والميل الى زخارف العاجلة والى حركات ظاهرة فيمسك بها سنن[9] الاتباع ويصرفها عن مقتضى[10] العادات والطباع . فيثمر له ذلك انواع الخيرات ومحاسن الاداب المرضيات من المسارعة الى البر والتقوى وايثار الاخرة على الدنيا والتأني والتثبت قبل الاقدام وحسن المراقبة للرقيب العلام واغتنام الاوقات ومراعاة الانفاس وذم الجوارح وضبط الحواس والقيام عـلى النفس في كل همة ردية وتصحيح قصده بصدق النية وحسن الطوية والمبادرة الى رد المظالم والتباعات واصلاح ما ضيع من الفرايض الواجبات وترك الاشر والبطر والتباعد عن مظان[11] الخطر وخفض الجناح ولين

---

١) رس: ومحاله ‖ ٢) ر : واشغاله ‖ ٣) ف رس : فلا ‖ ٤) س خ: فليشد ‖ ٥) [كذا عوض « يتحرى »] ؛ س خ : .فليتحر ‖ ٦) ر : بنجح ‖ ٧) ف رس: وعليها ؛ ف خ : وعليه ‖ ٨) س : عليه ‖ ٩) س خ: سبل ‖ ١٠) س خ: مقتضيات ‖ ١١) ر : مضان ‖

الجانب وسلامة الصدر من الآفات والمصايب والموالات والمعادات في الدين والشفقة والنصيحة لكافة المسلمين الى غير ذلك من وظايف الدين وسنن المرسلين. وينتفي عنه اضدادها من وجوه الطغيان وكباير الاثم والعدوان اعاذنا الله من ذلك .

(68) ثم اعلموا ان التايب ابدا في ابتدايه منكمش في حاله ذو لوعة وغصة قد استولى عليه سكر ما هو فيه وغلب عليه وارد يستوفيه لا يرى غير حالته الراهنة حالا ولا يقدر لنفسه عنه انتقالا قد سكنت نفسه وضعفت دواعيها وقوى انسه بحاله[1] التي هو فيها. فلا يزال كذلك حتى تجلب عليه خيل الابتلاء ورجله[2] التي لا بد له منها وتنزل بساحته جنود الخواطر التي كان خليا عنها . فعليه حينئذ الوفاء بعقده والمحافظة على عهده . فيلازم حاله الاولى ويشمر عن ساعده في قتال جنود الهوى . وهذا محل تفاوت الناس ومواقف اقدام الابطال والاكياس وهو الجهاد الاكبر الذي يهون جهاد الكفار عنده ويستحقر . فان غلب فاز بملك النفس والتمتع في رياض القدس وان غُلب سلب الانس وحصل من مرامه على العكس . فعليه حينئذ تجديد التوبة مرة اخرى وطلب الاقالة والرجوع الى ما هو اولى به واحرى . وهكذا يفعل ما دام في الدنيا. وليجعل عمدته في حركاته الظاهرة والباطنة التبرء من الحول والقوة بالكلية وان لا يبقى مما يمنع من ان يلقي بيده سلما الى مولاه بقية . فذلك هو ملاك[3] هذا الامر والعروة الوثقى . فمن تمسك بها فقد اعتصم بالمعتصم الاوفى .

فعلى هذا المهيع درج السلف الصالحون في ساير القرون وبهذا المنزع سارع القاصدون الى فعل ما به يومرون وكل ما ذكرناه وما لم نذكره من حقوق الايمان ومزيد الايقان كان دابهم وديدانهم[4] وخلقهم ودينهم . وكان ذلك لهم بمنزلة الغذاء لمريد البقاء لا مشقة عليهم فيه الا التذاذهم[5] به ولا مطمع لعدو في صرفهم عنه الا اعتصامهم به لانهم كانوا على بينات[6] من ربهم ويقين صادق من دينهم .

ثم هم متفاوتون فيما اقيموا فيه ومتباينون فيما قسم لهم منه . فمنهم من دام على هذا الاسلوب من اعمال الجوارح والقلوب وجعلوه وسيلتهم في اقترابهم[7]

---

١) ر : بحالته ‖ ٢) إ : ورحله ‖ ٣) ر : مالك ‖ ٤) ف ر س : وديدنهم ‖ ٥) إ : التدادهم ‖ ٦) ر س : بينة ‖ ٧) إ : اقتدايهم ‖

من علام الغيوب مع احكامهم على الظاهر وحصولهم منه على ثلج الخاطر واقتصروا من ذلك على ما يخصهم في انفسهم. وان استفتاهم احد فيه احالوه على غيرهم ورأوا في ذلك عصمة امرهم . وقد روى في ذلك عنهم غير شيء .

(69) ومنهم من غلب عليه[1] الاشفاق على الخلق لما رأوا البدع[2] قد حدثت فيهم وحب الدنيا قد ظهر عليهم . فرأوا واجبا التعرض لهم لانقاذهم من الجهالات التي تعتريهم في دينهم ومن الظلامات الواقعة بينهم في دنياهم . فتفاوت هؤلاء ايضا تفاوتا كثيرا :

فنهم من غلبت عليه المخافة من ابتداع ما لم يكن في الزمن[3] الاول ورأوا هذا من البلاء النازل بهم فسلكوا مسلك الاحتياط واقتصروا معهم في الدين على ظاهر المنقول ولم يخوضوا في قضيات العقول . فان ماروهم او جادلوهم في ذلك رفضوهم رفضا وابغضوهم في الدين بغضا ورأوا في مكالمتهم والاخذ في معاناتهم تضييعا لاوقاتهم وشغلا بما لا يعنيهم. واما في الدنيا فاختلفوا فاكثرهم لم يقدم على ولاية لا[4] طايعا ولا كارها لغلبة الخوف عليهم وتوقع الخطر فيه . وبعضهم اقدم مطلقا لقوته في الدين وبصره بمصالح المسلمين لكن الحذر لم يفارقه طرفة عين لان الخلاص في ذلك ليس بهين .

ومنهم من استوعب في ذلك زمانه واستغرق في ذلك اوقاته وآناءه وتفننوا[5] فيما شاءوه من ذلك حين رأوا سيول الفتن قد اقبلت ونيران الباطل قد اشتعلت فشمروا عن سواعدهم وانتصبوا وتعبوا في دفع ذلك ونصبوا . ووضعوا للناس القوانين التي عليها يعتقدون وبينوا لهم طرقات الهدى لعلهم يهتدون وقعدوا لاعداء دينهم بكل مرصد وسدوا ثغورهم اوثق سد[6] . ثم اختلفوا في الولايات على نحو ما ذكرناه . بيد انهم وجدوا على ما راموه من ذلك اعوانا لم يالوهم طاعة واذعانا فتم لهم بذلك مرادهم وانجحت اراؤهم وقصودهم[7] . غير انهم ادركتهم محن وبلايا لم يجدوا عنها محيصا واستقبلتهم فتن ورزايا محصتهم تمحيصا . وكل واحد ممن ذكرناه في نظره مصيب وله من حظه[8] من ربه اوفر نصيب .

---

١) س : عليهم ‖ ٢) س : البدعة ‖ ٣) ر س : الزمان ‖ ٤) ر س : — لا ‖
٥) إ : وتفتنوا ‖ ٦) إ : شد ‖ ٧) ر : وقصدوهم ‖ ٨) س : — من حظه ‖

وهذه الطوايف في كل زمان يقل عـددهم ويضعف مددهم حتى افضت الامور الينا وقد اندرست اعلام الدين وعفت آثاره وعدم حماته وانصاره وغرق الناس في بحر الدنيا وماتت القلوب وذهب الحياء وانحرفت عقول الخواص عن
(70) صوب السداد وتاه العوام في متاهات الجهل والفساد وذهب العارفون وعـدم الموقنون . اظلمت الارض بذهاب انوارها وافول شموسها واقمارها وصار الولاة عداة والعلماء غواة والاخوان خونة والقراء فسقة ظلمة وخفي الحق عنـد ظهور الباطل وادعى معرفته وعلمه كل غبي مدع[1] ومفتون جاهل . وذكر اصنافهم يطول ولا[2] تحتمله اكثر العقول . فاعتبروا يا اولي الابصار وانظروا هل يستقر لاحد في هـذا الوقت قرار او يعلق بقلبه شيء من الانوار او يصفو مشربه عن شرب الاقذار والاكدار . ام كيف يسع احدا فيه تفرغ الى ما ليس بواجب وانى تصح له فيه نية مع شمول هذه المصايب .

فالمتعين[3] على المريد في هذا الزمان الفريـد ان يقطع عمره بالحزن الطويل والبكاء والعويل ويستنصح كل لبيب عاقل ويكون له في نفسه شغل شاغل وياخذ نفسه بالاشد فالاشد ويفر من الناس فراره من الاسد ويـدع الرخص والتاويلات ولا يقدم بعقده وعمله الا على الامور البينات. فان لازم هذا العمل حتى جاءه الاجل حظي بالامان وفاز بتضعيف الاجر الموعود به العاملون في آخر الزمان . وان صده اللعين عن هذا الصراط المبين لم يفلح اية سلك ولم يبـال الله تعالى في اي واد من اودية الدنيا هلك .

وواجب على كل مريد ناصح لنفسه سالم في عقله وحدسه ان يزن جميع ما ذكرناه بميزان الانصاف وينظر فيه بعقل سليم عن الميل والانحراف فسيعترف به اتم اعتراف فيسلك جادة طريقه ويدين بتصديقه وتحقيقه بهداية ربه وتوفيقه — وقد ذكر الشيخ المحقق ابو القاسم عبـد الرحمن بن محمد بن عبدالله البكري الصقلي في كتاب[4] الانوار كلاما نبه فيه على طبقات العباد وما ظهر في الارض من الفساد رأيت ان احكيه على وجهه ليحصل الناظر فيه على كنهه فقال :

« كان اخص الناس بفهم[5] علم الكتاب وشرح معرفة السنة وعمل الرسول

---

١) ر : مـدعي ‖ ٢) ر : لا ‖ ٣) إ : فالمتبر ؛ ر : فالواجب ‖ ٤) س : كتابه ‖ ٥) ر : يفهم ‖

عليه السلام اهل القرن الاول لانهم افضل الناس عقلا واوسعهم علما . ثم جاء القرن الثاني فكانوا اعقل الناس واعلمهم بعد الصحابة بمعاني[١] آي الكتاب والعمل بالاقتداء وفهم ما شرحه الصحابة من البيان — غير ان الايثار الذي خص به الصحابة رق في التابعين وكذلك الزهد في الحلال وحدث فيهم تيير اهل البدع يضلون الجهال سرا ويستميلون العوام خفيا . ثم جاء القرن الثالث فذهب اكثر اهل العلم وهم المتمسكون بالتصديق العاملون بالحدود لفقد ما
(71) علمه الصحابة والتابعون وقل[٢] فيهم الخوف والرجاء والصبر والشكر وكثر فيهم الخوض والجدل والخصومة والمراء وظهر الاختلاف وقامت الدعاة في طرق الضلال وصارت الحقيقة خصوصا والجهالة عموما . ثم جاء القرن الرابع فاضطرب الامر في الحق واستوحشت طرق الهداية للسالكين لها وكثر النفاق . وخرج الناس من الدين افواجا واستبدلوا الحق بالباطل والاخرة بالدنيا وكثر الدهان وغلب المنكر وقهر اولياء الله وعلت اصوات اهل الخبايث واستخفى المومن وذهب التواصل وعدمت النصيحة وقلت الالفة وفسدت النيات في ذات الله وتصالحوا على الحب والفجور وسفك الدماء بغير حق . وذهب الحياء في اخذ الحرام وصارت الهيبة في اهل الفجور ولم يبق على ظهر الارض متحقق بالتفرد ولا متحل بالحقيقة الا والبلاء يطلبه والفتنة تلحقه . غير ان في الناس بقايا من اهل التصديق بالقدرة متحققين بالايمان[٣] بالقدر . فاذا حل دخول القرن الخامس اشتد البلاء باهل الاسلام خاصة فيما بينهم فكان الكل على[٤] الكل في القريب والبعيد والمولي[٥] والمولى عليهم . بعضهم لبعض فتنة وبعضهم على بعض نقمة بفساد دينهم ودنياهم وعيشهم[٦] . فلا راحة لمن بقي من اهل الحقيقة غير انهم يحجبون عن العامة ويستترون عن المدعين . فاذا دخل القرن السادس ذهب اهل التصديق وبقي اهل الانكار وسلب الناس عقل البصيرة وبقي[٧] عقل الحجة عليهم وذهب الاسلام فلم يبق الا اسمه وذهب العمل بالقرآن فلم يبقَ الا رسمه . ثم العجب العجب اهل القرن السابع وهم اشرار الناس على شكلهم تاتي الازفة تتبعها الرادفة » .

---

١) ر : لمعاني ‖ ٢) ر : قل ‖ ٣) إ : الايمان ‖ ٤) ف س : عن ؛ س خ : على ‖ ٥) ر : والمول ‖ ٦) ر : وعيشتهم ‖ ٧) ف ق ر س : ويبقى ‖

انتهى كلامه وقد احسن فيه ما شاء ولم يات بمثله احد العلماء وفيما ذكرناه منه كفاية وغنى .

ولنقتصر على هذا القدر من الكلام في هذا المقام فقد ذهب بنا كل مذهب وتشعب علينا كل مشعب والكلام فيه محتمل لاكثر من هذا اذ ما من فصل الا وهو مقتضي لأدلة حذفناها ولا قول الا وهو محتاج الى صلة قطعناها طلبا للاختصار وعدولا عن الاكثار . وانما فعلناه لكم لكونكم طلبتم في كتابكم منا المبالغة في الموعظة والنصيحة والتوصية بالوصايا الصحيحة فرأينا من حقوقكم التي لا نقدر على توفيتها ان نبلغ في تلكم المطالب الى
(72) غايتها ونذكرها في معرض الكلام على النازلة الواقعة لنضع فيها البيان مواضعه ونسوقها سياقة يعترف بصحتها كل لبيب وتعم فايدتها كل مريد منيب — مع اني معترف بالتقصير في العمل بما وصفته متصف بنقيض ما رسمته وشرحته لا ادلي في ذلك بحجة ولا اسلك الا على غير محجة :

أَدُلُّ عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَمَا أَهْتَدِي بِالدَّلِيلِ[1]

وَاصِفُ الدَّوَاءِ لِدَاءٍ[2] أَنَا بِهِ عَلِيل

وحاجتي عند من رأى هذا الكتاب من الاولياء والاحباب ان يجتهد لي في الدعاء بتيسير التوبة وتكفير الحوبة . وان يبلغني من الطاعة املي وان يختم بالخير عملي . فليس ذلك بعزيز ولا بعيد على المبدي والمعيد الفعال لما يريد . وليكن هذه آخره . والحمد لربنا عز وجل والصلاة على نبيه المرسل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

١) ر س : به الدليل || ٢) ا : الذي ||

[الرسالة التاسعة]

كتاب[1] تضمن التوصية والنصيحة لرجل اصابه ضيق في صدره[2] مما[3] هو عليه من احوال غير مرضية عنده مع انــه يريد الانتقال عنها الى احوال اخر مرضية عنده وموثرة لــه فلم يقدر على ذلك .

الحمد لله بقدر نعمته — اما بعد فقد وصلني كتابكم وانتم تصفون فيــه احوالكم ونعما[4] فعلتم — وحاصل ما ذكرتموه ان ما اتصفتم بــه من الصفات واستعملتم فيه من الحالات هي مكروهة اليكم غير محبوبة لا ترضونها للتقرب[5] بها الى ربكم . وان مـا توهمتموه او[6] تخيلتموه بعقولكم من احوال لستم عليها هي محبوبة اليكم غير مكروهــة تتمنون ان لو كنتم عليها ووجدتم السبيل اليها .

وقد اتعبتم يا اخي انفسكم واسأتم الادب في معاملاتكم[7] وكددتم[8] افكاركم فيما تذهب فيه اوقاتكم مجانا بلا فايدة . بل ربما اضر ذلك بكم اذ[9] اشتغلتم بما هو حجاب عن مقاصد الاولياء العارفين وفيه التبعد[10] من رب العالمين . وانتم عندي معذورون في ذلك اذ سبقكم الى ذلك ناس كثيرون ممن تقدم وتأخر ولعلكم لا تجدون الا ذلك . وسبب وقوعهم في ذلك سبقية نظرهم الى ان لهم حولا وقوة فيما يتصرفون فيه من الحركات والسكنات وشدة غفلتهم عن الاول المدبر والمصرف المقدر حتى اداهم ذلك الى اغاليط وجهالات حادوا بها عن الصراط المستقيم وهم لا يشعرون .

ثم هم في ذلك فرق . اما من كان منهم من اهل المعاملات الظاهرة من صلاة او صيام او حج او عمرة او ذكر او صدقة او غزو او تعلم علم او قضاء حاجة مسلم او غير ذلك من افعـال البر القاصرة او المتعدية فمن استعمل منهم

---

١) س : وله ايضاً رضي الله عنه ونفع به كتاب || ٢) ر : صدر || ٣) إ : بما ؛ق : لما || ٤) س خ : ونعمّ ما || ٥) ق : للقرب || ٦) ق : و || ٧) ق ر : معاملتكم || ٨) س ط : بخط سيدي المهدي الفاسي « وكددتم » || ٩) ر : اذا || ١٠) ف ق ر : البعد ||

في شيء من ذلك ولم يجد له حلاوة ولم يعرف خيريته عند ربه حسبما ذكرتموه عن انفسكم فانه يقع له من الاحوال الردية ما وقع لكم. ومنهم من يرتضي حاله ولا يحب زواله ولكنه اذا فتر عنه او اعتراه كسل او ملل او حيل بينه وبينه بسبب من الاسباب يضيق[1] ذرعه[2] ويتشوش عليه وقته وتضطرب اموره ويرى انه قد طرد وابعد . ومنهم من لا يكترث بذلك ولا يبالي بـه ويرى
(74) انه قادر على العودة اليه فيما يستقبل . ومنهم من يعين لذلك زمانا او مكانا يفعله فيه كأن الامر في يده[3]. فاذا جاء ذلك الوقت او حصل في ذلك المكان صادفه وقد اعتاد الغفلة والفتور فطالب نفسه بانجاز ما وعدت والوفاء بما شرطت فلم تف بذلك ولم تنجز موعده بل سوفته الى وقت آخر وهكذا يتمادى به الامر .

وكذلك من لم يكن اخذ في شيء من العبادات والمعاملات ولكنه اذا قرع سمعه شيء من حكايات السلف وما كانوا عليه من الاحوال السنية والاعمال المرضية يسبق نظره الى ان له قوة على ذلك لو اخذ فيه ثم يقول سآخذ فيه اذا تفرغت من شغل كذا واذا[4] كنت على حال كذا ويقطع عمره بالتسويف كما ذكرناه . ومنهم من يعتقد انه مخلط لا يرى انه على شيء. اما ان يكون[5] حقيقة اعني ان يكون كذلك في نفس الامر او مجازا وهو ان يكون ذلك في اعتقاده فقط. فاذا سمع شيئا من ذلك او رأى من اتصف به يقول مثلي لا يعطى ذلك ولا يطمع ان يدركه ولا يقدر عليه . فتسخو نفسه بتركه ولا يحدث نفسه بالاخذ فيه — وجميع هذه الجهالات رايناها في انفسنا وشاهدناها في غيرنا وسبب ذلك غلبة ما ذكرناه على قلوبنا .

واما العارفون والمحققون من اهل المعاملات الباطنة فقد سلموا من هـذه الجهالات. وذلك انهم عملوا على تصحيح التوحيد اول مرة بان التزموه عقدا ثم ابتهلوا الى ربهم بالسنتهم وقلوبهم في تحقيقه لهم حالا. وحرصوا على ان يستصحبوه في احوالهم جهد استطاعتهم . فلما علم ذلك منهم رحمهم بان جعلهم لا يرون لانفسهم حولا ولا قوة فيما يأتون او يذرون[6] بل[7] تولى حفظهم وكلاءتهم وتكفل

١) إ : تضيق || ٢) إ : درعه || ٣) ر : يديـه || ٤) ر : او اذا || ٥) ق ر : — ان يكون || ٦) إ: يدرون || ٧) ر : بان ||

بمصالحهم وكفايتهم لانهم عبيده الصالحون لخدمته . وقد قال[١] تعالى : « أليس
الله بكاف عبده »[٢] — وقال تعالى : « ان ولي الله الذي نزل الكتاب وهو
يتولى الصالحين »[٣]. وقال تعالى فيما يروى عنه : وانا عند ظن عبدي بي. فسهل
عليهم الصعب ويسر عليهم العسير وارجهم وقتهم النفيس الخطير واحلهم في نعيم
وملك كبير فلا يتحركون ولا يسكنون الا به ولا يعتمدون الا عليه ولا
يرفعون همتهم[٤] الا اليه لحسن ظنهم به[٥] . وهذه هي الخاصية التي سبقت بها
هذه الامة ساير الامم . وفي بعض الاحاديث النبوية ان الله تعالى اوحى الى
عيسى عليه السلام: اني باعث بعدك امة ان اصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا
وان اصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم . فقال عيسى
عليه السلام : يا رب وكيف ذلك ولا علم ولا حلم . فقال: اعطيهم من علمي (75)
وحلمي — وبهذه الخاصية ايضا اتصفت هذه الملة المحمدية بالسماحة والسهولة وهي
وان كانت سهلة المتناول قريبة المرام فلا ينكر ايضا ما فيها من التكاليف
الشاقة . والتسهيل العام لا يكون الا بهذه المشاهدة التي ذكرناها — قال الله
عز وجل: « وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم
المسلمين من قبل وفي هذا »[٦] وملته انما هي الاسلام والتوحيد — وقال نبينا
صلى الله عليه وسلم : بعثت بالحنيفية السمحة وهي ملة ابراهيم عليه السلام .
وقال بعض العارفين[٧] في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « يسروا ولا تعسروا » :
معناه دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره فان من دلك على الدنيا فقد غشك ومن
دلك على الاعمال فقد اتعبك ومن دلك على الله فقد نصحك . والمقصود من
هذا ان تعلموا ان هذه الطايفة المذكورة يقل الغلط فيهم من هذا الوجه الذي
ذكرناه لغيبتهم عن شهود انفسهم ورؤية حولهم وقوتهم ولولا ذلك لم يكن
لهم حال ولا مقال[٨] . فاذا وقع ذلك منهم نادرا تدوركوا بالحفظ والكلاءة
فثبتوا في مقاماتهم ووقفوا على مراكزهم عناية من الله بهم. واما اهل الكذب
والدعوى فلا كلام معهم . وقد[٩] علمتم بهذا من اين وقع الغلط على هذه

١) ر : + الله ‖ ٢) قرآن : ٣٩ : ٣٧ ‖ ٣) قرآن : ٧ : ١٩٥ ‖ ٤) ف ق ر س : هممهم ‖ ٥) إ : — لحسن ظنهم به ‖ ٦) قرآن : ٢٢ : ٧٧-٧٨ ؛ إ : — وفي هذا ‖ ٧) إ ط س ط : هو سيدي ابو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ‖ ٨) ق ر س : مقام ‖ ٩) ق ر س : فقد ‖

الطوايف وبماذا سلم من سلم . وما ذاك الا بهذه الحالة العظيمة التي اختص بها عباد الله وبها صاروا اولياء الله[١] .

فاذا علمتم موقعها من الدين وانها الوسيلة الى القرب من رب العالمين وتشوفتم الى ان تترقوا الى هذا المقام الكريم وتنتظموا في سلك من آتاه الله بهذا[٢] الملك العظيم فستعلمون مما قررناه انه لا سبيل لكم[٣] اليها الا عليها ولا وسيلة لكم اليها الا بها كما قال بعضهم : عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي . ويحكى انه سيل علي بن ابي طالب رضي الله عنه وقيل له : اعرفت الله بمحمد ام عرفت محمدا بالله فقال : لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكان محمد اوثق في نفسي من الله ولكن الله عرفني نفسه بنفسه . فالان اذ ظهر لكم اتحاد المتوسل به والمتوسل اليه على وجه لا تفهم كيفيته العقول ولم تروا في ذلك تباينا ولا تغايرا[٤] فقد ظفرتم بحالة هي غاية الطالبين ونهاية رغبة الراغبين اذ لا يمكن التوسل الا بموجود حاضر قريب. فاذا كان المطلوب موجوداً عندكم وحاضرا معكم وقريبا منكم فاذا تطلبون من بعده ولماذا[٥] تتوسلون به سواه.
(76) وما مثلكم في ذلك الا كمثل رجل بيده ذرة خطيرة لا يعرف لها قدرا بل يحسبها في عداد الاحجار التي يعرفها بل لا شعور له بها وهو يشكو الضر والفقر ويتكفف للناس[٦]. فبينما هو كذلك اذ انكشف له حقيقة امرها وانه متمكن من ان ينال بها درجة الملك فلا تسأل عما هو فيه من الغبطة والسرور والنعمة والحبور . وقد قالوا : ليس العجب من السيارة حيث طلبوا الماء فوجدوا يوسف[٧] وانما العجب من مذنب طلب المغفرة فوجد الله. قال الله تعالى: « ومن يعمل سوء او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما[٨] » .

وقد قربت لكم العبارة عن هذا الامر لعلكم تفهمون. والا فهو الطف من ان تضبطه عبارة او تحمله اشارة . ولكل شيء سبب قدر الله[٩] سببيته من غير حول من العبد ولا قوة: فقد تكون معرفتكم لي[١٠] واعتقادكم اني احسن الارشاد الى ما طلبتموه وكتبتم الي بما كتبتم به وجوابي لكم على ذلك

---

١) ق ر : له ‖ ٢) إ : — بهذا ‖ ٣) إ س: اليكم ‖ ٤) ف ق ر : تباين ولا تغاير ؛ ف ط : كذا ‖ ٥) إ : وماذا ‖ ٦) ر : الناس ‖ ٧) [انظر قرآن : ١٢ : ١٩] ‖ ٨) قرآن : ٤ : ١١٠ ‖ ٩) ق ر : + تعالى ‖ ١٠) إ : — لي ‖

اسبابا في حصول مطلوبكم من غير حول منا ومنكم ولا قوة . وسترون بهذا النظر احوالكم كلها جارية هذا المجرى . ابى الله ان يرزق عبده المومن الا من حيث لا يعلم . ففيم العناء والتعب والكد والطلب . وعلى م الفرح والتأسف والندامة والتلهف: « دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين »[١] . اما علمتم ان في الله عوضا من كل فايت وخلفا من كل ذاهب[٢] . بل من وجد الله فما فقد شيئا ومن فقده فما وجد شيئا .

فهذه هي القاعدة التي بنى عليها امورهم العارفون المحققون . فكل ما يعتريكم من الوساوس والافكار وما يحجبكم عن نيل المراد وقضاء الاوطار فانما ذلك لما غاب عنكم من هذا التحقيق . فاذا فتح الله عليكم في فهم ما ذكرناه واخذتم به انفسكم ان تكونوا عليه في مواردكم ومصادركم كانت عندكم عبادات مسرمدة وقربات مؤبدة لا يتخللها[٣] فتور ولا ملل من غير تعب منكم ولا نصب . وهذه هي الغنيمة الباردة والتجارة الرابحة والمزيد الذي اوجبه الشكر الذي انعم به عليكم من رؤيتكم الاشياء بالله ومن الله فطوبى لكم اذ ذاك وحسن مآب

فتلقوا يا اخي ما قلناه لكم بحسن القبول وقدموه على كل معقول ومنقول واعلموا ان العقل لا يدركه والنقل لا يصرح به بل هو من العلوم اللدنية التي اودعها الله في غيابات القلوب. وقد روي ان في بعض الكتب المنزلة على بعض انبياء بني اسرائيل : لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به ولا في الارض من

(77) يصعد به ولا في البحر من يعبر به العلم مجعول في صدوركم موضوع في قلوبكم فتادبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا باخلاق النبيين الربانيين . اظهر العلم من قلوبكم على ألسنتكم حتى يعمكم ويغمركم . فهذا ما اردنا ان نذكره لكم بين يدي التكلم على احوالكم ليكون اصلا ثابتا يرجع اليه واساسا يبنى عليه .

اما ما ذكرتموه من ترتيب احوالكم في ليلكم ونهاركم فذلك كله حسن ينبغي لكم ان تشكروا الله تعالى على هدايتكم[٤] اليه واستعمالكم فيه . فان

١) قرآن : ٣٧ : ٨٤ – ٨٥ ‖ ٢) س : هالك ‖ ٣) إ : تتخللها ‖ ٤) إ س : هداكم ‖

جميع ذلك قرب الى الله عز وجل قل من يظفر بها . وانما تدخل عليكم الوسوسة في ذلك والتشويش منه حتى لا تجدوا له حلاوة ولا رايتم عليه طلاوة من قبل انكم فاقدون للمشاهدة المذكورة غافلون عنها . فلو اعرضتم عن نظركم الى انفسكم في ان تروا لها حولا او[1] قوة او تنيلوها حظا وشاهدتم انفراد الله تعالى بتدبير امركم وحسنتم الظن به لرأيتم من نعمة الله تعالى عليكم وضروب تخصيصاته لكم ما يذهلكم عن تطلب امر وراء ذلك وان[2] تصغوا بهممكم اليه. ومبدأ ذلك — اعني ما ظهر لنا من النعم — ان اخرجكم من ظلمة العدم الى نور الوجود ثم غذاكم بلطفه ورباكم بجنانه وعطفه[3] الى ان عقلتم وفهمتم . ثم حلاكم بحلية الاسلام والايمان وتعرف لكم بواضح[4] البرهان وجعلكم من حملة كتابه وواجهكم بكريم خطابه وجعلكم محلا لظهور صفاته واسمايه واهلا لقبول تكاليفه وتصديق انبيايه. ثم استعملكم في التعلم والتعليم ورقاكم الى هذا المنصب العظيم الى غير ذلك من انواع النعم الظاهرة وما غاب عنا وعنكم اكثر. كل ذلك من غير وسيلة منكم ولا استحقاق بل بمحض كرمه وفضله . وفي كل واحدة من هذه النعم نعم لا تحصى نفعا ودفعا : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها »[5] . فمن شاهد هذه النعم ورأى نفسه فيها طفيليا استغرقه الفرح بها والشكر عليها ومنعه ذلك من التشوف الى ما لم يوته الله تعالى وربما[6] يكون فيه هلاكه ولا يشعر بذلك . ولا شيء احب الى الله تعالى من قيام العبد بحكم حاله التي هو عليها فبذلك تظهر عبوديته ويتحقق ادبه . قال عمرو[7] بن عثمان المكي رضي الله[8] عنه: التصوف ان يكون العبد في كل وقت بما هو اولى به في الوقت . ونعني بذلك ان يكون العبد حاضرا مع ربه عز وجل في ذلك قايما بحقوق الشرع فيه . وكيفية حضوره مع ربه هو ما ذكرناه من معاملات اهل التوحيد . وكيفية قيامه بحقوق الشرع يتبع ما رسمه علماء الظاهر في المسايل الفقهية فان قدر على العمل بما اتفقوا عليه
(78) من غير حرج ولا ضيق صدر فقد حاز اعلى مرتبة في التقوى والورع ونال درجة المتقين والورعين والا اخذ بالخلاف بعد ان يتقن علم ذلك على اربابه لان

١) ق : و ‖ ٢) ق : او ‖ ٣) إ : ولطفه ‖ ٤) ق : بوضائح ‖ ٥) قرآن : ١٤ : ٣٧ ‖ ٦) إ : وما ‖ ٧) إ : عمر ‖ ٨) ر : + تعالى ‖

اختلاف العلماء رحمة في مثل هذا ولولا ذلك لهلك اكثر الناس. والامر في هذا قريب لمن نصح نفسه واقتصر من الدنيا على اليسير ولم يسترقه بطنه ولا فرجه وانما يصعب الامر على المتوسع في الدنيا ومن تدخل عليه من وجوه كثيرة . فمثل هذا لا يسلم من ارتكاب مساخط الله تعالى بجهله وغفلته . ومن تشعبت به همومه في اودية الدنيا لم يبال الله تعالى في اي اوديتها هلك .

ولا شك ان تعليمكم[1] الاولاد من افضل القرب الى الله تعالى. ولكن اخذكم الاجرة على ذلك مما اختلف فيه العلماء . الا ان اكثرهم على جوازه فما اخذتموه ممن يرضى كسبه او هو مجهول لا يدرى حاله فهو حلال . فان اضفتم الى ذلك ان لا تستقصوا في طلب الاجرة منهم وتأخذون ما عفى وكانت همتكم في مراعاة تعليمهم تقربا الى الله تعالى فقط كان ذلك حسنا منكم وقد مضى عليه ناس صالحون عملهم مثل عملكم . وهو الذي اشار اليه ابن العريف فيما حكيتموه عنه . وعلامة صدقكم في ذلك ان لا تميل قلوبكم الى من يعطيكم اكثر من ميلها الى من لا يعطيكم او يعطيكم التافه اليسير ولا تحبون بقاءه عندكم اكثر من بقاء غيره .

فهذه هي العلامة القاطعة فيما ذكرناه . وتستعينون على هذه الحالة بان[2] تعلموا ان رزقكم لا بد ان يصلكم[3] حتما وان الحرص لا يزيد فيه وعدمه لا ينقص منه . وان رزق الاخرة هو الذي ينبغي ان يحرص عليه ويبذل المجهود في طلبه — « ورزق ربك خير وابقى »[4] — . ثم انتم متمكنون من هذا فلمَ تفرطون فيه . وما اخذتموه على[5] هذا الوجه يبارك لكم فيه حتى يكون الدرهم الواحد يقوم مقام[6] ماية الف درهم. فان تحققتم بما ذكرناه اولا من المشاهدات التوحيدية كفاكم ذلك في حصول هذا الطلب[7] وغيره ويبقى عليكم النظر في وجه سياسة الاولاد وتأديبهم على اختلاف اطوارهم . فان منهم الذكي والغبي والقريب والاجنبي والشريف والدني والفقير والغني الى غير ذلك من اختلاف احوالهم . وكل واحد منهم يقتضي منكم حقا توفوه له ولا تبخسوه شيئا . وانما تقدرون على ذلك بان تكون فيكم اربع خصال : ايمان راسخ وذهن ثاقب وعلم (79)

١) ق : تعليم || ٢) إ : ان || ٣) ف ر س : يصل اليكم || ٤) قرآن : ٢٠ : ١٣١ || ٥) إ س : — هذا . . . على || ٦) ق : — مقام || ٧) ق ر : المطلب ||

متين وخلق حسن فباستكمال هذه الاربعة فيكم تقدرون على ان تنزلوا كل واحد في منزلته وتعاملوه بالمعاملة اللايقة به . فان لم تستوفوا ذلك فاسلكوا سبيل الاحتياط والمسامحة ما امكن : فلأن تخطئوا في العفو خير من ان تخطئوا[1] في العقوبة . وهذا كله فقه حالي لا سبيل الى ضبطه .

اما ما ذكرتموه من انكم اذا تلوتم القرآن لا تجدون رقة وربما طلبتم انفسكم بالبكاء فلا تبكون فانما سبب ذلك غفلتكم حين قراءتكم عمن هو كلامه وعلى من انزل وفيم انزل. وكيف يجيئكم البكاء واسبابه ضعيفة عندكم . وقد وصف الله تعالى[2] الواجدين لذلك عند تلاوة القرآن بصفات جليلة فقال تعالى : « ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا »[3] . فوصفهم اولا بايتاء العلم وبالمعرفة[4] بالله تعالى حيث نزهوه وعظموه بقولهم « سبحان ربنا » . وبغاية عبوديتهم له بخرورهم للاذقان سجدا وبيقينهم بالدار الاخرة والجزاء فيها بالثواب والعقاب . ثم وصفهم بالبكاء والخشوع وقال تعالى : « واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق »[5] الى آخر الايات فيهم . فوصفهم بمعرفة الحق والايمان به والالجا الى الله تعالى والافتقار اليه والطمع في القرب منه والاحسان في معاملته. وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاحسان » في الحديث الصحيح بقوله : ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . وهذا كله راجع الى المشاهدات المذكورة. فاجعلوها من بالكم وابنوا عليها صالحات اعمالكم تحمدون عاقبتها في حالكم ومالكم كما ذكرناه لكم . وما يتيسر عليكم من التلاوة بانشراح من صدوركم فذلك نعمة عظيمة كان في ذلك رقة او لم يكن .

واما ما ذكرتموه من انكم خايفون من الموت ان ياتيكم على ما انتم عليه من الاحوال فذلك شيء حسن وهو من نعم الله تعالى عليكم فاشكروا الله عليه وسلوه المزيد منه لانه من اقيم في مقام الخوف كان عاقبته الامن - يقول الله

---

١) ف خ س خ : تصيبوا ‖ ٢) ر : — تعالى ‖ ٣) قرآن : ١٧ : ١٠٨ — ١٠٩ ‖ ٤) ر : والمعرفة ‖ ٥) قرآن : ٥ : ٨٦ ‖

تعالى فيما يروى عنه : لا اجمع عـلى عبدي خوفين ولا أمنين . من خافني في الدنيا امنته في الاخرة ومن امنني في الدنيا اخفته في الاخرة — ولانه ايضا من
(80) صفات العلماء بالله واهل رضوانه : قال الله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء »[١] — وقال تعالى: « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه »[٢]. واحسن من ذلك الخوف ان تخافوا ان تلقوا ربكم وانتم تريدون غير ما اراده بكم مما فيه صلاحكم .

واما توهمكم ان ذلك يوديكم الى القنوط فذلك توهم باطل لان الرجاء يمنع منه . والخوف والرجاء من مقامات العلماء العارفين[٣] والامن من مكر الله والقنوط من رحمة الله من صفات الجاهلين الغافلين . وسبب غفلتهم وجهلهم رؤيتهم لانفسهم في اعمالهم الحسنة او السيئة . ولو نظروا الى الواحد الاحد لاستوت الاحوال عندهم ولكانوا موصوفين بالخوف الذي يصحبه الرجاء وبالرجاء الذي يلازمه الخوف . فاعلموا ذلك واعملوا بـه ولا تنظروا الى[٤] اعمالكم فتقعون فيما وقعوا فيه والعياذ بالله .

واما ما ذكرتموه[٥] من انكم اذا اخذتم في شيء من اعمال البر لا تدومون عليه بل تكسلون عنه وتتركونه لشغلكم بالمسيد والاهل حسبما ظهر لي من كلامكم فانما ذلك لفقدانكم المشاهدات[٦] المذكورة. فلو كنتم متحققين بها ثم اعتراكم الفتور والكسل[٧] عنها نادرا باس من الامور لكانت لكم معاملات اخر تقوم مقامها بل تزيد عليها من غير ان يدخل عليكم تلبيس او غرور . ولو جرت الامور على وفق ارادتكم ربما لا تأمنون ذلك فيها . فثقوا بربكم وحسنوا به الظن فهو اعلم بالمصالح منكم . وقد روي عن ابراهيم ابن ادهم رضي الله عنه[٨] انه قال : نمت ليلة عن وردي فاستيقظت فندمت فنمت بعد ذلك ثلاثة ايام عن الفرايض فلما استيقظت سمعت هاتفا يقول :

كُلُّ شَيءٍ لَكَ مَغْفُورٌ سِوَى الإِعْرَاضِ عَنَّا
قَدْ وَهَبْنَا لَكَ مَا فَاتَ بَقِيَ مَا فَاتَ مِنَّا

١) قرآن : ٣٥ : ٢٥ ‖ ٢) قرآن : ٩٨ : ٨ ‖ ٣) ق : والعارفين ‖ ٤) ر : — الى ‖ ٥) ق ر : ذكرتم ‖ ٦) ق : المشاهدة ‖ ٧) ر : الكسول ‖ ٨) ق : — رضي الله عنه ‖

ثم قيل لي يا ابراهيم كن عبدا فكنت عبدا لله فاسترحت . ومع هذا فما فتح عليكم به[1] من العبادات[2] وان قلّت فاشكروا الله عليها فانها لا تضيع عنده . وقد قال سيدى ابو العباس المرسي : قليل العمل مع شهود المنة من الله تعالى خير من كثير العمل مع رؤية التقصير من النفس .

(81) واما ما ذكرتموه من الوسوسة التي كانت تعتريكم وبقي عليكم منها بقية فاعلموا ان ذلك من البلايا التي يبتلي الله بها بعض عباده ويختص بذلك اهل[3] الدين منهم . فلا يزال العدو يلقي الوساوس في قلب الواحد منهم حتى يوقعه اما في البدعة او الكفر او اختلال العقل . واقل ما يصيبه به ان ينغّص عليه عيشه ويمنعه وجدان راحته . وكل ذلك بقضاء وقدر فنعوذ بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء وشماتة الاعداء .

وسبب ذلك فقدانهم للمشاهدات المذكورة . فلو تحققوا بذلك[4] لم يجد الشيطان سبيلا اليهم لانهم عباد الله حقا . وقد قال تعالى: «ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعوا حزبه ليكونوا من اصحاب السعير »[5]. وقال تعالى: « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان »[6] . فان وسوس اليهم رجعوا الى ربهم فصرفه عنهم واستعاذوا به فاعاذهم . قال الله تعالى : « ان الذين اتقوا اذا مسهم طايف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »[7]—وقال تعالى : « واما ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم »[8] .

فان قلت: كيف يكون ذلك من الشيطان وهو فيما يظهر دعاء الى تصحيح الدين والحصول منه على اليقين وكيف يفرق بين الوسوسة المذمومة والخاطر المحمود في ذلك وهما متشابهان. فاعلم ان كون ذلك من الشيطان صحيح وانما ذلك لمخالفته للعلم ومضادته للتسهيل والتيسير والسماحة التي اتصف بها هذا الدين كما سبق فكان ذلك غلو وبدعة . وهذا هو الفرق بينه وبين الخاطر المحمود لان الخاطر المحمود لا يدعو الا الى موافقة العلم . والوسوسة ايضا من شانها الا تزول ولو احسن العبد في عمله ووافق السنة . والخاطر قد يزول اذا

---

١) إ : — به || ٢) ر س : العبادة || ٣) ق ر س: ذلك باهل || ٤) س: ذلك || ٥) قرآن : ٣٥ : ٦ || ٦) قرآن : ١٥ : ٤٢ || ٧) قرآن : ٧ : ٢٠٠ || ٨) قرآن : ٤١ : ٣٦ ||

احسن . وهي علة لا داوء لها الا الالغاء عنها واتباع ظاهر العلم والرغبة الى الله تعالى في زوالها . وملاك هذا كله التحقق[١] بالمشاهــدات المذكورة اول الكتاب فذلك هو الاكسير الذي يقلب اعيان الاشياء وينتسخ الظلمة بالضياء والاماتة بالاحياء. رزقنا الله منها[٢] ما رزق اولياءه بمنه وكرمه . وقد روي عن بعضهم انه قيل له ان فلانا يعتريه الوسواس فقال : عهدى بالصوفيــة يسخرون بالشيطان والآن الشيطان يسخر بهم . وكان سيدى ابو العباس المرسي رضي الله
(82) عنه شديد الكراهة للوسواس[٣] في الصلاة والطهارة ويثقل عليه شهود من كان ذلك وصفه . وقيل له يوما ان فلانا[٤] صاحب علم وصلاح وهو كثير الوسواس فقال : واين العلم والصلاح يا فلان العلم هو الذي ينطبع فى القلب كالبياض في الابيض والسواد في الاسود .

واما ما ذكرتم من انكم في بعض الاوقات تطالعون بعض الكتب من غير تعيين كتاب او فن واحد فذلك حسن واحسن منه لو اشتغلتم بتقديم الاهم فالاهم ، والاهم انما هو ما تستفيدون به مزيد حضور ومراقبة ككتاب[٥] ابن عطاء وغيره.

اما ما ذكرتم من انكم تشتغلون بالتجويــد في بعض الايام فذلك حسن بشرط الا تعملوا بما اعتاده[٦] الناس من غفلتهم عنــد ذلك ومراءاتهم لاصلاح ألسنتهم ومبالغتهم في اخراج الحروف من مخارجها مع الغفلة عن معاني مـــا يقرءون . فتكونوا ضحكـــة للشيطان . واحسن من ذلك لو إلتمستم رجلا له بصيرة في علم اليقين تجلسون اليه وتستفيدون منه وما اعز هذا في الوجود .

واما ما ذكرتم من ان اخي محمد بن اديبة رحمه الله ورضي عنه كان اشار عليكم بمطالعة الاحياء لابي حامد الغزالي فذلك رأى حسن لان الكلام فيه مبسوط مهذب قل ان يوجد في غيره . الا اني لا ارى ان[٧] تقرأوا منه الا ما يشتمل على عبادة او معاملة. واما ما يذكر فيه انه من علم المكاشفة او ما لا يتعلق به عمل فان قرأتموه فلا تشغلوا همكم[٨] به اذ لا فايدة لكم فيه . واكثر هذا انما هو في ربع المنجيات واما الربعان الاولان[٩] فاكثر ما فيها فقه

---

١) إ : التحقيق ‖ ٢) س : منه ‖ ٣) ف : للوسوسة ‖ ٤) ف ق ر س : فلان (— ان) ‖ ٥) رس : ككتب ‖ ٦) ف خ : + بعض ‖ ٧) س : اني ارى ان لا ؛ ر : الا ارى ان ‖ ٨) ق ر س : همكم ‖ ٩) إ ف ق : الربعين الاولين . كذا ‖

وهو فيه امام متفق عليه . واما الربع الثالث فاكثر ما فيه منقول من كتاب الرعاية مع زيادة تهذيب وتحرير وفيه زيادات كثيرة مفيدة . فهذا ما عندى فيه. واذا طالعتم كتابا اى كتاب كان فلترفعوا هممكم في ذلك الى الله تعالى[1] في ان يفهمكم ما هو الحق من غير اعتماد على عقلكم ولتقدموا بين يدي ذلك الاستخارة فان ذلك ادنى الى اجابة الحق والظفر به. وقد نبه على هذا السهروردي في كتاب عوارف المعارف اعنى تقديم الاستخارة على مطالعة الكتب .

والذي اوصيكم به اولا وآخرا ان لا تغفلوا عما ذكرناه لكم تصريحا او تلويحا من المشاهدات التوحيدية والمنازلات اليقينية وقد كررناها عليكم كذا كذا[2] مرة
(83) وبنينا مسايلكم عليها مسئلة مسئلة الا ما غفلنا عنه منها حين الكتب وان تعولوا عليه وتركنوا اليه وتلتمسوه من مظانه وعند اهله فهو بحمد الله لباب اللباب والعلق النفيس الذي يتنافس فيه اولوا الالباب. واقل ما تستفيدون به في دنياكم الراحة من شرورها وكروبها والاستغناء بالنعيم المعجل فيها عن التقيد بعاداتها والتعبد لاربابها . وفي الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كفى باليقين غنى . واذا كان ارباب الدنيا المتشاغلون بها اذا اعتراهم الهم والغم فيها ومنعهم ذلك عما هم بسبيله من التمتع والتنعم بها يحرصون على ازالة ذلك عنهم بما يمكنهم من الاسباب وبما يكسبهم الروح والفرح فيها فتراهم عاكفين على شرب الخمر في المتنزّهات والبساتين وعلى سماع النغم الموزنة من انفسهم ومن غيرهم وسماع اصوات الطيور وآلات الطرب وانواع الملاهي كما قال بعض الشعراء :

إِصرِفْ بِصَرْفِ الرَّاحِ عَنْكَ الأَسى وَرَوِّحِ القَلْبَ وَلَا تَكْتَئِبِ
وَقُلْ لِمَنْ لَامَكَ فِيمَا بِهِ تَدْفَعُ عَنْكَ الهَمَّ قَدْكَ إِتَّئِبِ

مع ان هذه الاشياء لا اصل لها في الحصول على ما طلبوه بل ربما اعقبهم ذلك في دنياهم انواعا من الكروب والغصص التي لا يرضى بها عاقل فضلا عما يورثهم ذلك في اخراهم ، فبأنْ يحرص طالب الاخرة على ما يزيل غمه وهمه في الدنيا ليستقيم فيها على العبودية لربه عز وجل والتلذذ بمناجاته اولى واحرى . وليس ذلك الا بهذه المعارف التي ذكرناها . وفي بعض الاحاديث : روحوا

١) ق : – تعالى || ٢) ر : وكذا ||

القلوب ساعة بساعة . وقال بعض العارفين : طيبوا حياتكم بالسكون الى مجارى الاقدار ولا تنغصوها بالاضطراب عند وقوعها فتتعبوا . وقال بعضهم : الرضى باب الله الاعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين .

فهذا ما حضرني من[1] الكلام على مسايلكم واظنه موافقا لما طلبتم. والله تعالى ولي التوفيق لي ولكم الى ما يحبه ويرضاه. والسلام عليكم وعلى جميع اصحابنا ورحمة الله وبركاته .

---

١) إ : + هذا ||

[الرسالة العاشرة]

كتاب[1] تضمن الجواب عن مسئلة رجل معلم للاولاد وذكر امور مفيدة يعتمدها في تعليمهم وكيف تندفع الوسوسة عنـــه في ذلك .

الحمد لله[2] . اسلم عليكم كثيرا واعرفكم بانه وصلتني منكم براءة وانتم تطلبون فيها نصيحة تتضمن الدلالة على وجه الخلاص مما انتم بسبيله ممـا اعتراكم من الحيرة والوسوسة وعدم الرقة وغلبتها عليكم. فاعلم ان هذه الاحوال امراض قلبية حدثت عن اسباب موجبة لها . فلابد من معرفة اسبابها وطريق علاجها .

اما الحيرة التي ذكرتم انها تعتريكم بسبب الاولاد وضيق اخلاقكم في ذلك فسببه غفلتكم عما انتم عليه من النعم الظاهرة والباطنة وخفاؤهـا عليكم . وعلاجه حسن التيقظ والتذكار لها .ويكفيكم في ذلك معرفة امور ثلاثة وتقريرها في كل حين على انفسكم حتى لا يغرب تذكرها عنكم :

. الامر الاول معرفة النعمة العظيمة عليك في اقامة الحق تعالى اياك في التعليم وجعله فيك اهلية لهذا المنصب العظيم من غير استحقاق منك ولا وسيلة سابقة لك وهي درجة الانبياء[3] والعلماء . وتستعين على تحصيل هذه المعرفة بطالعة ما ورد في فضل التعليم من الاخبار والاثار والبحث عنها في مواطنهـا فهي كثيرة جدا . فتستفيد بهذه المعرفة مزيد[4] تواضع لربك وحياء منه[5] يحملك على اتباع مرضاته في جميع احوالك .

الامر الثاني معرفة النعمة الجزيلة في توفيقك للتعرض لمـا فيه قهر نفسك ومخالفة حظك بسبب التعليم: وذلك من قبل استغراق اوقاتك فيه وعدم تفرغك لما فيه وجود هواك ومخالفة مولاك ومكابدة اخلاق الصبيان ومداراتهم واحتمالهم والقيام بمؤنة نصحهم وتعليمهم الى غير ذلك من وظايف المعلمين اللازمة لهم .

---

١) س : وله ايضاً رضي الله عنه كتاب تضمن امورًا مفيدة يعتمدهـا معلم الاولاد في تعليمه وكيف تندفع عنه الوسوسة في ذلك || ٢) ف ر س : + وحده || ٣) ف ر س: + عليهم السلام || ٤) إ : فريد || ٥) إ : منك ||

وفي ذلك كله فوايـد جليلة[1] لا غنى لكل سالك لطريق الاخرة عن تعاطي مثلها لتتهذب نفسه وترتاض خلقه. وقد ساقها ربك اليك على وجه سديد وطريق حميد. فتستفيد بهذه المعرفة حالا تحملك على حسن الصبر والقيام بواجب الشكر.

(85) الامر الثالث معرفة النعمة السابقة فيما تهيأ لك بسببه من مرافق الدنيــا واستغنايك بذلك عن الدخول في المداخل المذمومــة والتعرض لانواع الفتن والمحن التي يتصدى لهــا طلاب الدنيا في انواع اكتساباتهم وتسبباتهم لا سيما الطلبة. فتستفيد بهذه المعرفة حالا تحملكم على الرضى بالمقدور والقناعة بالميسور.

فاذا احكمت معرفة هذه الانواع الثلاثة من النعم وواظبت[2] على تذكارها وتكرارها اعقبك ذلك باذن ربنا عز وجل فرحا واستبشارا[3] لنعم ربك واندفع عنك بسبب ذلك[4] ضيق الصدر وسوء الخلق. وقرت[5] عينيك بحالك وقدرت بعد ذلك على اقامة حق ربك مع من تعلمه بالرافة[6] والرحمة والشفقة والنصيحة والرفق وحسن السياسة والمدارات الى غير ذلك من الاحوال النافعــة للمعلم والمتعلم. وربنا عز وجل ولي الهداية لك ولهم من قبل ومن بعد.

واكد ما ينبغي للمعلم ان تكون همته كلها مصروفة الى الرغبة الى الرب تعالى في هدايتهم وتوفيقهم وان يعتقد انه انفع له ولهم من كل ما يتعاطاه في حال تعليمهم من فعل او قول. فاعلم هذا[7] كله واعمل بــه تجد بركته ان شاء ربنا عز وجل.

واما الوسوسة التي تعتريك في جميع احوالك فسببها الجهل والغفلة ودواؤها بالعلم والذكر. ونعني بالعلم والذكر العلم بالحق تعالى والذكر له. واستعن على تحصيلها[8] بمجالسة الصالحين ومخالطة المتقين وموالاة الذكر بالقلب واللسان لرب العالمين فلا دواء لها غير هذا.

واما عدم الرقة التي تعتريكم في الصلاة والتلاوة فذلك نوع قسوة وسببها احد امرين او كلاهما: اما ارتكاب ذنب او ميل الى عاجل حظ وعلى حسب هذين المعنيين في الكثرة والقلة والضعف والقوة تكون القسوة وعدم الرقة. ودواؤها التوبة الصادقة والزهد التام ومحاسبة النفس ومراقبة الخواطر وسد مداخل الشيطان الى القلب.

---

١) س : جزيـلة ؛ خ : جليلة ‖ ٢) إ : وواضبت ‖ ٣) إ ق : فرح واستبشار ‖
٤) س : بذلك ؛ خ : بسبب ذلك ‖ ٥) إ ق ر : وقر ‖ ٦) ف ق ر س : — بالرافة ‖
٧) س : ذلك ‖ ٨) ف ر س : تحصيلها ؛ ف خ : تحصيلها ‖

وليكن لك مع هذا ورد من الاستغفار بالاسحار وفي ساير الاوقات الموجو فيها فضل الملك الغفار. فذلك مصقلة للقلوب وممحاة للذنوب ومرضاة لعلام الغيوب.

وليكن لك ايضاً كيفية من الصلاة على رسول الله وصلى الله عليه وسلّم[١] وورد منها فذلك من افضل ما يتوسل[٢] به المتوسلون الى مطالبهم .

وربنا عز وجل ولي التوفيق والهداية وهو حسبنا ونعم الحسيب[٣] . فهذا[٤] ما اردنا ذكره على حسب ما طلبتموه[٥] والسلام عليكم والرحمة والبركة .

---

١) ف س : عـلى النبي عليه الصلاة والسلام ‖ ٢) [كذا . ولعله « يتوصل »] ‖ ٣) ق : الوكيل ‖ ٤) إ : – فهذا ‖ ٥) ر : ذكرتموه ‖

[الرسالة الحادية عشرة]

كتاب[1] تضمن الجواب فيما ياخذه المعلم من الاجرة
على تعليم الاولاد وكيف تندفع الوسوسة عنه في ذلك

الحمد لله وحده . اسلم عليكم واعرفكم بانــه وصلنا كتابكم وانتم تذكرون فيه حالكم مع الاولاد وكراهتكم لها إما لما[2] ذكرتم من انكم خفتم على انفسكم من القنوط لرؤيتكم عدم الخلاص في ذلك وإما لما خفتم من اقتحام الشبهات والعمل عــلى الخلاف فيما تأخذونه من الاجرة من بعضهم وطلبتم فيه منا التعريف بما يظهر لنا في ذلك فاقول :

اما الحال الاولى[3] فانتم بها اعلم لان الشاهد يرى ما لا يرى الغــايب . فانظروا في ذلك بعين البصيرة وتاملوا حالكم. فان تحققتم وقوع اسباب ذلك ولم تقدروا على القيام بالواجب فيه فاعملوا على حسب ذلك واتركوا التعليم راسا حتى يرزقكم ربكم قوة تقدرون بها على ان تخلصوا اعمالكم من الآفــات القادحة فيها . وان قدرتم على مجاهدة انفسكم في ذلك فحسن ولكم الاجر الجزيل فيه . وان كان ذلك وسوسة منكم لا تستند الى تحقيق فارفضوهــا جهدكم قبل ان تستولي عليكم فان متابعة الوساوس[4] والوقوف مع الخيالات مفسدة للدين والعقل والمعيشة . وهذا امر مجرب وعلى الجملة فحالكم في هذا الامر لا يخفى عليكم .

واما الحال الثانية وهي خوفكم من اقتحام الشبهات والعمل على الخلاف وانتهاء الامر بكم الى ان حدثتم انفسكم بمفارقة اهلكم[5] بسبب ذلك فلا اشك في ان ذلك وسوسة ولعل عدوكم اراد ان يوقعكم بهــا فيما هو اعظم ضررا من ذلك . لان ما حدثتم به انفسكم لم يثبت عن احــد ممن سلف[6]

---

١) س : وله ايضاً رضي الله عنه كتاب تضمن ما يأخذه المعلم من الاجرة على تعليم الاولاد وكيفية اندفاع الوسوسة || ٢) إ : ما || ٣) ق : الاول || ٤) ف ر : الوسواس؛ ف خ : الوساوس || ٥) س : اهليكم || ٦) إ : احدهم سلف ||

وخلف من اهل العلم والدين انه فعله او امر بــه تحصيلا لذلك الغرض الذي رمتموه . فعدم ثبوت ذلك عنهم دليل على انه لا خير فيــه بل الثابت عنهم انهم نصحوا لربهم عز وجل في انفسهم وفي غيرهم وقاموا بحقــه فيها في حال ضروراتهم[١] واختيارهم ووفوا واجب الشرع وسلكوا سبيل الورع. فان اردتم الاقتداء بهم وسلوك مسالكهم فخذوا ما تهيأ لكم من الحلال المتفق عليه في المذهب واجعلوه في مهاتكم المعتبرة شرعا . فان وفى بذلك ورزقتم قناعة وانتصارا عليه وعلمتم قدر النعمة عليكم به فذلك غاية الكمال في حقكم . والا فلا
(87) جناح عليكم في[٢] ان تأخذوا كفايتكم بما اختلفوا فيه سالكين في ذلــك سبيل التحري والاحتياط مجانبين للتوسع والرفاهية آخذين له على وجه المسكنة والحاجة فاذا فعلتم ذلك خرجتم عن شبهة الخلاف ولم تأخذوا بواحــد من الاقوال[٣] الثلاثة .

فان جمحت بكم نفوسكم الى مقتضى العادات ودعتكم الى التوسع في الشهوات والتقحم في اكتساب الشبهات والاخذ بالرخص في عموم الحــالات لا على الوجه الذي ذكرناه فانتم ملومون ومذمومون لا على عدم فراقكم الاهل[٤] ولا[٥] على العمل على اختلاف العلمــاء لكن على ترك مجاهدتكم لانفسكم واسترسالكم على مقتضيات طباعكم . ومن ها هنا تعلم انه لا يوتى عــلى الانسان الا من قبل نفسه. فمن رزقه ربه توفيقا يقدر به على مجاهدتها والفرار من دواعيها ومرن على ذلك وتمكن فيه كانت افعاله واحواله جارية على السداد محفوظة من الفساد. وهذا هو الاصل الذي تجب مراعاته . فليكن العمل بذلك اهم عليكم من الوسوسة في الاخذ بالخلاف الا ان وجدتم من الاسباب المتفق عليها ما يفي بقوتكم اما على انفراده او باضافته الى مثله مــا ينض[٦] لكم في التعليم على مقتضى المذهب فلا عذر لكم اذ ذاك في الاخذ بالخلاف على مذهب الورعين. وقد يسعكم ذلك على غير مذهبهم[٧]. وهذا ما ظهر لي في مسألتكم وربنا عز وجل هو[٨] ولي التوفيق لنا ولكم الى ما يحبه ويرضاه لا رب غيره ولا معبود سواه والسلام عليكم .

---

١) ق: ضرورتهم ‖ ٢) ف : — في ‖ ٣) إ : الاموال ‖ ٤) ف ق ر س: للاهل ‖
٥) ق : — ولا ‖ ٦) إ : ينص ‖ ٧) إ : مذهبكم ‖ ٨) ف ق ر س : — هو ‖

[الرسالة الثانية عشرة]

كتاب[1] تضمن شيئاً من الكلام على رواية الحديث وترويته[2] وما شرط[3] ذلك وفيه زيادات اخر[4] مفيدة

الحمد لله وحده . اسلم عليكم واعرفكم بانه وصلنا كتابكم وتعرفنا منه ما تضمنه من السؤال عن رواية القرآن والحديث عمّن اتصف بصفات ذكرتموها فيه وترويتها[5] على ذلك الوجه هل يجوز ذلك[6] ام لا.

فاعلم يا اخي ان هاتين المسئلتين من المسايل الفقهية وكذلك ما ذكرتموه في البراءة التي كنتم رفعتموها لي من السؤال عما يحتاج اليه معلم الصبيان وكيف يكون حاله معهم على اختلاف احوالهم في النباهة والبلادة وما ذكرتموه فيها عن ابن العريف في اخذ الاجرة على تعليمهم مع كونه لم يقصدها — كل ذلك مسايل فقهية لم ابتل بها فيما تقدم حتى يقع مني من البحث ومطالعة الكتب وسؤال العلماء ما يحصل لي من علم ذلك واتعرف من احكامه ما يحتاج اليه . ولا ايضا عندى الآن من اتساع الخاطر وقوته ما يحملني على استيناف[7] النظر في ذلك وانهايه الى غايته. وفي بلدكم من تأخذون في ذلك معه وعنده علمه . وبعض تلك المسايل انتم غير مضطرين[8] اليها .

فرأيت مع هذا كله الاخذ في ذلك من التكلف المنهى عنه ومن الاشتغال بما لا يعني بالنسبة الى الحال والوقت فاقبلوا العذر في ذلك. على ان الذي اراه واعتقده في مسئلة الرواية ان الراوي والمروى عنه اذا لم يطلبا بعملها ذلك حظا عاجلا وكان المروى عنه ضابطا لما يرويه ويرويّه متصفا بالعدالة التي ذكرها اهل الحديث فان عملها في ذلك مبرور وسعيها مشكور لكونها قاما بفرض من فروض الكفاية . اذ الاسناد من الدين حسبما ذكره العلماء . وان اختل احد

---

١) س : وله ايضاً رضي الله عنه ونفع به كتاب . . . ‖ ٢) س : — وترويته ؛ خد: وترويته ‖ ٣) س: + في ‖ ٤) س: — اخر ‖ ٥) ف : وترويتها . ط: لعله « وترويتها » بضمير التثنية ‖ ٦) ر : — ذلك ‖ ٧) س : استيفاء ‖ ٨) إ : مضطرون ‖

تلك الاوصاف كان عملها باطلا لفقد[١] الاخلاص في ذلك وعدم سلوك سبيل الصواب فيه . وهو شأن اكثر قراء هذا الزمان الا من عصم الله[٢] .

واما باقي المسايل التي ذكرتموها من غير المسايل الفقهية فانها تنقسم الى قسمين : احدهما سؤال عن اشياء ما هي كقولكم : وان تحد لي هذه الامور المهلكة كالكبر والرياء والعجب والغضب والحقد والحسد وغير ذلك — والثاني سؤالكم عما تصلح به احوالكم في دينكم كقولكم اريد منكم ان توصوني[٣] بما يكون فيه صلاح ديني . وكقولكم : وان تنبهني على[٤] امور مهمات في الدين مما يتعلق بظاهر العبد وباطنه وان تنبهني على افضل الاعمال الصالحة[٥] بعد الواجبات . (89)

اما الاول فقد اغنانا عن الجواب فيه[٦] من تقدمنا من العلماء وخصوصا المحاسبي فطالعوه وتأملوه تجدوا الشفاء فيه .

واما الثاني فلا يستقيم الجواب فيه الا بالامور الجلية والامور الجملية معلومة لكم فلا يفي ذكرها بغرضكم — واما الامور التفصيلية فانها مبنية على معرفتي باحوالكم كلها في ظاهركم وباطنكم . ولا سبيل لي[٧] الى تعرف ذلك الا من جهتكم اما باعلام منكم او بمخالطة طويلة مني لكم ولم يقع شيء من ذلك فكيف يستقيم الجواب المقنع النافع مع هذا بل يكون الاخذ في ذلك رميا في عماية . بل الذي ينصح لنفسه ويسال عما يضطر اليه ينبغي له ان يذكر حاله فيما بينه وبين ربه اما من اعتقاد او معاملة ويسأل عن وجه صلاحية ذلك للتقرب الى الرب تبارك وتعالى ويبين ذلك بيانا شافيا حتى يكون المسؤول على جلية من امره فيقع الجواب في ذلك كله نافعا للسايل والمسؤول كما فعلتموه في تلك البراءة التي كنتم كتبتموها لي[٨] اول مرة وكما كان يفعل اخونا محمد بن ادية رحمة ربنا عليه ورضوانه فيما كان يكتب به اليّ .

واما سوالكم من اي كتاب تقرءونه في التصوف فالذي اقول لكم ان ذلك الكتاب الذي عندكم لابن عطاء وهو « كتاب التنوير » محتوٍ على جميع ما تضمنته[٩] كتب التصوف المطولة والمختصرة مع ما اشتمل عليه من زيادة البيان

١) ف لفقدان ‖ ٢) ف ق ر س : — الله ‖ ٣) ر : تصوني ‖ ٤) ر س : عن ‖ ٥) ر س : الصالحات ‖ ٦) ف ق ر : عنه ‖ ٧) إ : —لي ‖ ٨) ف : فى ‖ ٩) ف : تضمنه

واختصار الالفاظ . والمسلك الذي سلكه فيه[1] مسلك توحيدي لا يسع احدا انكاره ولا يدع للمتحقق[2] به صفة حميدة الا أكسبه اياها ولا صفة ذميمة الا ازالها عنه وطهره منها . وانتم اذا اشتغلتم بتفهمه والعمل بما فيه بآن لكم ما قلناه عيانا . وسيجتمع لكم مع ما سألتم منه من الامور الدينية امور اخر نافعة مفيدة . فان اضفتم الى ذلك ان تحصلوا مـا له من الكلمات الحكمية المشهورة عنه الموجودة بايدى الناس واشتغلتم بتحفظها وتفهمها اغناكم ذلك عن كثير مما سودت به الاوراق وشاع ذكره[3] في جميع الافاق :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ
فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

فهذا كله ما اردنا ان نذكره لكم . وربنا عز وجل ولي التوفيق لنـا ولكم الى ما يحبه ويرضاه . والسلام عليكم وعلى جميع اصحابنـا والرحمة والبركة .

١) ر : — فيه ‖ ٢) إ : المتحقق ‖ ٣) ر : — ذكره ‖

[الرسالة الثالثة عشرة]

كتاب[1] تضمن التنبيه على كلام لسيدي[2] ابي الحسن
الشاذلي[3] في صفة قاري[4] الحزب الكبير له[5]. والله الموفق[6]

الحمد لله. وبعد فقد كان[7] بلغني كتاب منكم وانتم تذكرون فيه انكم عازمون على قراءة الحزب الكبير .

فامضوا ذلك العزم واعلموا ان ذلك من توفيق الله لكم ولا يصدنكم عن ذلك ما توهمتموه من معنى ما روي عن الشيخ رضي الله عنه من قوله : من قرأ هذا الحزب فله ما لنا وعليه ما علينا — فانه توهم باطل . كيف وانما قصد بذلك التحريض عليه وصرف الهمة اليه والاخذ فيه بالحزم[8] والعزم . ويدل على ذلك باقي الكلام من قوله : ودخل في شفاعة جدى رسول الله[9] صلى الله عليه وسلم. وانما معناه كأنه يقول: من قرأه بنية صالحة ورجاء صادق وكان محبا في طريقتنا التي اشتمل عليها هذا الحزب حريصا على الاتصاف بصفات[10] الاولياء المشار فيه اليها فقد حصل على غاية الرجاء في بلوغ امله من الوصول الى رتبة الولاية الخاصة بنا ودخل في حزبنا وشملته رعايتنا وكان له ما لنا من التقريب[11] والاكرام وعليه ما علينا من الانقياد والاستسلام . واذا كان ما من الله تعالى له السبقية بالرتبة[12] والاولية[13] بالوجود بخلاف ما من العبد كان السابق علة في وجود اللاحق . والمعلول تابع لعلته في مقتضى اللطف والعنف. فان سبق للعبد قدم الصدق المقتضي وجود اللطف المعني بقوله : له ما لنا — كانت اعماله جارية على سنن الحق المعبر عنه بقوله: وعليه ما علينا — وكل ذلك بتسهيل وتيسير لا[14] تعمل فيه من العبد ولا تكلف . وهذا هو غاية العطاء.

---

١) س : وله ايضاً رضي الله عنه كتاب ‖ ٢) س : سيدي ‖ ٣) س : + رضي الله عنه ‖ ٤) ف خ : قراءة ‖ ٥) ر : — له ‖ ٦) ف ق ر س : — والله الموفق ‖ ٧) ف س : — كان ؛ س خ : كان ‖ ٨) : الحزم ‖ ٩) ف ق ر : — رسول الله ‖ ١٠) س : بصفة . خ : بصفات ‖ ١١) إ : التقرب ‖ ١٢) ف ق ر س : بالمرتبة ‖ ١٣) ر : والاولوية ‖ ١٤) ر : ولا ‖

ومنتهى الجزاء. والا فعلى العكس. فحاصل هذا هو ان قوله « له ما لنا » عبارة عن نهاية الكرامة والبر ومن جملة ذلك الهداية والتسديد والاعانة والتأييد وكلها علل موجبة لوجود[1] ما ترتب عليها من معنى قوله : « وعليه ما علينا » اي من القيام باحكام العبيد والكون مع الله تعالى على ما يريد بانشراح صدر وتيسير امر . وليس في هذا يا اخي ما يمنعكم ويصدكم عما رمتموه بل فيه ما يغريكم به ويحضكم عليه ان شاء الله تعالى .

وهذا القدر من الكلام المختصر كاف في تفهيم[2] ما ذكره الشيخ رضي الله عنه من الكلام المروى عنه . وما ذكرتموه عن بعض اصحابكم من قوله : له ما لنا من الحرمة وعليه ما علينا من الرحمة — فعبارته في ذلك مليحة رشيقة قريبة من معنى ما ذكرناه . الا انها خالية عن[3] التحقيق الذي بيناه. وبالله التوفيق.

---

١) إ : لوجوب ‖ ٢) ر س : تفهم ‖ ٣) س : من ‖

(91) [الرسالة الرابعة عشرة]

جواب[1] سؤال رجل تشوش من جهة السبب
ومنعه ذلك من الوصول الى غاية[2] الارب

الحمد لله[3] . اما بعد فقد كان[4] وصلني كتابكم وذكرتم فيه تشوش[5] حالكم من جهة السبب وانكم لم توافقوا على تركه وانكم[6] منتظرون لما يبرز من الغيب — وقد علمت جميع ذلك وتحققته .

والذي آمركم به ان تجعلوا الآخرة نصب اعينكم وتنبذوا الدنيا وراء ظهوركم[7]. ثم تشتغلوا بالعمل بما يوافق هذه[8] الحال . فان يسر لكم سبب يسلم فيه دينكم فخذوا منه ما تقيمون[9] به اودكم والا فلا يهولنكم تعذره عليكم. وايقنوا وتحققوا ان من ترك لربه شيئا فسيعوضه منه خيرا مع سلامة الدين وغنيمة الطاعة لرب العالمين . واعتبروا في ذلك بقصة صاحب الزرع والطحين والحمار .

فقد حكي[10] ان بعض الصالحين سيل ما سبب توبتك فقال : اني كنت رجلا دهقانا[11] . فاجتمع علي اشغال ليلة من الليالي كنت احتاج ان اسقي زرعا كان لي وكنت حملت حنطة الى الطاحونة فوثب حماري وضل . فقلت : ان اشتغلت بطلب الحمار فات سقي الزرع وان اشتغلت بسقي[12] الزرع ضاع الطحين[13] والحمار . وكان ذلك ليلة الجمعة وبين قريتي وبين الجامع مسافة بعيدة فقلت اترك هذه الامور كلها وامضي الى موضع الجمعة لادرك غدا صلاة الجمعة . فمضيت وصليت الجمعة[14] . فلما انصرفت اجتزت[15] بالزرع فاذا هو قد

---

١) س : وله ايضاً رضي الله عنه جواب ‖ ٢) إ : — غاية ‖ ٣) ف ر س : + وحده ‖ ٤) س : — كان ‖ ٥) ق : تشويش ‖ ٦) إ : واتم ‖ ٧) ق : ظهركم ‖ ٨) ق : هذا ‖ ٩) ف : تقيموا ‖ ١٠ س : عن بعض الصالحين انه سيل . ط : كذا . في الاصل: « ان بعض الصالحين سيل » ‖ ١١) إ : دهاقا ‖ ١٢) ف ق ر س : بالسقي (— الزرع) ‖ ١٣) إ : العجين ‖ ١٤) ف ق ر س : — الجمعة ‖ ١٥) إ : وجزت ‖

سقي فقلت من سقى هذا الزرع فقيل لي[1] ان جارك اراد ان يسقي زرعه فغلبته عيناه وانفتق السد[2] فدخل الماء زرعك . فلما وافيت باب الدار فاذا بالحمار على المعلف فقلت من رد الحمار فقيل صال عليه الذيب فالتجا الى البيت. فلما دخلت الى[3] الدار اذا انا بالدقيق موضوع هنالك فقلت كيف سبب ذلك فقالوا ان الطحان طحن هذا بالغلط . فلما علم انه لك رده الى المنزل . فقلت ما اصدق ما قيل : من كان لله كان الله له ومن اصلح لله امرا اصلح الله اموره . فتركت الدنيا وتبت .

واعلم ان ما اصابك في هذه الدار من صنوف المحن وانواع الهم والحزن طرقات الى جزيل الفوايد ووسايل الى رفيع المقاصد لا يعرف قدرها الا اهل
(92) الهمم العالية والقلوب الطاهرة الزكية[4] . فليكن فرحكم بنزول المكاره اشد من فرحكم بحصول المحاب . فقد حكي عن عطاء السلمي انه بقي سبعة ايام لم يذق شيئا من الطعام ولم يقدر على شيء فسر قلبه بذلك غاية السرور وقال : يا رب ان لم تطعمني ثلاثة ايام اخر لاصلين لك الف ركعة . وقيل ان فتحا الموصلي رجع ليلة الى بيته فلم يجد عشاء ولا سراجا ولا حطبا فاخذ يحمد ربه ويتضرع اليه ويقول : الهي لاي[5] شيء وباي وسيلة واستحقاق عاملتني بما تعامل به اولياءك.

ففي هذه الحكايات عبرة للمعتبرين وبلاغ للعابدين . وفقنا ربنا[6] لذلك .

---

١) ق ر س: — لي || ٢) ف ق ر: السكر ؛ س خ: البكر || ٣) ف ق ر س: — الى || ٤) ق ر س : الزاكية || ٥) س خ: باي || ٦) ق : + عز وجل ||

[الرسالة الخامسة عشرة]

وصية يحتاج اليها كل مريد طالب للمزيد من الغني الحميد

الحمد لله وحده . من اراد الاستقامة على سبيل الحق في دينه والتحصن من عدوه والتخلص من وساوس النفوس وضيقها وتقلبها والحصول على شرح الصدر فليصحح مقام الادب مع الله[١] ظاهرا وباطنا في جميع احواله . فذلك هو الشكر الموجب للمزيد . وينبني ذلك على اصلين : معرفته بعظمة ربه وكبريايه واتصافه بالصفات العلية والنعوت القدسية وعلمه بخسة نفسه وضعتها وعيوبها وآفاتها . فاذا احاط علما بهذين الاصلين نظر الى نفسه والى ما اجرى الحق تعالى عليه من الافعال والاقوال وما صرفه فيه من الاحوال فسيرى حينئذ من لطف الحق تعالى به ورحمته وعنايته وفضله ما لا مطمح لاحد في ادراكه وفهمه . فيوجب ذلك له محبة وحياء يحملانه على الشكر للحق تعالى بشهود النعم منه وحسن الادب معه . فاذا رأى نفسه على طاعة فرح بمنة ربه عليه بها من غير استحقاق ولا وسيلة . وكم من شخص لم يعطها ! وليستعمل حينئذ حسن الادب في تحسينها ونفي الافات عنها واخلاصه فيها لربه عز وجل .

فيكون حينئذ بهذه الرؤية والادب افضل ممن استغرق اوقاته في الطاعات وانواع العبادات مع فقدان ذلك . وكذلك ان رأى نفسه بمجال نعمة من صحة بدن أو نيل رزق — وان قل — فليفرح بذلك وليشكر ربه عليه لعلمه انه لا يستاهل ذلك ولا يليق به . وليستعمل حينئذ حسن الادب في الاستعانة بها[٢] على طاعة ربه عز وجل ولا يستعملها[٣] في معصيته . وكم من شخص مبتلى بمرض او فقر يتمنى ذلك ولا يجده !

وكذلك ان ابتلي بفقر او اصيب بمرض او مصيبة من مصايب الدنيا فليفرح بذلك لانه[٤] سلك به[٥] مسلك الاولياء والصالحين . وليفرح بمنة ربه

---

١) ف ق ر س : + تعالى || ٢) إ : — بها || ٣) إ : يستعملها || ٤) ر : فانه
٥) إ : بها ||

عز وجل في ان لم تكن اكثر من ذلك كما ابتلي[١] طوايف[٢] من الناس . وليستعمل حينئذ حسن الادب في الصبر والرضى ونفي الجزع والشكوى والدعاء الى الله تعالى في سعة الرزق وكشف الضر وسؤال العافية في الدين والدنيا والآخرة . وان امكنه التسبب لاكتساب ما يغنيه والتطبب لبريه من دايه[٣]
(94) فليفعل ذلك فهو من حسن الادب . وليشكر الله تعالى على تمكينه من ذلك واذنه له فيه .

وكذلك ان ابتلي بذنب او غفلة او سوء ادب فلا يغفل عن اللطف وخفي المنة بذلك . فقد يكون ذلك سببا لخوفه ونفي عجبه والتجايه الى ربه كما ورد في الخبر في قوله[٤] : لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو اشد من ذلك : العجب العجب . وكم من شخص مرتكب لكباير[٥] مستحل لها فرح بها . وليستعمل حينئذ حسن الادب في المبادرة الى التوبة وتذكر الخوف وكثرة الاستغفار والدعاء والبكاء . وكذلك ان كان على مذهب امام من ايمة الدين مجمع[٦] على امامته وهو يجد في الحال من يأخذه[٧] عنه ممن تفقه فيه من اهل الدين وقد اخذه عن شيوخه وشيوخه عن شيوخهم الى ان ينتهي الى ذلك الامام. فليفرح بذلك وليشكر الله عليه . وكم من شخص قد[٨] قلد مبتدعا او ابتدع هو من تلقاء نفسه فهلك بذلك . وليستعمل حسن الادب معه في توقيره واتباعه في كل ورد وصدر الا ان رأى في مذهب[٩] غيره من الايمة المجمع على امامتهم ما يقتضي[١٠] احتياطا ان قوى عليه او يقتضي[١١] رخصة ان احتاج اليها ولم يكن في مذهب امامه انكار على من فعل ذلك فليفعله ولا يسقطه ذلك عن درجة الادب.

وكذلك ان ظفر بشيخ من شيوخ الصوفية سالك سبيل السنة فليفرح بذلك وليشكر الله عليه . وكم من شخص لعبت به ايدي الضالين المبتدعين فهلك بذلك . وليستعمل حينئذ حسن الادب في الانقياد له في اوامره وترك مخالفته . وان لا يكتمه شيئا من اسراره وان لا ينتقل عنه الى غيره.

وكذلك ان كان له صاحب او اخ يسلم معه دينه ويجد معه مرافق في

---

١) ف ق ر س : + به ‖ ٢) ف : طائفة ‖ ٣) إ : ذلك ‖ ٤) إ : – في قوله ‖ ٥) ر : للكباير ‖ ٦) ق : مجتمع ‖ ٧) ر : ياخذ ‖ ٨) ف : – قد ‖ ٩) ف ر س : مذاهب ‖ ١٠) ق : تقتضي ‖ ١١) إ : – يقتضي ‖

دنياه — ويدخل في هذا الزوج والزوجة — فليفرح بذلك وليشكر الله عليه . وكم من شخص مبتلى بصاحب يخسر معه دينه ودنياه ولا يجد انفكاكا عنه . وليستعمل حينئذ[1] حسن الادب في القيام بحق[2] صحبته والوفاء بعقد[3] اخوته.

وكذلك ان اقيم في سبب يجد منه كفايته فليفرح بذلك وليشكر الله . وكم من شخص مبتلى بالالتجاء الى الناس وعاجز[4] عن التسبب غير راض ولا صابر . وليستعمل حينئذ حسن الادب في نصح المسلمين بذلك وترك الغش واجتناب جميع مناهي الشرع التي يتعرض لها بسبب ذلك . وان كان في عمل من اعمال البر كتعليم القرآن وغيره[5] فليحتسب مع ذلك ثوابه وليترفق في تعليمه ما امكنه ولا يجفو على متعلم ولا يظلمه . وليراقب ربه في ذلك .

وكذلك ان سمع بمثل هذه النصيحة او رآها مكتوبة فليشكر ربه على
ذلك وليفرح بها . وكم من شخص مصحوب بالغفلة والسهو او مستنصح ولا (95)
يجد ناصحا . وليستعمل حينئذ حسن الادب في امتثالها والوقوف على حدودها وبذلها لاهلها . وملاك ذلك صدق الافتقار الى الله تعالى والضراعة اليه في ان يوفقه لذلك ويعينه عليه . فمن اعطي ذلك فليفرح به[6] وليشكر الله تعالى عليه. وكم من شخص مبتلى برؤية نفسه واعتماده على عقله وحيلته[7] ! وليستعمل حينئذ حسن الادب في اتهام نفسه في تصحيح الافتقار الذي ذكرناه .

وهذا الذي ذكرناه من اوله الى آخره داخل في معنى ما ورد في الخبر الصحيح[8] من قوله عليه السلام : انظروا الى ما هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فانه اجدر الا تزدروا نعمة الله عليكم . وبالله التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه .

---

١) ر : — حينئذ || ٢) س : بحسن ؛ خ : بحق || ٣) س : بحق ؛ خ : بعقد || ٤) ق : او عاجزا ؛ ر : او عاجز || ٥) ف ق ر س : او غيره || ٦) ف ق ر س : بذلك || ٧) ر س : وحسه ؛ س خ : وحيلته || ٨) س : — في الخبر الصحيح || .

[الرسالة السادسة عشرة]

جواب[1] مسئلة سلوك طريق الصوفية هل يصح ذلك بالكتب الموضوعة فيه او لا بد من الشيخ – وفيه ذكر الطريق الموصل الى الله[2]

باسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وآله[3] . من محمد بن عباد لطف الله له الى اخي ابراهيم الشاطبي وصل الله تعالى حفظه واجزل من خير الدارين حظهُ. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته[4]. اما بعد[5] فقد بلغني كتابكم وتعرفت منه ما طلبتم . وقد تصفحت كل واحد من الكتابين اللذين بعثتم بهما الى سيدي ابي العباس القباب[6] وعلمت مضمنهما . ولا يمكنني[7] ان اتكلم على جميع فصولهما بتصحيح او ابطال لان الكلام فيهما قد طال وتشعب وذهب كل مذهب وانا في غاية العجز عن ذلك. ولا يمكنني ايضاً ان لا اتكلم بشيء في هذا الامر وان كان ذلك هو الاوجب عليّ لما لزمني من حق سؤالكم . فرأيت ان اقتصر على ان اذكر لكم ما عندي في امر الشيخ وما ظهر لي من بداية السلوك على حسب[8] الايجاز والاختصار ليكون ذلك اقرب الى حصول الفايدة الناجزة لمن وفقه الله تعالى لها . فان استحسنتم منا هذا الغرض فيها ونعمت والا فليسعنا منكم التماس المعاذير واعتماد الصفح الجميل عما يقع منا من التقصير . والله تعالى ولي التوفيق لنا ولكم الى ما يحبه ويرضاه .

الذي اراه ان الشيخ في سلوك طريق التصوف على الجملة امر لازم لا يسع احدا[9] انكاره . وكأنّ هذا من الامور الضرورية في مجرى العادة. لكن الشيخ المرجوع اليه في السلوك ينقسم الى قسمين : شيخ تعليم وتربية وشيخ تعليم بلا تربية .

---

١) س خ : وله ايضا رضي الله عنه جواب سؤال وهو : طريق الصوفية هل يصح بالكتب ام لا . وفيه ذكر الطريق الموصلة اليه|| ٢) ق ر س: الموصل اليه|| ٣) إ خ: – باسم . . . وآله || ٤) [كذا في إ خ س] ؛ إ ف ق ر : – باسم الله . . . وبركاته || ٥) إ ف ق ر : الحمد لله وحده . اما بعد|| ٦) ف ق ر س : – الى . . . القباب || ٧) س خ : ولا يسعني || ٨) س : سبيل ؛ خ : حسب|| ٩) ر : احد||

فشيخ التربية ليس بضروري لكل سالك وانما يحتاج اليه منهم من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس. واما من كان وافر العقل منقاد النفس فليس بلازم في حقه وتقيده به من باب الاولى . واما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك.

اما[1] كون شيخ التربية لازما لمن ذكرناه من السالكين فظاهر لان حجب انفسهم كثيفة جدا ولا يستقل برفعها[2] واماطتها الا الشيخ المربي. وفيهم يتحقق اكثر ما ذكر مشترطوا الشيخ من اصحاب المناظرة والزموه لخصومهم وهم بمنزلة من به علل مزمنة وادواء معضلة من مرض الابدان فانهم لا محالة يحتاجون الى
(97) طبيب ماهر يعالج عللهم بالادوية القاهرة. واما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه . فيستقيم له من العمل بما يلقيه اليه شيخ التعليم ما لا يستقيم لغيره . وهو واصل باذن الله تعالى ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك اذا قصده من وجهه واتاه من بابه على ما سنذكره ان شاء الله تعالى . الا انه قد[3] لا يكمل كما يكمل من تقيد بالشيخ المربي لان النفس ابدا كثيفة الحجاب عظيمة الاشراك فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها . ولا يزول ذلك عنها بالكلية الا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر . ولهذا قلنا انه من باب الاولى. فان تقيد به لزمه من الاحكام التي تتلزم[4] مع الشيخ المربي ما لزم الاخر .

واعتماد شيخ التربية هو طريق الائمة المتاخرين من الصوفية واعتماد شيخ التعليم هو طريق الاوايل منهم . ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفيهم كالحارث المحاسبي وابي طالب المكي وغيرهما من قبل انهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره اية المتاخرين مع انهم ذكروا اصول علوم القوم وفروعها وسوابقها ولواحقها لا سيما الشيخ ابو طالب. فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك .

وهذه هي الطريق السابلة التي انتهجها اكثر السالكين وهي اشبه بحال السلف الاقدمين اذ لم ينقل عنهم انهم اتخذوا شيوخ التربية وتقيدوا بهم والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربيين . وانما كان حالهم اقتباس العلوم

---

١) س خ: فاما || ٢) س : بدفعها ؛ خ : برفعها || ٣) ر س: — قد ؛ س خ : [قد] ||
٤) ق س : تلزم ؛ ر : تلتزم ؛ س خ : تتلزم ||

واستصلاح الاحوال بطريق الصحبة والمواخاة بعضهم ببعض[١] . ويحصل لهم[٢] بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون اثره في بواطنهم وظواهرهم ولذلك جالوا في البلاد وقصدوا الى لقاء الاولياء والعلماء والعباد .

واما كتب اهل التصوف فهي راجعة الى شيخ التعليم لان الاستفادة منها لا تصح الا باعتقاد الناظر فيها ان مؤلفها[٣] من اهل العلم والمعرفة وممن يصح الاقتداء به . ولا يحصل له هذا الاعتقاد الا من قبل شيخ معتمد عليه عنده او من طريق يثق به . فان كان ما يستفيده منها بينا موافقا لظاهر الشرع موافقة بينة اكتفى بذلك والا فلا بد له من مراجعة شيخ يبينه له . فالشيخ اذا لا (98)
بد منه كما تقدم . والظاهر ان شيخ التربية في هذه الازمنة متعذر ووجوده اعز من الكبريت الاحمر بل وكذلك ايضا شيخ التعليم لان كثيرا ممن يشار اليه ويعتمد عليه من المنتسبين الى هذا الطريق لم يتصور معنى التصوف ولم يعثر له على حقيقة فضلا عما[٤] وراء ذلك . ولا ادرى اى المصيبتين اعظم : فقد الشيخ المتحقق[٥] او عدم التلميذ الصادق . فانا لله وانا اليه راجعون.

فان قيل[٦] : كيف[٧] يصنع مع هذا من اراد سلوك طريق التصوف : هل يشتغل بطلب الشيخ او لا يشتغل بطلبه ويبقى منتظرا له وفي كل واحد من القسمين هل يشغل نفسه بعمل من اعمال اهل السلوك او لا .

فاقول : الاشتغال بطلب الشيخ لا وجه له سواء كان معه عمل او لم يكن لان الشيخ من منح الله تعالى وهداياه[٨] للعبد المريد اذا صدقت همته في السلوك وبذل فيه جهده واستنفد جميع ما عنده قل او جل . ولاجل هذا يقيضه الله تعالى له على افضل حال سالما من البدع والضلال فيأمن بذلك المريد مما يقع فيه كل من اعتمد الشيخ بالطلب والتفتيش من الافات السابقة واللاحقة .

واما انتظار الشيخ من غير اشتغال بعمل فلا وجه له ايضا لان ذلك بطالة وتضييع وسوء ادب في المعاملة. فلم يبق الا القسم الرابع وهو الاشتغال بالعمل مع انتظار الشيخ . وسبيله الى ذلك ان يصح قصده بمراعاة[٩] صدقه مع الله

---

١) ر س : لبعض || ٢) ر : — لهم || ٣) ر س : مؤلفيها || ٤) إ : عمن ||
٥) ر: المحقق || ٦) ف خ : فان قلت || ٧) ف ر س : فكيف || ٨) إ:وهدايته ||
٩) إ : لمراعاة ||

تعالى . فمن اراد ان يكون الله معه فليلزم الصدق فان الله مع الصادقين . وذلك بان يكلف نفسه ويحملها على العمل بمقتضى حال التصوف من البراءة من الدعوى والعكوف بالقلب[1] على باب المولى وحسن الظن وصدق الرجا والوقوف بين يدي الله تعالى على قدم الهيبة والحياء . فبالتزامه لهذه الاشياء وحمل نفسه عليها يستنجز من الله تعالى الموعود ويصل الى المرغوب والمقصود .

وليعلم المسترشد ان حال التصوف اثرة من الله تعالى وتخصيص لبعض عباده وعناية بهم لا يفتح بابها ولا يرفع حجابها الا لمن صدق في افتقاره اليه[2] وتحقق في اعتماده عليه[3] . ولهذا كانوا منفردين بحالهم عن اشكالهم لا مطمع لغيرهم في الاحاطة بكنه امرهم كما قال المشايخ : الصوفية اهل بيت واحد لا يدخل فيه غيرهم. وذلك ان الله تعالى لما اراد ان يكون له اهلون من خلقه–ومعنى (99)
ذلك ان يكونوا به وله تحققا ووجودا – قذف في قلوبهم الايمان وكتبه فيها وايدهم بروح منه . وكل ذلك من غير تقدم وسيلة ولا سببية منهم . فلما منّ عليهم بذلك واشهدهم تلك المنة فتح لهم حينئذ باب اللجا والافتقار اليه ورأوا انفسهم بعين العجز وقلة الحيلة وغاية الضعف والفاقة . فلما فتح لهم هذا الباب تلقاهم منه بانواع التحف والكرامات والالطاف والمنن تحقيقا لوعده في كفاية عباده المفتقرين اليه واللائذين بجنابه[4]. فازدادت اذ ذاك انوار ايمانهم وتضاعفت والحق تعلى يصرفهم في احوالهم واعمالهم على حسب ما يليح لهم من الانوار وما يجلي لقلوبهم من الاسرار. فلم يزل هذا دابهم وملازمة باب الله تعالى ديدنهم الى ان وصلوا الى مقام الاحسان وهناك تراءى لهم محض التوحيد وتحققوا بخالص التفريد[5] فانمحت[6] اذ ذاك رسوم بشريتهم وبطلت احكام انيتهم وعند وجود العيان فنيت[7] الاعيان: «وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً»[8]. وهذه هي الغاية التي هي مطمح نظر السالكين وبذلك يتحقق لهم اخلاص عبوديتهم لربهم ويتخلصون من رؤية اخلاصهم . ولا مطلب لهم سوى هذا . ويستوى في هذا مجذوبهم وسالكهم الا ان المجذوبين اوصلهم الى هذا المقام

---

١) إ : – بالقلب ‖ ٢) إ : – اليه ‖ ٣) إ : – عليه ‖ ٤) ف ق : بجانبه ‖ ٥) ق ر : التجريد ‖ ٦) ر س : فامحت ‖ ٧) س: فنت؛ خ : فنيت ‖ ٧) قرآن : ١٧ : ٨٣ ‖

في اقرب زمان من غير معاناة ولا تعب والسالكون على عكس هذا. وجميعهم لم يخلهم الله تعالى من وجود كلاءته ورعايته في اطوارهم كلها من بداية ونهاية. فكانوا لذلك منفعلين لا فاعلين كما قيل : الصوفية اطفال في حجر الحق[1].

فانتم ترون هذه الحال كيف اختصت بتولي الحق سبحانه لمن اختصه بها من غير ان يكله الى طلب او سعي يعتمده بنفسه. فالسالك لهذا الطريق ينبغي له ان يسلكه على هذا النحو . وليتخذ مثلا حاله في ما فهمه من حقية طريق التصوف وشرف قدر من اتصف به عبرة يتوصل بها الى منازلته والتحقيق به . ولا شك انه يتحقق ضرورة فهمه لذلك وتعقله له[2] . ولولا ذلك لم يطلبه ولم يحرص على التوصل اليه اذ لا يتصور طلب شيء لا يتعقل . وفهمه له وتعقله له ليس من تلقاء نفسه بل هو مجعول فيه بواسطة عقله المهيا لذلك. فاذا نظر الى هذا علم ان لله تعالى عليه في هذا التصور والتعقل نعما ثلاثا[3] : وجدان العقل وتهيؤه لادراك هذا الشيء النفيس ونفس التصور والادراك. وجميع ذلك حاصل له من غير حول منه ولا قوة ولا ثبوت اهلية. وكم من شخص لم يرزق واحدة (100) من هذه الثلاث[4] فضلا عن مجموعها . فاذا احاط علما بما ذكرناه كان لله تعالى عليه نعمة رابعة وهي اكبر هذه النعم واجلها : معرفته بان لا مدخل[5] له في شيء منها . فهذه اربع من النعم . فاذا كانت على ذكر من العبد وتيقظ لها وقصد الى نيل ما تصوره وحصوله له فاول ما يتبادر الى ذهنه رؤية عجزه وفقره وعدم قوته وحيلته وان الملي بذلك والقادر عليه مولاه عز وجل وانه لا يسعه في التوسل[6] الى ذلك والظفر بما هنالك الا تادبه بين يديه وفراره من نفسه اليه واعتماده في ما هو بصدده عليه وعند ذلك يكفيه كل مؤنة ويهون عليه كل

---

١) ف ط : وجدت هنا في الاصل المنتسخ منه مانصه : « وجد للمؤلف رضي الله عنه سؤال وجواب في هذا المحل : « فان قيل هذا جبر محض والجبر باطل فاقول : التعبير بالجبر ها هنا ظلم في حق هذا المقام لان مفهوم الجبر لا يتصور الا في عالم الحجاب والفرق حيث يتصور وجود الجابر والمجبور عليه وما به يقع الجبر . والتعددات كلها اوهام وخيالات عند ارباب الكشف والشهود . والجبر في هذا العالم باطل قطعا لان لسان الشرع اثبت الاختيار والكسب للعبد وعليه يقع الثواب والعقاب . واما في حضرة الجمع وشهود الاحدية فلا يتصور وجود الجبر » . انتهى. ‖ ٢) س : ونعقله بـه ؛ خ : وتعقله له ‖ ٣) إ : ثلاثة ‖ ٤) إ : الثلاثة ‖ ٥) إ : مثل ‖ ٦) س : التوصل ‖

صعب وييسر عليه كل عسير ويكون له[١] في هذا الشهود والنظر مجال للعبد[٢] بحيث يحمله على ان لا يتحرك لطلب[٣] ولا سبب بتخير منـه . فان دام على التيقظ في هذا فقد وصل الى مقام ينتظم له كل مقام وحصل على مرام يستحقر في جنبه كل مرام. وان لم يحصل له هذا التبادر بل انزعج في الحال الى طلب سبب يصل به غافلا عن المنعم عليه بالنعم المذكورة ابتداء من غير استحقاق وغير ذاكر له كانت مصيبته بذلك اعظم من مصيبته بعدم نيل مطلبه وبوجود تعبه في الطلب وبضيق[٤] صدره في التعب[٥] . فيكون حينئذ رجوعه الى تصحيح ذلك اولى به. وهذه هي الانابة[٦] التي هي مقدمة الهداية . وانما حرموا الوصول لتضييعهم الاصول. وهذه كلها اعمال قلبية ينبغي ان يقدمها المريد[٧] بين يدي سلوكه ويجعلها عمدته في امره كله. ثم بعد هذا عليه ان يفر عن مواضع الفتن والشرور ويعتزل مجالس العامة والجمهور ويقطع عن نفسه العلايق الظاهرة التي تدعوه الي ارتكاب الاثام والفجور .

وآكد ذلك كل سبب يقتضي وجود رياسة او تقدم كولاية حكم او تدريس علم او غير ذلك . فـان ذلك كله مضاد للسلوك وهو من القواطع العظيمة . وليجتنب النظر في العلوم والرسوم التي اكب الناس عليها بعد تحصيل ما يحتاج اليه منها في خاصته فان ذلك اعظم حجاب له عن مقصوده . ولذلك لا تكاد تجد احدا له عناية بالعلوم الظاهرة وتمرن فيها وشدة ممارسة لها حضي بشيء من حقائق علوم القوم الا من سلك بـه طريق الجذب . بل يعز فيهم الايمـان بطريقتهم حتى توهم كثير منهم المباينة بين الظاهر والباطن ومخالفة الشريعة للحقيقة[٨] وحملهم هذا التوهم على ان انكروا على الصوفية امورا خارجة عن اساليب علومهم ومقتضيات رسومهم وامتحن كثير من المشايخ على ايديهم
ونسبوهم الى الكفر والزندقة وانواع الضلال والبدعة . (101)

فمن مهمات السالك ان يفر من هولاء فراره من الاسد ولا يشتغل من علومهم الا بما يخصه في نفسه في عباداته[٩] ومعاملاته وليدع[١٠] ما سوى ذلك .

---

١) إ : —له ‖ ٢) إ : للعبد ‖ ٣) ر : بطلب ‖ ٤) ر س : ويضيق ‖ ٥) ر س : بالتعب ‖ ٦) س : وهذا في الانابة ؛ خ : وهذه هي الانابة ‖ ٧) إ : الانسان ‖ ٨) ق : والحقيقة ‖ ٩) إ : عبادته ‖ ١٠) ر س : ويدع ‖

ثم بعد هذا يعمد الى عمل واحد مثلا من اعمال اهل السلوك مما يتعين عليه القيام به وكان قد حصل له علمه من قبل ولو لم يكن الا توبة عن معصية او تورعا عن شبهة او جمع هم[1] من تفرقة او غير ذلك من اعمال ظاهرة او اعمال باطنة . ويبادر الى ايقاعه مخافة فوته ولا يرتقب لذلك وقتا ثانيا. ومعلوم انه لا يعوزه من ذلك الكثير فضلا عن العمل الواحد . ثم يشتغل فيما فضل من اوقاته عن ذلك بالبحث عن اخلاق السلف واحوالهم مع الله تعالى في اقامة عبوديته واخلاص مساعيهم له[2] .

وليواظب[3] على مطالعة كتب التصوف[4] ليطلع بذلك على مقاصدهم وحقايق علومهم وليحصل له تمرن بذلك وانس به ويزول عنه النفور الذي يصيب اكثر الناس عند مطالعة بعض كلامهم لا سيما لمن الف العلوم الظاهرة العقلية والنقلية كما ذكرناه . وذلك بعد ان يقدم الاستخارة على سنتها ويلجا الى الله تعالى في ان يفتح عليه باب الفهم فيها ويستعين على ذلك بمشاركة من[5] له عقل تام ومحبة صادقة في طريق القوم . فليشتغل المريد بما ذكرناه ولا يصدنه عن ذلك عدم وجدانه للشيخ الذي يراجعه في جزئيات سلوكه. وليتحقق ان ما يحصل له من نتايج هذه البداية مزيد عظيم لا ينبغي ان يستحقره بل يغتبطه[6] ويشد يد الضنين عليه . وذلك من شكر هذه النعمة المقتضي لوجود المزيد منها .

فاذا قام العبد بهذا كله على ما ينبغي له مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومصححا تقواه له وعاملا بما امره به فقد حصل على اعظم الرجاء في ان يعلمه الله تعالى ما جهله مما يحتاج اليه في سلوكه تحقيقا لوعده في قوله عز وجل[7] : « واتقوا الله ويعلمكم الله »[8] وفي قوله عز وجل : « يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا »[9] وفي قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »[10] . وفي قوله عز اسمه : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا »[11] . وعند ذلك تترادف عليه انواع المزيد ويستمر في سلوكه على منهج[12] سديد

---

١) س خ : همة ‖ ٢) ر : — له ‖ ٣) إ : وليواضب ‖ ٤) ف ق ر س : الصوفية ‖ ٥) س : ذلك بمن ؛ خ : بمشاركة من ‖ ٦) ف ق ر س : يغتبط به ‖ ٧) ف ق ر س : عز من قايل ‖ ٨) قرآن : ٢ : ٢٨٢ ‖ ٩) قرآن : ٨ : ٢٩ ‖ ١٠) قرآن : ٢٩ : ٦٩ ‖ ١١) قرآن : ٦٥ : ٢ ‖ ١٢) س خ : منهاج ‖

ويبعث الله تعالى اليه من الهـداة المرشدين من تسكن اليه نفسه ويطمين به قلبه. وقد يقيض الله تعالى له في اثناء ذلك شيخا ربانيا يرقيه بهمته في اسرع وقت وقد يغنيه عنه[1] ولا يحوجه الى احد. وليس على المريد الا تصحيح نيته مع الله تعالى وتحسين ظنه به . فاذا هو قد وصل . بل لا مدخل له في هذا (102)
على التحقيق .

وبالجملة كل من قصد الى سلوك الطريق وجعل معتمد امره ما ذكرناه من الاعمال القلبية والبدنية فعلا وتركا فهو من المهتدين اليه لا محالة ان كان ممن اهل له ومن وفق لهذه الامور فهو من المؤهلين له[2] . فان الامر المتفق عليه عند العارفين ان لا وصول الى الله الا بالله[3] ولا حجاب للعبد عن الله الا نفسه. والنفس لا تجاهد بالنفس وانما تجاهد النفس بالله . فاذا جوهدت النفس بالله لم يتصور في طريق السلوك قاطع ولا مانع لوجود حفظ الله وكلاءته وتأييده للمريد السالك بما شاء وكيف شاء. ابى الله ان يرزق عبده المومن الا من حيث لا يعلم . ولا تزال حجب نفسه الظلمانية والنورانية ترتفع وتزول شيئا فشيئا حتى ياتيه اليقين .

فهذا هو مبدا طريق السالك الى منـازلة حال التصوف ولا نهاية له الا التحقق[4] بما تخلق[5] به من المعـاني التوحيدية : « وذلك فضل الله يوتيه من يشاء »[6]. بل ليس له غاية ينتهي اليها اذ له في كل حال سلوك ووصول وعليه في كل حين تحل ثم له بعده تحل وتجل على حسب ما ينزله من المنازل ويحل فيه من المواطن . وليس في طريق الله تعالى مفازة ولا متاهة كما توهمه اصحاب المناظرة بل يكون له في كل منزل ينزله دار وقرار ويتأتى له في كل حل[7] وترحال اعوان وانصار . وانما تكون المفازات والمتاهات في اقامة العبد على مالوفاته ومعتاداته حين يجد طعم نفسه ويعتمد عـلى عقله وحدسه ويتبين له مصداق هذا عند انكشاف الغطاء. ونعوذ بالله من سوء القضاء .

فاذا تحقق المريد هذه الجملة التي ذكرناها لم يتهيب سلوك هذا الطريق ولم يستوعره واستقام له السير فيه بقرة عين وانشراح صدر ولم يتعب نفسه ولا عقله

١) إ : — بهمته . . . عنه || ٢) ر : — له || ٣) س : الا به || ٤) ق : التحقيق ||
٥) س خ : تحقق || ٦) قرآن : ٦٢ : ٤ || ٧) إ : حال ||

بالنظر في ما ذكره[1] اصحاب المناظرة من امر غير واحد. فان ذلك مما يشوشه ويدهشه ويوجب له التقاعد والتكاسل عن الاخذ في هذا الطريق وينسد عنه باب السلوك بالكلية . ولو دفع الانسان الى تصحيح اكثر تلك المعاني وكون العبد مامورا بمراعاتها والقيام بمقتضى حقايقها بالادلة الشرعية على طريقة علماء الظاهر ربما لم يحصل له وفاء بذلك . كيف والامر بحمد الله[2] اقرب من هذا كله : لان الله تعالى بعث الينا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ولم يجعل علينا في الدين من حرج واي حرج اعظم من معاناة السلوك على حال ما الناس عليه من التفرق والاختلاف وعدم الهداة المرشدين وغاية ما طلب من العبد امر واحد وهو اخلاص العبودية لله عز وجل لا مانع للعبد من
اقامتها في مقاماتها الا هواه المتبع[3] وهوى كل احد ظاهر له اذ هو حقيقة (103)
نشأته ومجبول خلقته وكيف يخفى على الانسان حاله اذا كان منصفا من نفسه ناصحا لربه عاملا في صلاح قلبه .

فاذا اعتمد المريد مخالفة نفسه في كل ما تدعوه اليه مما لا يخاف ضرره في عقله وجسمه والتزم عدم التمسك بكل ما يظهر له فيما يرجع الى عقده[4] وفهمه[5] اي افة تصيبه . بل له في ذلك اعظم الفوايد . وغاية ما يعرض[6] له[7] من الافات التي يتوهمها المريد في مخالفة نفسه ان تدعوه الى نوع من الطاعات ولم يظهر له وجود حظها فيه فيخالفها مع ذلك فتفوته تلك الطاعة . وكذلك في التزامه عدم التمسك بما يدركه عقله اذا ظهرت له حقيقة من الحقايق بزعمه فيتعامى عنها ويضرب عنها صفحا ولا ضرر عليه في جميع ذلك بل هو سالك انهج[8] المسالك والعبد ابدا شأنه العجز والقصور ولو بلغ في العلم والعمل كل مبلغ ويكون للمريد في اعتماده هذه المخالفة التي ذكرناها شغل شاغل يمنعه من سلوك بنيّات الطريق والانحراف عن جادة التحقيق والتعرض للاخطار والاستهداف لانواع المضار . فلقد ضل ضلالا بعيدا من سخت نفسه بالوصال دون الصيام او سمحت بالصيام على الدوام دون تركه في بعض الايام . ومن رضي

---

١) إ : ذكر ‖ ٢) ر : + تعالى ‖ ٣) س خ : المتبر ‖ ٤) س خ : عقد ‖
٥) س خ : وجسمه . كذا ‖ ٦) ف س : يفرض ؛ س خ : يعرض ‖ ٧) ف ق س : — له ‖
٨) س خ : انجح ‖

باخراج جميع ماله دون امساك بعضه ومن طاب نفسا بالانحياز الى قنن الجبال والتقطع في المفازات دون اعتزاله في بيته مع وجود السلامة فيه . وهل هـذا كله وما اشبهه الا من الشهوة الخفية التي تصعب معالجتهـا وتقتضي وجود الافات الدينية والدنياوية موافقتها . ولو وقف على حدود الشرع وسلك سبيل التقوى والورع لكان خيرا له ولا شهوة له في ذلك البتة ولذلك يشتد عـلى النفس مراعاة الاوساط وتشره الى احد الطرفين من تفريط او افراط. وبإلتزام العبد للصدق[1] في احواله كلها يحفظه الله تعالى ويؤيده ويحميه من المهالك ويسدده ويقيض له من المشايخ المحققين من تقرّ به عينه . فعلى العبد البداية ومن الله تعالى التمام والنهاية . ولله الامر من قبل ومن بعد .

فهذا ما ظهر لي في المسئلة التي اثرت الكلام فيها . واني لأعلم اني في ذلك متكلف وسيء الادب وآخذ في ما لا يعنيني[2] ولكني استغفر الله تعالى واسأله التجاوز والعفو فهو اهل ذلك ووليه وهو حسبي في ذلك ونعم الوكيل.

ونسأله جل وعلا ان يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويعيننا على اجتنابه . وصلى الله على سيدنا[3] محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً[4] .

---

١) س خ: الصدق ‖ ٢) ر : يعنيه ‖ ٣) ق ر س : + ومولانا ‖ ٤) إ : [يقرأ هنا بخط مختلف ، ولعله خط السلطان] ان الذي وجهت وجهي له هو الذي خلفت في اهلي: لا يخفى عليه حالهم ساعة وفضله اوسع من فضلي؛ ف: + كثير اثير الى يوم الدين؛ ق: + انتهى والحمد لله . . . ونعم الوكيل . انتهت الرسايل الصغرى ، تتلوها الرسايل الكبرى ان شاء الله؛ ر: + انتهى كتاب الرسايل الصغرى للامام الاوحد الشيخ العارف بالله سيدي محمد . . . بن عباد . . . على يد . . عبد الرحمان بن ابي القاسم بن ابي على بن احمد الجابري ثم المصلي نسبا المالكي مذهبا . . . وكان الفراغ من نسخه ضحوة يوم الجمعة التاسع عشر من شهر شوال الذي من عام اثنين والف سنة [١٥٩٣ م] والحمد لله . . . ؛ س : + انتهت الرسايل الصغرى بحمد الله . . . وكان الفراغ منها ضحوة السبت سابع ربيع الثاني عام خمسة وستين ومايتين والف [١٨٧٨م] على يد . . . محمد بن الطالب بن محمد بن سودة . . . ‖

APPENDICE A

Texte inédit d'Ibn ʿAbbâd sur le *taqlîd* et le *Kalâm*
(Ms.1071 (891 D) de Rabat, fol. 192 r-192 v)

ملحق اول

نص لابن عباد في التقليد والكلام ننشره للمرة الاولى عن مخطوط الرباط

[192 R] سيل الشيخ الامام العارف سيدي محمد بن عباد رحمه الله تعالى ورضي عنه عن المسئلة السادسة ونصها :

الحمد لله . يا سيدي كيف ترون ايمان المقلد والخلاف بين الناس فيه وما الذي يخرج منه ونظر كتب المتكلمين هل يقوي الايمان او يضعفه وقول الامام ابي حامد رحمه الله يذكر اهل السنة واجتهادهم في المعقول والمنقول مادحا لهم حتى قال : وتحققوا ان النظر مما تعبدوا به من قول لا اله الا الله محمد رسول الله ليس له طايل ولا محصول ان لم تتحقق الاحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الاقطاب والاصول . وان رايتم لي النظر في كتبهم ففي ايها . والا فما الذي ينظر عوضا منها فيجزي عنها .

ونص جوابه رضي الله عنه :

« الحمد لله. يا اخي لم ازل اسمع ان التقليد في العقايد لا يجزي ولا ينفع. ويشكل ذلك علي من قبل اكثر الناس مقلدة ولا سبيل الى ابطال ايمانهم . ثم ان الذي به يزول تقليدهم قالوا انه علم الكلام . وذلك لم يكن في الصدر الاول بل قد جاءت نصوص كثيرة بذمه وذم الآخذين فيه وحكم كثير من اهل العلم بتحريمه . وكيف يزول التقليد بمثل هذا وما انبنى على الفاسد فاسد. بل قد قال الامام ابو حامد : لا فرق بين تقليد المذهب وتقليد دليله .

والذي يظهر ان التقليد فيها مذموم كما قالوا ولا محيص عما قالوا . ويخرج من التقليد بادنى نظر كل على حسب ما يليق به وما ييسره الله تعالى له. والذي يتعلق به النظر غير منحصر في علم الكلام . فقد يستفاد ذلك من آيات القرآن وقد يستفاد من عجايب الصنعة الالهية وقد يستفاد من مجالسة اهل اليقين وموالاة اهل الدين . وللملازمة الطاعة ومداومة العبادة تاثير في ذلك . ومن لم

يكن فيه اهليـــة النظر كجهلة العوام واهل البوادي [192 V] والاعراب ربما ينفعه مجرد التقليد ان كان ما قلد فيه موافقا للحق . وقـــد سأل ذات مرة بعض الناس سيدي الحاج ابن عاشر رحمه الله عن هذه المسئلة فاخرج لهم نصا عن بعض المصنفين قال فيه ما معناه : ان من احتج على الوحدانية بقوله تعالى: « قل هو الله احد » [112, 1] ان ذلك يجزيه ويخرجه من التقليد. فاستنكرت ذلك حينئذ في باطني وقلت : « قل هو الله احد » من جملة مـــا اخذه تقليدا وكيف يزول التقليد بالتقليد. ثم ان المصنف الذي نقل ذلك منه غير معروف. حتى رايت لبعض ايمة علم الكلام واظنـــه ابو العز تقي الدين المقترح الشافعي مؤلف كتاب الاسرار العقلية في الكلمات النبوية ما معناه : ان آية القرآن كافية في الاحتجاج على الامور الاعتقادية مفيدة حصول القطع فيها لا يشذ عنها الا صفة الكلام فقط. فاذا اثبتت هذه الصفة العلية بدليلها الخاص بها استثبت الاحتجاج بالقرآن العزيز على ما عدا تلك الصفة . وانمـــا شذ ذلك من جملة مسايل الاعتقاد لان منزلة تصديق الله عز وجل لنبيه صلعم في دعواه والتصديق كلام.— هذا معنى ما بقي في ذهني من كلام ذلك الفاضل بعد ازمنة كثيرة تزيد على العشرين عاما او تنقص عنها وهو ابدع ما عثرت عليه للايمة . وقد كشف عني من التقليد في العقايد غمة واي غمة وقلت لعل ذلك المصنف الذي نقل ذلك الرجل الصالح كلامه قصد الى نحو من هـــذا . وقد كان اجلاف العرب يعرفون حقيقـــة الكلام ومن عرف ذلك وعرف كونه صفة كمال لم يرتب في وجوده في حق ذي الجلال . قال قايلهم : « ان الكلام لفي الفواد وانما : جعل اللسان على الفواد دليل » . فلما جاءهم القرآن المنزل اكتفوا به في الاحتجاج والاستدلال الاكتفاء التام .

وما ذكرتم عن الامام ابي حامد فهو قوله في الرسالة القدسية التي ادرجها في «كتاب الاحياء» في باب قواعد العقايد وقد ذكر قبلها بيسير ما ربما يباين ذلك فانظره . وكذلك ذكر ما هو ابلغ مما يوذن بالاكتفاء بالتقليد عن النظر في علم الكلام في كتابه « التفرقة بين الاسلام والزندقة » ان لم تكن رايتـــه ولم يكن عندك ذلك الكتاب واردت رؤيتـــه اريتكه . وحكم بان من كفّر المقلد الذي لا يعرف علم الكلام ولم يعرف العقايد الشرعية بالادلة المحررة

عندهم مضيق رحمة الله الواسعة وجاعل الجنـــة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين ، الى شناعات اخر . فستراها اذا طالعت ذلك الكتاب . ولعمري ان كلامه لكاف في الباب .

والذي عندي ان الناظر اليوم في علم الكلام وجاعله معتمده عـلى خطر لفقد العلماء بذلك الفن . فاذا علقت بقلبه شبهة من شبه اهل البدع لا يجد احدا يزيلها عنه ولا يباح ذلك الا لمن قصد معرفة الاصطلاح واراد الاطلاع على المذاهب ومواضع الاتفاق والاختلاف . وان كان له تشوف الى مزيد على ذلك فليقتصر من مطالعة كتبهم على ما قرب مرامه ونحا منحى الشرع ونصر اهل السنة كلامه و« كتاب الاقتصاد في الاعتقاد » موف بهذا الغرض ان شاء الله تعالى . وما اودعه اصحاب التفاسير في كتبهم ما عدا خ [sic] وكذلك شراح الحديث في تواليفهم كاف في هذه الاغراض المذكورة .

واعلم ان علم الكلام طب والطب انما يحتاج اليه العليل . وذو الصحة لا حاجة به اليه وتثبيت اليقين في القلوب فضل من الله عز وجل لا تتعين له جهة من الجهات . ابى الله ان يرزق عبده المومن الا من حيث لا يعلم. وما احسن افتقار العبد ولجاه الى مولاه في هذا الحال حقق الله لنا ذلك بفضله» – انتهى .

APPENDICE B

Cinq lettres d'Ibn ʿAbbâd non reproduites dans ses Recueils
(Wanšarîsî, *Miʿyâr*, t. XI. pp. 135 - 140)

ملحق ثانٍ

خمس رسائل لابن عباد لم تأت في مجموعات الرسائـل
(عن الونشريسي ، الميـار ، ١١ ص : ١٣٥ – ١٤٠)

I

[135] وسئل الخطيب الشيخ الصالح العالم ابو عبدالله سيدي محمد بن ابراهيم ابن عباد رضي الله عنه ونفعنا ببركاته عن قول الله تعالى « ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها » الخ . . . ثم قال «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم (كذا) » الآية (٥٧، ٢١–٢٢).

وفهمت عدم ترتب الاسى على سبق المصيبة في كتاب ولم افهم عدم ترتب الفرح عليه . وكنت سألتكم عنه فاجبتموني بجواب بعيد وضاع مني وانا التمس اعادة بركتكم فيه . وقد اراحكم الله من تعبي زمانا طويلا ما كنت لاصبر عنكم بعضه لولا سبق [136] ذلك في الكتاب .

فاجاب رحمه الله ورضي عنه :

« الحمد لله . من فهم احد القسمين فهم الآخر لان الموجب لعدم ترتب الاسى على ما فات انما هو توطين النفس عليه اذا علم انه امر سابق لا بدّ منه فكأنه كان واقعاً به قد مرن على ملاقاته ، ولذلك حمد الصبر عند الصدمة الاولى بخلاف ما بعدها . وكذلك ينسيهم الاثر في الفرح بالموتى لانه يقدر ذلك الشيء في يده ثم يتجدد فلا يفرح . كما يشاهد ذلك في ابناء الدنيا المتنعمين فيها على الدوام ، لا يكون لهم تجدد نعم فلا يقع لهم ذلك الفرح. وكما نشاهد عكسه في فقير تجدد له غنى وسعة فانه لا يملك نفسه ان يفرح فرحا لا مزيد عليه . وما ذلك الا من قبل صدمة التجدد .

ثم ان الاسى والفرح اللذين في الآية الكريمة ليس المراد منها ما الطبع مجبول عليه بل ما يؤدي الى الضجر في الاسى والبطر في الفرح وحينئذ يسهل بهم الكرب في كل واحد منهما .

وهذا ما ظهر لي ولم اتعقل ما كنت كتبت به اليكم ».

II

ثم راجعه السايل وهو الشيخ الفاضل ابو العباس المراكشي بما نصه :

«هذا الكلام صحيح في نفسه غير انه لا يستفاد جميعه من الآية الكريمة. ومن اين يلزم من سبق جميع المصائب في كتاب انتهاء المصاب او غيره من الفرح بما اوتي واين وجه اخذه من الآية الكريمة ، واقل ما يوديه من الالفاظ قول القائل بعد ذكر المصائب :« وما قيل من خير فكذلك » . فما وجه الاستغناء بذكر احد الطرفين دون الآخر ؟ »

فاجاب رضي الله عنه بما نصه (ومن خطها نقلت) :

« اختلف الناس في معنى قوله « ما اصاب من مصيبة » . فقال بعضهم :

« ما حدث من حادث ، خير وشر » ، على معنى لفظ «اصاب» ، لا على عرف «المصيبة» فان عرفها في الشر . فعلى هذا يسقط السوال ولا يحتـاج الى قول القائل :« وما قيل من خير فـكذلك» ، لان الخير مذكور فيها بالنص كالضر سواء . وقال آخرون : انما اراد عرف المصيبة وهو الشر ، وخصها بالذكر لانها اهم على البشر فعلى هذا ، الخير في الاية كالمنصوص عليه، فلا حاجة ايضا الى ذلك القول . بمنزلة قوله تعالى «سرابيل تقيكم الحر » يعـني « والبرد » ، فالبرد في الاية كالمنصوص عليه . فحصل من هذا ان الاسى والفرح في الاية الـكريمة ترتبا ترتبا مساويا على ما تقدم من ذكر المصيبة على القولين وسقط قول السائل :« ومن اين يلزم من سبق المصائب في كتاب انتهاء المصاب او غيره عن الفرح بما اوتي » وظهر وجه اخذه من الاية الـكريمة

III

وسئل ايضاً من قبل ابي العباس المذكور بما نصه :

« الحمد لله. يا سيدي ذكرتم في خطبتكم انعام الله تعالى على عباده مع ما هم عليه من المخالفات وسقتم الاية الشريفة : « قل كل يعمل على شاكلته » (١٧ ، ٨٤) وذكرتم اشارتها لما ذكرتم . واشكل علي اشارتها لما ذكر معنى ولفظا . اما من جهة المعنى فلما ثبت من حسن افعال الله تعالى ، ما كانت ، وعمله سبحانه على شاكلته فيها عذابا كانت او نعيما ، ولا يتم الاستدلال بها على ما ذكر الا اذا انعم على المعرض عن ذكر الله واثيب المنهمك في معاصي الله. فلو عذب على اعراضه وانهاكه في الدنيا والآخرة لخرجت عن هذا الاسلوب. ـ واما من جهة اللفظ فقوله سبحانه « فربكم اعلم بمن هو اهـدى سبيلا » يشهد انها ليست تقسيما بين الرب تعالى وعبيده ، وانما هي خاصة بالعبيد ، فان الهدى والضلال وصفهم الخاص بهم . [137] فبينوا لي اعزكم الله وجه اشارتها.

فاجاب رضي الله عنه :

« لم اصرح بالاشارة بالآية الـكريمة الى ما ذكرت الا بعد ان رايت ذلك منصوصا لبعض المعتبرين ضل عن خاطري الان ، وكنت استحسنت ذلك منه وبقي ذلك الاستحسان مستصحبا بي ، لان باب الرجاء واسعة الرحمة مالوف فيه

التعلق والاحتجاج بالامور الضعيفة وهذه الاية من ذلك الجنس لانه قصد فيها الى ان الناس مختلفة صفاتهم التي تجري على حسب اعمالهم . فمنهم من ركب في سجيته الشر فلا يصدر منه الا ما يوافقه . — هذا هو المقصود بالاية ، اعني ان التقسيم فيها انما هو بين العباد . ولكن من غلب على قلبه شهود صفات الله الباعثة له على الرجاء وحسن الظن وكانت له صفات ذميمة تصدر عنها افعال تناسبها ، ثم اتفق ان سمع قارئا يقرأ « قل كل يعمل على شاكلته » — فانه لا محالة حينئذ يستفزه الفرح ويذهب به الاستبشار والسرور كل مذهب وياخذ الفال منها — فان الله تعالى لا يعامله الا بما يليق بفضله وكرمه ، لا بما هو من شاكلة ذلك الانسان. ولا شك ان هذا حال حسن والعمل عليه ، وان كانت الاية ما تقدمها وما تاخر عنها لا يطابق ما فهم اذ ذاك .

وهذا هو معنى الاشارة التي هي تخالف العبارة . فالعبارة يشترط فيها التطابق والموافقة والاشارة لا يشترط فيها ذلك . بل ربما تكون اقبل اذا كان في الكلام نوع بعد . وارباب الاشارة عندهم من هذا النوع كثير . وقد قال بعضهم في قوله تعالى «الم تر الى ربك كيف مد الظل» (٢٥،٤٥) ان الاشارة بذلك الى الرؤية التي اعطيها نبينا محمد صلعم ومنعها موسى عليه السلام. ويقف على هذا على قوله « الى ربك » مع ان قوله «كيف مدّ الظل» يقضي بان المقصود خلاف ذلك . واخذ بعضهم الاشارة من قوله تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » (٣٩ ، ٤٧) الى كرم الله تعالى الذي يبدو في الاخرة لمن لم يكن يحتسبه في الدنيا . ولا شك ان الاية انما هي في عكس ذلك. الى غير هذا مما لم يحضرني الآن. ولو لم اره منصوصا كما قلت اولا لم اتجاسر على اخذ الاشارة مستقلا في ذلك بنفسي . ولكني تانست بمن استنبط ذلك ، « وربك اعلم بمن هو اهدى سبيلا » (١٧ ، ٨٤) .

IV

وسئل رضي الله عنه عن وجه لبسه لنصافية بطرز على عاتقها كان يخطب بها ، فاجاب بما نصه :

« الحمد لله . يا اخي — وفقنا الله للعمل الصالح بفضله — يكفي في جواب

ما سألتم عنه من شأن اللباس اني لم ادّعي حالا يخالف ظاهر الزي ولم اتصف به [138] . وقد لا تعدمون التصريح بذلك في مواضع من تلك الرسائل التي تطالعونها . وتعاطي ما ليس يواطيء عليه القلب من الاعمال والتروك لاجل نظر الناس تصنع وتكلف . وان اتفق ان يتكلف ذلك لاجل توهم نفع يقع للغير بسبب ما يراه لم يقع ذلك الامر على ما ينبغي . ثم ان اعتماد الاسباب وجعلها هي الامر المهم ليس من شاني ولا ارى به . وكثيرًا ما يعتمدها الناس ثم لا ينجح لهم ارب ، وكثيرًا ما يلقيها بعضهم ثم يظفر بكل ما طلب .

ثم ان لبس ذلك الثوب ليس لي فيه غرض اهم من انـه لائق بالتجمل المطلوب في اليوم الذي يقع فيه لبسه . ولم اتكلف شراءه ابتداء وانما جاءني عفوا صفوا فلبسته لذلك الغرض ، ولغرض آخر يقع مني استمرار لباسه وهو ما وقع في الوجود مما هو غاية الكمال فيه وهو تحير بني طليب في امره وقولهم ما شاء الله ان يقولوا : ذلك الذي يكرهون مني ذلك الذي يشتهيه قلبي. لكن لو لم يقع لي تالم بتعاطي ما يخالف مرادهم لحصلت على اعظم الغبطة ويأبى الله الا ما يريد .

واما ما اشرتم اليه من اختلاف لسان الحال مع لسان المقال فليس ذلك بموجود لاني لم اسلك في الخطبة مسلك الوعظ فتستقيم المطالبـة لي بموافقتها كما قال القائل :« لا تنه عن خلق وتاتي مثله » (الابيات) . وانما سلكت فيهـا مسلك التعليم . واحتياج الناس اليوم الى العلم سابق على احتياجهم الى العمل . وحصول العلم لهم لا يمنع منه كون المعلم غير عامل به ، وعدم عمل العالم بعلمه لا يمنع من تعليمه الغير عند متطلبة هذه الازمنة . فكيف يعترضون بشيء تقولون به ؟ فان وقع منا وعظ على سبيل الندور ، فان كان الذي يتضمنه دعاء الى امر لم اتصف به ولم تكن لي فيه قدم شركت نفسي معهم بالمخاطبة واشرت الى ان ذلك مما ينبغي لي ولهم . ولا سبيل لاحد ان ينكر هذا الاسلوب من الوعظ . وهو في ذلك بمنزلة مريض يقول لجماعة من المرضى : الراي ان يقصد الى الدواء الفلاني فنداوي به مرضنا . فهذا الكلام منـه لا يستنكر ولا يستبعد حصول الفائدة به للغير . ولم يسلك الذي ذكرتم في وعظه وخطبته هذا المسلك ولذلك فعل معه ابو ذر رضي الله عنه ما فعل .

وان كان الذي يتضمنه ذلك الوعظ دعاء الى امر اوى اني متصف به لم اشرك نفسي معهم بل اقول لهم ما معناه : يا ايها الناس ، افعلوا واصنعوا ، ومن حقكم ان تفعلوا كذا وتصنعوا كذا ، — وذلك مستقيم ايضاً ، بمنزلة طبيب سلمه الله تعالى من بعض العلل او بريء منه فهو يدل غيره ممن اصيب بتلك العلة [139] . وهذا ايضاً لا يستبعد حصول الفائدة به متحققة كما تحقق لمن هو صحيح كامل الصحة . ولكن عند من يحسن ظنه به ولم يكن في زيّه ما يخالف ما ارشد اليه .

فبهذا يرتفع عنكم الالتباس والاشكال فيما ذكرتم من الحال والمقال . ويتبين لكم اعترافي وانصافي في لبس ذلك الثوب النصافي . والانصاف من محاسن اوصاف الاشراف. وهو في كل انسان محمود بكل لسان — اعني ألسنة العقلاء النبلاء .

فان عرضتم هذا الذي ذكرناه على بعض من يتلون بالتكلم معه وقبله ، وأقرّ بصحته ، فهو منهم والا فلا تبال ولا تحرق مزاجك معه فيثور عليك حر الصفراء ثم يتعقب ذلك برد السوداء مع ما انت فيه من التقشف والقلة. وهذا هو الرأي السديد مع مثل هذا الشخص الذي هو من الانصاف بعيد .

فهذا ما حضرني من الكلام على ما اشرتم اليه . والله تعالى ينفعكم باعتقادكم وما انتم عليه من جميل ودادكم .

V

وقال رضي الله عنه مجاوباً لصديقه السيد ابي العباس المراكشي بما نصه :

« الحمد لله . لما وقفت على كتابك ورايت فيه المنزلة التي انزلتني فيها والحالة التي انا في خاطري عليها والامر بالضد والعكس — وستر الله الجميل هو الذي يحبب الناس الى الناس—وقد انكشف بعض حالي لمن كان في غاية الغرام بي فمقتني وهجرني ورفضني ، ولا ادري هل اصاب في ذلك ام اخطأ . فعش بهذا الاعتقاد فيّ نفسا من قبل ان ينكشف لك من امري ما كان على غيرك ملتبسا . وقد عزّ علي تعبك في قلبك وبدنك من اجل ما توهمته مني—ولكن لا يضيع لك ذلك عند ربك .

واما ما ذكرت من حالك مع نفسك وهواك وشيطانك، فانا في ذلك مثلك او اشد وخصوصاً لما جئت لهذه البلدة وحصلت في هــذه الخطة التي هي من اكبر اسباب الفتن ، على حال كبر في السن وضعف في القوى الحسيــة والقلبية واقتراب من الانتقال للدار الآخرة . الا انك زدت عليّ بالعزيمة والقريحة التي بها تعاطيت تلك الاعمال التي تلونت فيها وتقلبت في سفرك وحضرك . فاني لم اتشاغل بشيء من ذلك ولم آخــذ نفسي به . فانت عليل ، ولـكنك حاولت الادوية وباشرت الاطباء ، فلم يغن ذلك عنك في نظرك شيئا . واما انا فقد الفت العلل وجبنت عن تناول ادويتها الـكريهة مع علمي بالهلاك الذي يؤول اليه حالي ورضائي به .— فنسأل الله تعالى ان يصلح من احوال جميعنا ما فسد، ان كان مجرد سؤال اللسان يكفي في هذا الغرض المعتمد .

واما قولك : ان اذنت لي في ان شرح لك حاليَ بابلغ من هذا فعلت ، — فقدر اني اذنت لك في ذلك ووقع ذلك الشرح ، ولـكن [140] تـكون في ذلك بمنزلة من يعرض دقائق علته على من استحكمت فيه تلك العلة او ما هو اشد منها . فاني يجدي له ذلك فائدة في الاستشفاء الذي قصده والبرء الذي اعتمده ؟ ولا باس اذا اشتركنا في العلة ان اعرض عليك امرا استحسنه لنفسي ولغيري ان اكون عليه ونسلك في ذلك سبيل الادب ونربح في الحال الراحة من التعب .

وهو ان نضرب عن تلكم العلل صفحا ونكون ابناء وقتنا ويكون عملنا فيه ومعاملتنا ان نطالع النعم التي لله تعــالى علينا ، متبرئين في ذلك من حولنا وقوتنا ، متعلقين بالله تعالى التجاء وافتقارا في ان يوفقنا اشكرها ، ونقتصر على هذا ونجعله وظيفة كل زمان يمر علينا ولا نطلع الى غير ذلك ولا نتشوف اليه ولا نحرص عليه . فاللجا والافتقار والتواضع والانـكسار هو الباب الى كل خير لا غير. ثم ان صدرت منا صورة طاعة رجونا فضل من تفضل بها واوصلها الينا ، وان وقعت منا معصية خفنا عدل من قضى بها وقدرها علينا . فألتزام حال العبودية لا يليق بالعبد سواه ولا اعلم مقصدا صحيحا حاشاه ، كالشخص الذي لوى راسه تحت طي جناحه . وما احسن حال من تحقق بذلك وما اعلى مقامه.—فنسال الله تعالى ان يرحمنا به ، انه الجواد الرحيم .

فتدبر يا اخي ما عرضته عليك والقيته اليك ، فان ظهر لك صوابه واستحسنته فشانك واياه ، فالتزمه واجعله قبالة قلبك وداوم عليه على اي حالة تكون ، والا فما عندي ما اقول لك .

والابيات التي ذكرتم في غاية الحسن والملاحة ، وسرها ولبابها ما تضمنه عجز البيت الرابع والله الموفق لا رب غيره . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . والسلام عليكم .

(والابيات المذكورة هي هذه :

قد كنت احسب ان حبك هيّن تفنى عليه لطائف الارواح
وظننت جهلا ان وصلك يشترى بكرائم الاموال والارباح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من تختاره بعظائم الامناح
فعلمت انك لا تنال بحيلة فلويت راسي تحت طيّ جناح
وجعلت في عش الغرام اقامتي فيه غدوي دائمًا ورواح .)

APPENDICE C

Lettre d'Ibn 'Abbâd à Abû Isḥâq aš-Sâṭibî
(Version Wanšarisî. *Mi'yâr*, t. XII· pp. 201 - 211)

ملحق ثالث

رسالة لابن عباد الى ابي اسحق الشاطبي
(عن الونشريسي ، المعيار ١٢ : ٢٠١ – ٢٠٢)

[201] سؤال في علم التصوف كتب فيه من غرناطة قاعدة الاندلس الشيخ العالم العارف المحقق سيدي ابو اسحق الشاطبي رحمه الله للشيخ المحقق العالم الصالح الرباني ابي عبدالله سيدي محمد بن ابراهيم بن محمد بن مالك بن ابراهيم بن يحيي ابن عباد النفزى الرندي افاض الله علينا من بركاتهم ومنحنا حظا وافرا من عنايتهم . — فاجاب رحمه الله ونفع به بما نصه :

« الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله وعبده وعلى آله وصحبه وسلم. من محمد بن عباد لطف الله به الى ابي [اسحاق] ابراهيم الشاطبي

وصل الله حفظه واجزل من خير الـداربن حظه بمنه وكرمه . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

اما بعد فقد بلغني كتابكم وتعرفت منه ما طلبتم . والذي اعلمكم به قبل كل شيء اني لست باهل للاخذ في مثـل ذلك ولا استحسنه من نفسي لوجوه — احدها اني اعلم قصور باعي في فنّ التصوف من قبل اني لم آخذ فيه مع من له ذوق وتحقق فيه من اهله ولم اعن بتطلبهم والبحث عليهم . واكثر شاني انما هو الاشتغال بمطالعة بعض كتب القوم لا غير . فان تكلمت في ذلك بشيء كنت عرضة لوقوع الزلل والخطأ كثيرا . والثاني ان في ذلك من سوء الادب معهم لانهم عباد الله المخصوصون بالقرب والولاية له . ومن هو في غاية البعد عنهم في الرتبة ونهاية الاجنبية منهم في النسبة كيف يجمل بـه ان يخبر عنهم او يذكر حالهم . والكلام على الامر المطلوب يدعي ذلك. والثالث ان النية منا يبعد تخلصها في ذلك اذ غاية مـا يعرض ان يكون كلامي فيه تعليما لجاهل بامر غير واجب عليه في ظاهر الشرع ولا يصح ذلك الا ممن فرغ من تأديب نفسه وعمل على خلاصها بما هو بصدده من ارتكاب الآثام واجتنـاب الاجرام . فان اشتغل مع هذه الحال بغيره في شيء لا يلزمه لم تتخلص فيه نيته ولم تتحصل له امنيته وكان متكلفا آخـذا بما لا يعنيه . فهذه وجوه ثلاثة في واحد منها كفاية في وجوب الكفّ عن هذا الامر . لكني اقول على حسب ما الفناه واعتدناه من الاسترسال في مثل هذا على سبيل القربة والحسبة : قد قرأت كتابيكم وفهمت مضمنها ولا يمكنني ان اتكلم على جميـع فصولها بتصحيح او ابطال لأن الكلام فيها قد طال وتشعب وذهب كل مذهب. وانا اذكر لكم ما فهمته في امر الشيخ وما ظهر لي من كيفية بداية السلوك الى الحق على حسب الاختصار والايجاز لاني ارى الكلام في هذا الفنّ وما يتعلق به القليل منه اولى من الكثير ، والايمـاء والتلويح ابلغ من [202] الافصاح والتصريح . ولا التزم كون ما اذكره صحيحا في نفس الامر حتى يحتاج الى نصب الادلة والبراهين على ما تدعيه . وانما نسوق ذلك على حسب حكاية مذهب من المذاهب . والمحرك لذلك يصححه او يبطله ان احب . وما وقع فيه من نوع استدلال على مطلب من المطالب فانا في ذلك متبرع فان صح

ذلك الدليل فهو المطلوب وان بطل لم يلزم من بطلانه بطــلان المدلول ويبقى المذهب قابــلا للتصحيح او الابطال من غير ان يتوجه على مطالبة بذلك . والحامل لي على سلوك هذا السبيل ما فيه من وجدان السلامــة لي من الخطر الذي يتعرض له كل من يتكلم على طريق التصوف ممن لا تحقيق له فيــه ويدعي صحة ما ينظره بعقله وفهمه وينسب ذلك الى القوم . ولعلّ شيئا من ذلك لا يصح عندهم فيكون بذلك مفتريا كذابا عليهم . ثم فيه من سوء الادب معهم والتقدم بين ايديهم ما لا يستقيم به شيء . وعند ذلك يكون الخرس والبكم وذهاب الحس والحركة اولى به عاقبته فتخلصه بذلك من شر لسانه ويده .— ثم ان ذلك لا يمنع من حصول الفائدة لمن اراده الله تعالى بذلك . فعلى العبد ان يفعل على خلاص نفسه ولا يلزمه اتباع مرضاة غيره ، وقد قيل: رضى الناس غاية ما تدرك .

فان استحسنتم ذلك وانشرحت له صدوركم فيها ونعمت . والا فاجعلوني احد المشاطرين وقدروا كلامي ذلك مذهبا ثالثا لهم وسلوا عن جميعهــا من يداكم الله تعالى عليه ويهديكم اليــه . وان رايتم ان تعلمونا بما يستقر عليه الحال من بيان او اشكال فحسن . والله تعالى يفتح علينا وعليكم وهو الفتاح العليم .

الذي اراه ان الشيخ في سلوك طريق التصوف على الجملة امر لازم لا يسع احد انكاره وكان هذا من الامور الضرورية . لكن الشيخ شيخان : شيخ تعليم وتربية وشيخ تعليم بلا تربية . فشيخ التربية ليس بضروري لكل سالك وانما يحتاج اليه منه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس . واما من كان وافر العقل منقاد النفس فليس بلازم في حقه وتقيده به من باب الاولى . واما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك . وكتب اهل التصوف مرجعها الى شيخ التعليم لان الاستفادة منها لا تصح الا باعتقاد الناظر فيها ان مؤلفهــا من اهل العلم والمعرفة وممن يصح الاقتداء بــه . ولا يصح هذا الاعتقاد الا من قبل شيخ معتمد عليه عنده او من طريق يثق به . فان كان ما يستفيد منها بيّنا موافقا لظاهر الشرع اكتفى بذلك والا فلا بد له من مراجعة شيخ يبينه له. فالشيخ

اذا لا بد منه على كل حال لان الشيخ دليل على طريق الله تعالى بمنزلة الدليل على الطريق المحسوسة كما ذكره اصحاب المناظرة. وقد قيل : من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه .

اما كون شيخ التربية لازما لمن ذكرناه من السالكين فظاهر لان حجب انفسهم كثيفة جدا ولا يستقل برفعها واماطتها الا الشيخ المربي . وفيهم يتحقق اكثر ما ذكره مشترطوا الشيخ من اصحاب المناظرة وألزموه لخصومهم . وهم بمنزلة من له علل مزمنة من المرض فانهم لا محـالة يحتاجون الى طبيب ماهر يعالج عللهم بالادوية القاهرة .

واما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس فلان وفور عقله وانقياد نفسه [203] يغنيانه عنه فيستقيم له من العمل بما يلقيه اليه الشيخ — شيخ التعليم — او يأخذه من الكتب ما لا يستقيم لغيره. وهو واصل باذن الله تعالى ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك اذا قصده من وجهه وأتاه من بابه على ما نذكره ان شاء الله تعالى . — الا انه قد لا يكمل كما يكمل من تقيد بالشيخ المربي لان النفس ابدا كثيفة الحجاب عظيمة الاشراك فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها ولا يزول عنهـا ذلك بالكلية الا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر ولذلك قلنا انه من باب الاولى .— فان تقيد به لزمه من الاحكام التي يلتزمها مع الشيخ ما لزم الآخر فيجب عليه ان يطالعه بجميع اموره ويعرض عليه مـا يستفيده من شيخ التعليم ومن الكتاب ولا يعقد على شيء من ذلك ولا يعمل به الا باذنه .

واعتماد الشيخ المربي هو طريقة الائمة المتأخرين من الصوفية . وشان سالكي هذه الطريقة تهذيب اخلاقهم ورياضة نفوسهم بما يلزمهم الشيخ من الدخول في الخلوة وملازمة الذكر الذي يلقنه لهم والتقليل من الطعام والكلام والمنام الى غير ذلك من الاحكام التي يلتزمون بها مع الشيخ المربي . فـاذا تموا على سلوكهم تحت ايالـة شيخهم كانوا كاملين وصلح الاقتداء بهم الصلاحية التامة . ويشترط في هذا الشيخ شروط ذكرها ائمة هذا الشأن رضي الله عنهم ويشترط فيه ان يكون منفردا بالتربية للسالك .

واعتماد شيخ التعليم هو طريق الاوائل منهم ويظهر هذا من كتب كثير

مصنفيهم كالحارث بن اسد المحاسبي والشيخ ابي طالب المكي وغيرهما من اجل انهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره ايمة المتاخرين مع انهم ذكروا اصول علوم القوم وفروعها وسوابقها ولواحقها لا سيما الشيخ ابي طالب . فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك . وشأن سالكي هذه الطريقة هو تهذيب اخلاقهم ورياضة نفوسهم باستعمالهم العلم الظاهر والباطن في احوالهم التي تختلف عليهم من غنى او فقر او صحة او مرض او حضر او سفر او رخاء او شدة او فرح او حزن او غير ذلك من الاحوال التي يتجدد عليهم فيتصرفون في كل حالة من هذه الاحوال بما يلقيه شيخ التعليم عليهم من احكام الشريعة والطريقة على ما يرونه لايقا بحالهم واقرب الى سلامة عقولهم وابدانهم من غير افراط ولا تفريط .— ولا يشترط في شيخ التعليم الانفراد كما يشترط ذلك في شيخ التربية .

وهذه هي الطريق السابلة التي انتهجها اكثر السالكين وهي اشبه بحال السلف الاقدمين اذ لم ينقل عنهم انهم اتخذوا شيوخ التربية وتقيدوا بهم والتزموا معهم ما يلتزمه التلميذ مع الشيخ المربي . وانما كان حالهم اقتباس العلوم واستصلاح الاحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض ، ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون اثره في بواطنهم وظواهرهم . ولذلك جالوا في البلاد وقصدوا الى لقاء الاولياء والعلماء والعباد .

وشيخ التربية في هذه الازمنة متعذر وجوده أعز من الكبريت الاحمر . هذا هو الظاهر . واذا كانت هذه المسئلة التي وقعت المناظرة فيها — وهي [204] من مبادي تصور وجه السلوك وكيفيته — التبست واستعجم امرها فكيف يكون الحال في نفس السلوك ومداواة ما يعرض فيه من الافات والعلل . ولست ادري اي المصيبتين اعظم فقد الشيخ المربي او عدم التلميذ الصادق . فانا لله وانا اليه راجعون .

فان قيل : فماذا يصنع اذا من يلزمه اتخاذ شيخ التربية في هذا الزمن الذي بلغ الغاية في الفساد واستولى فيه الجهل على كافة العباد؟ وهل يستقيم له سلوك سبيل المتقدمين في زمانهم وهو احسن الازمان ومع اخوانهم وهم افضل الاخوان وذلك لقربه من زمن النبوة التي انتشرت فيه انوار الايمان واليقين

وتمكن الدين بذلك اي تمكن.فالمومنون كلهم اذ ذاك مستقيمون في عقائدهم واعمالهم واحوالهم والكائن بينهم على غير سبيلهم ومناهجهم نادر ما ارى هذا الا بعيدا لا سيما في بلادة ذهنه واستعصاء نفسه على حسب ما فرضتم .

فاقول : ليس ذلك ببعيد وذلك ان حالة التصوف مخصوصة بمخصوصين لا يفتح بابها ولا يرفع حجابها الا من آثره الحق تعالى واصطفاه واختصه واجتباه. وكل من اصطفاه الحق تعالى واختصه لا سبيل الى كون من الاكوان اليه بل تولاه الحق تعالى بحفظه ونصره ويمده بمعونته وبره . وعليه ان يفعل ما يفعله سالكو تلك الطريق. وذلك بان يفر عن مواضع الفتن والشرور ويعزل مجالس العامة والجمهور ويقطع عن نفسه العلائق الظاهرة التي تدعوه الى ارتكاب الآثام والفجور . فاذا فعل ذلك فليبحث عن اخلاق السلف واحوالهم مع الله في اقامة عبوديته واخلاص مساعيهم اليه . وليطلب ذلك في مضانه وعند اهله وفي كتب ايمة هذا الشان . وليأخذ نفسه بالعمل بما يستفيده من ذلك ولو مسئلة واحدة . مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومجتنبا للغلو والتنطع . فاذا قام بذلك على ما ينبغي له فقد التحق بالاولين وفاز قصب السبق في الاخرين وكان من الغرباء الذين طوبى لهم . وعند ذلك تترادف عليه انواع المزيد ويستمر في سلوكه على نهج سديد ويبعث الله اليه من الهداة المرشدين من تسكن اليه نفسه ويطمئن به قلبه . وقد يقيض الله تعالى في اثناء ذلك شيخا ربانيا يرقيه بهمته في اسرع وقت . وقد قال تعالى :« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (٢٩ ، ٦٩). وليس على المريد الا تصحيح نيته مع الله تعالى وتحسين ظنه به فاذا هو قد وصل . بل لا مدخل له في هذا التحقيق . فاذا فرضنا شخصاً انبعثت همته الى سلوك هذه الطريق واجتهد في الاعمال التي ذكرناها ولم يظهر له بارقة من نور وبقي في ظلمات الجهل والغرور فليعلم انه لم يؤهل لهذه الطريقة. ويكون حاله اذ ذاك حال عامة الابرار الذين شانهم الاقتصار على اتباع ظاهر الشرع والعمل على طلب الجزاء والعوض ، فيلزمه الرجوع الى علماء الظاهر في نوازله : «كلّا نمد هولاء وهولاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا» (١٧ ، ٢١) .

والذي ينبغي ان يعتمده المريدون في بداية امرهم قبل احتياجهم الى شيخ او كتاب يستفيدون منه جزءيات السلوك ان يصححوا قصدهم بمراعاة الصدق

مع الله تعالى [205]. فمن اراد ان يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق فان الله مع الصادقين . — قال ذو النون المصري رضي الله عنه : الصدق سيف الله ما وضع على شيء الا قطعه . وذلك بان يكلفوا انفسهم ويستعملوها بمقتضى حال التصوف من البراءة من الدعوى والعكوف بالقلب على باب المولى وحسن الظن وصدق الرجاء والوقوف بين يدي الله تعالى على قدم الهيبة والحياء . فبالتزامهم لهذه الاشياء وحمل انفسهم عليها يستجزون من الله تعالى الموعود ويصلون الى المرغوب والمقصود.— والقاصد الى سلوك طريق التصوف بما يضاده من الاختيار والدعوى وشدة الطلب وقوة الحرص وغلبة الطمع كطالب في الماء محدوث نار. وقد قالوا : ابواب الملوك لا تقرع بالايدي بل بنفس المحتاج .

وليعلم المسترشد ان حالة التصوف اثرة من الله تعالى وتخصيص لبعض عباده وعناية بهم . ولقد كانوا منفردين بحالهم عن اشكالهم ولا مطمع لغيرهم في الاحاطة بكنه امرهم . كما قال المشائخ : الصوفية اهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم . وذلك ان الله تعالى لما اراد ان يكون له اهلين من خلقه — ومعنى ذلك ان يكونوا به وله — قذف الايمان في قلوبهم وكتبه فيها وايدهم بروح منه وكل ذلك من غير تقدم وسيلة ولا سببية منهم . فلما منّ عليهم بذلك واشهدهم تلك المنة فتح لهم باب اللجا والافتقار اليه وراوا انفسهم بعين العجز وقلة الحيلة وغاية الضعف والفاقة . فلما فتح الله لهم هذا الباب تلقاهم منه بانواع التحف والكرامات والالطاف والمنن تحقيقا لوعده في كفاية عباده المفتقرين اليه واللائذين بجنابه. فازدادت اذ ذاك انوار ايمانهم وتضاعفت والحق تعالى يصرفهم في احوالهم واعمالهم على حسب ما يليح لهم من الانوار وما يجلي لقلوبهم من الاسرار . فلم يزل هذا دابهم وملازمة باب الله تعالى شانهم ومذهبهم الى ان وصلوا الى مقام الاحسان . وهناك تراءى لهم محض التوحيد وتحققوا بخالص التجريد فانمحت اذ ذاك رسوم بشريتهم وبطلت احكام انيتهم وعند وجود العيان فقدت الاعيان « وقد جاء الحق وزهق الباطل — ان الباطل كان زهوقا » (١٧، ٨١) . وهذه هي الغاية التي هي بغية اعمالهم والمنية التي استحقروا في جنب نيلها بذل نفوسهم واموالهم. وبذلك يتحقق لهم اخلاص عبوديتهم لربهم ويتخلصون من روية اخلاصهم ولا مطلب لهم سوى هذا .

ويستوي في هذا مجذوبهم وسالكهم — الا ان المجذوبين اوصلهم الى هذا المقام في اقرب زمان من غير معاناة ولا تعب ، والسالكين على عكس هذا . وجميعهم لم يخلهم الله تعالى من وجود كلاءته ورعايته في اطوارهم كلها من بداية ونهاية . فكانوا بذلك منفعلين لا فاعلين ولذلك قال الشبلي رض : الصوفية اطفال في حجر الحق .

فان قلت : هذا جبر محض وانت لا تقول بالجبر . — فاقول التعبير ههنا بالجبر ظلم في حق هذا المقام لان مفهوم الجبر لا يتصور الا في عالم الحجاب والفرق حيث يتصور وجود الجابر والمجبور عليه وما به يقع الجبر . والمعدومات كلها اوهام وخيالات عند ارباب الكشف والشهود . والجبر في هذا العالم باطل قطعا لان لسان الشرع [206] اثبت الاختيار والكسب للعبد وعليه يقع الثواب والعقاب. واما في حضرة الجمع وشهود الاحدية فلا يتصور وجود الجبر. فانتم ترون هذه الحال كيف اختصت بتولي الحق سبحانه لمن اختصه بها من غير ان يكله الى طلب او سعي يعتمده بنفسه . . . (انظر ص١٠٤) وانما حرموا الوصول بتضييعهم الاصول . ثم بعد هذا يعتمد الى عمل واحد مثلا من اعمال اهل السلوك مما يتعين عليه القيام به وقد كان حصل له عمله من قبل ولو لم يكن الا توبة عن معصية او تورعا عن شبهة او غير ذلك من اعمال ظاهرة او اعمال باطنة ويبادر الى ايقاعه مخافة فوته ولا يترقب وقتا ثانيا يترقب فيه وجدان مطلبه من شيخ او كتاب . فاذا فعل ذلك مراقبا لله تعالى ومصححا تقواه له وعاملا بما امره به فقد حصل على اعظم الرجاء في ان يعلمه الله تعالى ما جهله مما يحتاج اليه في سلوكه تحقيقا لوعده في قوله عز وجل: «واتقوا الله ويعلمكم الله» . وفي قوله عزّ من قائل « يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » — ويكون ذلك اما بان يقيض له شيخا يهديه ويؤدبه او يفتح عليه من كتاب . واما بان يلقي ذلك في قلبه من غير [207] توسط بسبب من الاسباب — الا ان يرزق الله عبده المومن من حيث لا يعلم. ومن الرزق الغير المعلوم للعبد ارزاق العلوم والمفهوم . وكم من مسئلة مشكلة على بعض الناس يتحير فيها فيسأل عنها من يظن به القدرة على بيانها والكشف عنها فلا يصدق ظنه فيه ولا يجد عنده معرفة ما اشكل عليه ثم يستمع في ذلك البيان الشافي

ممن هو دونه ممن لا يظن به ذلك . فان لم يكن ذلك بسؤال منه فواضح ان لا مدخل له في ذلك، وان وقع منه السؤال فقد كان عند ايراده له قد تصور في خاطره امورا جملية وهو ينتظر الجواب ببعض تفاصيلها فيجيبه بامر لا يتصوره جملة ولا تفصيلا فيتحقق كونه معزولا عن امره كله — وحبذا ذلك لانه من جملة الادلة لنا على وجود عزة الله تعالى وكبريائه ، اذ العزيز الكبير لا يتوصل الى شيء مما عنده بقوة ولا حيلة ولا سبيل لاحد الى ذلك الا بتصحيح الصدق واخلاص القصد والتحقيق بالافتقار والذل بين يديه فهو المعطي المانع لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع .

فهذا هو مبدأ طريق السالك الى منازلة حال التصوف ولا نهاية له الا بالتحقيق بما تخلق به من المعاني التي ذكرناها لا غير ، «وذلك فضل الله يوتيه من يشاء » (٥٧ ، ٢١) . والامر المتفق عليه عند العارفين ان لا وصول الى الله الا بالله ولا حجاب للعبد عن الله الا نفسه . والنفس لا تجاهد بالنفس وانما تجاهد النفس بالله . فاذا جوهدت النفس بالله لم يتصور في طريق السلوك قاطع ولا مانع لوجود حفظ الله وكلاءته وتاييده للمريد السالك بما شاء وكيف شاء . ولا تزال حجب نفسه الظلمانية والنورانية ترتفع وتزول شيئا فشيئا حتى ياتيه اليقين .

فان قيل : هذا منزع غريب وامر عجيب لم يذهب اليه احد من اهل السلوك لا سيما اصحاب المناظرة فانهم فرضوا غاية الوصول ينتهي اليها السالك وجعلوا بينه وبينها مفاوز ومهاو وقد ترصد له فيها اعداء وقطاع يمنعونه من السلوك ويوقعونه في اشراكهم وحبائلهم، وقد اتفق اصحاب المناظرة على هذا، وانما اختلفوا هل يكتفي بالكتب في قطع تلك المفازات والمهاوي او لا بد من الشيخ ايضا ولم نر احدا من المصنفين اعتمد ما ذكرتموه ، ولو كان صحيحا لنصوا عليه ولا اكتفوا به عن كل ما رسموه وطولوا الكلام فيه .

فاقول : ما ذكرناه هو حاصل كلامهم ولباب ما عندهم وليس ذلك بخلاف لهم، وكيف يكون ذلك ومن كلامهم استنبطناه وعلى منوالهم نسجناه . لكن المعلوم المقرر ان عقول الناس مختلفة وفهومهم متفاوتة واحوالهم لا تجرى على منهاج واحد بل لكل منهم وجهة هو موليها ولهم في ذلك اغراض الله اعلم بها . فترى بعضهم يرمز ويومىء وبعضهم يصرح ولا يكني وتجدهم

يعبرون بعبارات كثيرة ، والمقصود من ذلك معنى واحد، ويعبرون باللفظ الواحد والمراد منه معان كثيرة . وتارة يفصلون واخرى يجملون ، وطورا يقدمون وطورا يحجمون ، وكل ذلك على حسب الوجوه التي يوجههم الله تعالى اليها والمسالك التي يسلك بهم عليها [208] . ولا شيء من العلوم اكثر اختلافا فيما ذكرناه من هذا العلم. فمن نظر الى ما رسموه وقصد الى تعرف الحق منه تشعبت عليه المسالك ولم يحصل الا على الحيرة والدهشة لا سيما من الف العلوم الظاهرة وتمرن فيها وجبل عليها ثم قصد الى تعلم علوم القوم والتصرف فيها على حسب ما تقتضيه قواعد علمه ، فانه ابعد الناس عنها واشدهم افلاسا منها . وكل ما فهمه واحاط به ادراكه لا يخرج عن مبادىء هذا العلم ومقدماته ، واما حقائقه فلا يحظى منها بشيء لمباينة ذلك لعلومهم المباينة التامة ، ولاجل ذلك وقع منهم الانكار على الصوفية وامتحن كثير من المشائخ على ايديهم ونسبوا الى الكفر والزندقة وغير ذلك من انواع الظلال والبدعة . ولولا سر الخصوصية التي ذكرناها لكان هولاء الظاهريون اولى الناس بنيله والحصول عليه لما هم عليه من كثرة الاجتهاد والنظر ولما بايديهم من العلوم العقلية والنقلية .

ولو كان العبد لا يصل الى الله تعالى الا بتتبع جميع ما ذكروه بالتفهم والتصحيح ثم العمل على مقتضى ما فهمه وصح عنده لم يصل ابدا ولذهب عمره ضائعا . ولهذا كان اعتماد الكتب غير مجد لصاحبه ولا نافع من علته . كيف والامر بحمد الله اقرب من هذا كله : لان الله تعالى بعث الينا رسوله صلعم بالحقيقة السمحة ولم يجعل علينا في الدين من حرج—واي حرج اعظم من معاناة السلوك على ما الناس عليه من التفرق والاختلاف وعدم الهداة المرشدين . فاذا وجدنا طريقا الى الله مختصرا قد اتصف بالسهولة والسعة ونفي الحرج والمشقة علمنا انه طريقنا الى الحق، وليس ذلك الا ما ذكرنا بدايته واشرنا الى نهايته، ويشترك في السلوك عليه كل من اختصه الله تعالى بالايمان والتوحيد ، وانما يتفاوتون في السرعة والابطاء لا غير بحسب تفاوتهم في الخصوصية . ثم يصل كل سالك منهم الى ما قرر له وليس للسالك غاية ينتهي اليها بل له في كل حال سلوك ووصول وعليه في كل حين تخل ثم له بعده تحل وتجل على حسب ما ينزله من المنازل ويحل فيه من المواطن . وليس في طريق الله تعالى مفازة

ولا متاهة كما توهمه اصحاب المناظرة بل يكون له في كل منزل يستنزله دار وقرار ويتاتى له في كل حال وترحال اعوان وانصار . وانما تكون المفازات والمتاهات في اقامة العبد على مألوفاته ومعتاداته حين يجد طعم نفسه ويقف مع نظره وحدسه ويتبين له مصداق هذا عند انكشاف الغطاء — ونعوذ بالله من سوء القضاء .

فاذًا لا ينبغي للعبد ان يمتنع من الاخذ في السلوك بسبب عدم وجدان شيخ يراجعه في جزئيات سلوكه ويبقى منتظرا لوجود الشيخ . بل يبادر الى السلوك على النحو الذي ذكرناه من قبل، وما يحصل له من نتائج بدايته مزيد كبير لا ينبغي ان يستحقره المريد بل يغتبط به ويشد يد الضنين عليه . وذلك من شكر هذه النعمة المقتضي لوجود المزيد منها . ولا ينبغي له ايضا ان يشتغل عن ذلك بطلب الشيخ فان الوصول اليه بالطلب المجرد لا يتصور لانه من منح الله تعالى وهداياه للعبد [209] المريد اذا استفرغ في السلوك جهده واستنفد جميع ما عنده قلّ او جلّ . ولاجل هذا يقيضه الله تعالى له على افضلّ حال سالما من البدع والضلال فيأمن بذلك المريد مما يقع فيه كل من اعتمد الشيخ بالطلب والتفتيش من الافات السابقة واللاحقة كما وقع لارباب النحل والمذاهب .

فاذا علم المريد هذه الجملة علم يقين استقام له الدخول في هذه الطريق بقرة عين وانشراح صدر ولم يتعب نفسه ولا عقله بالنظر في ما ذكره اصحاب المناظرة من امر غير واحد . فان ذلك مما يشوشه ويدهشه ويوجب له التقاعد والتكاسل عن الاخذ في هذا الطريق وينسد عنه باب السلوك بالكلية ولو دفع الانسان الى تصحيح اكثر تلك المعاني التي ذكرها اصحاب المناظرة وكونه مامورا بمراعاتها والقيام بمقتضى حقائقها بالادلة الشرعية على طريقة علماء الظاهر لم يحصل منه وفاء بذلك بل يعجز عن تصورها ايضا . وغاية ما طلب من العبد امر واحد وهو اخلاص العبودية لله تعالى اسلاماً وايمانا واحسانا، ولا مانع للعبد من اقامتها في مقاماتها الا هواه المتبع — وهوى كل واحد ظاهر له اذ هو حقيقة نشأته ومجبول خلقته ، وكيف يخفى على الانسان حالة اذا كان منصفا من نفسه، ناصحا لربه ، عاملا في صلاح قلبه . فاذا اعتاد المريد مخالفة نفسه . . . (انظر ص ١١٤) ولو بلغ في العلم والعمل كل مبلغ . وليس الضرر الذي يتوهمه

المريد في ذلك باعظم من ضرره الحاصل له من علمه بخلاف الصدق ومن ضرره الواقع به من جموده على اعتقاد ما يظهر له انه جلية الحق ؟ بل لا ضرر عليه في ذلك . بل له في ذلك اعظم المنافع ان عقل وعرف .

فاذا عمل المريد على هذا كله ملتزما للصدق في حاله لم يخله الله تعالى ونفسه بل يبعث له من يسدده ويسبب له من يعينه ويؤيده . فعلى العبد البداية ومن الله تعالى التمام والنهاية .

وهذا عندي هو الطريق الى التحقيق وهي في غاية القرب لان اكثرها سلوك روحاني وباقيها من المعاملات البدنية . وسالكها لا يخاف على نفسه من وجود قاطع ولا مانع لازمها . والتعلق بالله تعالى والافتقار اليه والاعتماد عليه ورؤية النعم منه ما يكفيه كل مؤنة في ذلك . وما عداها من الطرق التي توهمها الناس وراموا السلوك عليها محفوفة بالمخاوف كثيرة المهالك والمتالف . سلوكهم فيها بخلاف [210] الصدق وعملهم بما يضاد طريق الحق من رويتهم لانفسهم ورجوعهم الى حولهم وقوتهم. وقد قال ابن عطاء الله رضي الله عنه : «ما توقف مطلب انت طالبه بربك ولا تيسر مطلب انت طالبه بنفسك ».

واذا بلغنا الغرض من هذا النمط فلنرجع الى ما كنا بسبيله من امر الشيخ والكتب ونقول :

الطائفة التي اعتمدت الكتب غالطة من وجهين : احدهما انهم لم يصححوا قصدهم باستعمالهم للمعاني التي ذكرناها في اول هذه النبذة . وصحة القصد هو الاساس الذي ينبني عليه امر السلوك. والثاني انهم استعملوا في سلوكهم اشياء ليست من شان سالكي هذا الطريق بلا شيخ مربي كاستدامتهم للصيام والوصال والخروج بالكلية عن الاهل والمال والتقطع في المفازة والجبال وتركوا العمل اللائق بهم من الوقوف على حد الشرع ومجاهدة انفسهم — ولا شيء اشد على النفس من متابعة الشرع وهو التوسط في الامور كلها . فهي ابدا متلفتة الى احد الطرفين لوجود هواها فيه .

والطائفة التي اعتمدت الشيخ غالطة من وجهين ان اشترطوا الشيخ وتربيته وقصروا الامر عليه دون شيخ التعليم : احدهما انهم ضيقوا طريق السلوك

باشتراطهم لهذا الشرط ، والامر اوسع من ذلك كما تقدم. والثاني انهم الزموا خصومهم طلبه لا على الوجه الذي ذكرناه — وانى لهم بذلك — فتضيع اوقاتهم في الطلب ولا ينجح لهم قصد ولا ارب .

والطائفتان عندي غالطتان من كونهم دققوا في هذا الامر واستوعروا طريق السلوك بالتزامهم صحة اكثر تلك الترتيبات والاوضاع التي اشتملت عليها المناظرة وقطعوا ازمانهم النفيس في تامين الحجج من غير مبادرة الى سلوك سواء المنهج — ولو صدقوا الله لكان خيرا لهم .

فهذا ما ظهر لي ان اذكره لكم تادية لحق سوالكم والتماسا لبركة دعائكم ، وفيه كفاية وغنية بل فيه فضول كثير تداعى بعضه الى بعض حرصا على تمام الفائدة . ونحن نستغفر الله تعالى من جميع ذلك .

وانما اوردناه هكذا على اسلوب الخطاب وعدلنا في اكثره عن الطريق البرهانية ، وان كان حال اصحاب المناظرة يقتضي ذلك ، لاني لم ار احدا من اهل هذا الطريق سلك طريق البرهان في اكثر مسائلهم — وانما فيهم الاسوة والقدوة . وايضا فان اكثر المطالب فيه تتعذر اقامة البرهان في هذه المعاني بخلاف ذلك . فلا بد ان توخذ فيه المقدمات مسلمة . ومثل هذا لا يتقنع به الطالب الذي من شانه البحث والنظر . وقد قالوا :« اقوى العلوم ابعدها عن الدليل». وايضا فان الداعي الى الله تعالى اذا توصل الى ذلك باي وجه امكنه لا يلزمه اقامة دليل على ما يكون فيه من الدعاوي . واذا لم يلزم كان في ذلك متبرعا والتبرع فيه نوع من التكلف ولا يسلم من الدخل . ولا ينبغي للمدعي ايضا ان يطلب ذلك من الداعي اذا لم يعلم منه ما يقدح في دعائه مع اتباع هوى او ميل الى حظ . ولا ينبغي للمدعي ان يبحث عن ذلك.وانما يحب المولى من عبده ان يجيب لكل من دعاه اليه من غير وجدان حرج في صدره [211] من ذلك . ولا يطلب منه اقامة دليل ولا برهان . وبهذا يتبين مقدار عظمة المولى في قلب عبده وبه يتحقق طهارة ذات العبد وطيب عنصره وكرم سجيته . واليه الاشارة بما ورد في الخبر : المومن غر كريم والفاجر خب لئيم . وبما قال بعضهم : من خدعنا بالله انخدعنا له . وقد قيل : التصوف اخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام .

فان لم يقنع بهذا وطلب التوثق لنفسه في الادلة والبراهين كان مناضلا عن نفسه ذا روغان عن عبودية ربه ، وذلك من لوم اصله ورداءة فطرته وخبث جبلته وهو دليل الخذلان وعلامة النقصان والخسران — اعاذنا الله من ذلك وحمانا من اسباب المهالك بمنه وفضله .

ونساله جل وعلى ان يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . والسلام مقاد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته » . انتهى .

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

INDEX DES NOMS PROPRES

فهرس الاعلام

انجزت المطبعة الكاثوليكية طبع
هــذا الكتاب في الثلاثين من
كانون الثاني سنة ١٩٥٨

٢٨٨٧ — ٢ | ٣٠ — ١ — ٥٨

d) pour la position de la «hamza», on écrit سئل (= سأل) ou يسئل (= يسأل), etc.; on écrit de même لاكن هاذا.

3) Afin de permettre aux lecteurs ignorant le français de lire aisément le texte arabe des R.Ṣ., nous avons adopté un système de sigles arabes qui est le suivant:

إ : ms. 740, 2°, de l'Escurial.

ف : ms. de Si al-'Abed al-Fehrī al-Fāsī.

ق : ms. 787 de la Qarawīyīn.

ر : ms. 1073 (1717D) de la biblioth. de Rabat.

س : ms. de Si 'Abd-es-Salām ben Sūda.

خ : placé après un des sigles précédents indique une variante relevée par le copiste en marge de son ms.

ط : placé après un des sigles précédents indique une note marginale du copiste.

— : suivi d'un mot indique que ce mot a été omis.

+ : suivi d'un mot indique que ce mot a été ajouté.

Ce qui est entre crochets [ ] vient de nous.

Nos références coraniques renvoient à l'édition Fluegel.

Ces deux abrégés se rapprochent jusqu'à s'identifier pendant la première moitié, puis ils se séparent; la version du ms. 1071 combine alors les deux autres versions, insérant dans la version des R.Ṣ. des passages de la version Wanšarīsī. Pourquoi deux abrégés différents et de qui sont-ils l'œuvre? Le ms. 1071 est dit avoir été copié directement sur l'original ʿabbādien; d'autre part, il est certain que le Recueil des R.Ṣ. a été constitué du vivant d'Ibn ʿAbbād. Les deux abrégés ont donc été reconnus par Ibn ʿAbbād. En est-il directement l'auteur? Nous l'ignorons.

Dans notre Appendice, nous n'avons reproduit que la version Wanšarīsī, négligeant la version du ms. 1071 qui n'apporte rien de nouveau par rapport aux deux autres. Nous regrettons de donner de la version W. un texte non critique, copié sur l'édition lithographiée à Fès (T. XII, pp. 201-211). Nous avions déjà quitté le Maroc quand nous prîmes connaissance de cette version, et n'avons plus eu la possibilité de contrôler le texte lithographié d'après les mss. du *Miʿyār*.

Remarques générales.

1) Les références aux R.Ṣ. de notre Étude sur Ibn ʿAbbād ayant été faites d'après notre manuscrit personnel, nous avons reproduit ici en marge la pagination, en chiffres arabes, de ce manuscrit.

2) Pour certains mots, nos mss. maghrébins ont une orthographe qui diffère de celle adoptée généralement en Orient. Voici quelques exemples:

a) le « alīf maqṣūra (ى) est souvent remplacé par un « alīf ṭawīla » (ا): أعلا – أعدا – وفا – يُبنا – يترااا – داعا etc...

b) la troisième personne singulier, masc. et fém. des verbes défectueux à «wāw» se terminent par un « alīf ṭawīla »: يرجوا – يخلوا – تمحوا – تسموا

c) le « tā marbūṭa (ة) est remplacé par un «tā ṭawīla» (ت) dans: دعات – عدات – مراعات – موالات etc...

4; 30, n. 5; 57, n. 4. Au reste, tous ces mss. sont excellents et sauf dans de très rares cas, les variantes relevées sont de peu d'importance.

Les Appendices.

Au texte des *Rasāil aṣ-Ṣuġrā*, tel qu'il se trouve dans les mss. décrits ici, nous avons ajouté trois Appendices:

1) Le premier contient le texte inédit d'une réponse d'Ibn 'Abbād sur le *taqlīd,* dont nous avons traduit une partie dans notre Étude sur Ibn 'Abbād. Cette réponse a été probablement extraite d'un ouvrage, aujourd'hui perdu semble-t-il, ouvrage que les biographes attribuent à notre auteur et qui était formé des réponses faites par lui à des questions théologiques ou juridiques posées par des disciples. Nous l'avons trouvée dans le ms. 1071 (891D) de Rabat.

2) Le second Appendice donne le texte de quelques lettres d'Ibn 'Abbād que Wanšarīsī a reproduites dans son *Mi'yār.* Ces lettres sont adressées à un certain Abū-l-'Abbās al-Marrākušī que nous n'avons pu identifier. Nous ignorons les sources auxquelles Wanšarīsī a emprunté ces lettres qui ne font pas partie des Recueils officiels. Elles ont été recopiées en partie dans le ms. 1073 (1717D) de Rabat.

3) Enfin un troisième Appendice reproduit une version de la Lettre XVIe adressée à Šāṭibī. Nous l'empruntons aussi au *Mi'yār* de Wanšarīsī. Il existe de cette lettre à Šāṭibī trois versions, identiques quant au fond, mais assez différentes dans la forme: une première version est commune à tous les mss. du Recueil des R.Ṣ.; une seconde est celle du *Mi'yār*; enfin une troisième se trouve dans le ms. 1071 (891D) de Rabat. Comparées entre elles, ces trois versions se présentent ainsi: la version Wanšarīsī est la plus longue et semble représenter le texte initial envoyé à Šāṭibī, en réponse au questionnaire adressé par lui à quelques docteurs de Fès. Les deux autres sont manifestement des abrégés dans lesquels on a repris le sujet pour lui-même, indépendamment du questionnaire de Šāṭibī.

8) Nous n'avons pas tenu compte non plus du ms. privé de Moulay Idrīs al-Idrīsī de Fès, copié en date de 1298/1881; écriture fāsīe très fine. Il se rattache à la famille F,S.

9) Le recueil factice 1071 (891D) de la bibliothèque de Rabat, contient (fol. 43r-49v) quelques fragments des R.S. qui sont, semble-t-il, les restes d'un ms. qui fut autrefois complet. Ils sont très proches du ms. R. La IXe lettre y est complète et nous en avions tenu compte lors de sa publication dans *Al-Machriq*. Il nous a paru inutile de surcharger ici notre apparat critique en mentionnant ce ms. qui n'apporte rien de nouveau.

De ces neuf mss. nous n'avons donc retenu, pour l'établissement de notre texte, que les cinq premiers, E, F, Q, R et S. Ceux-ci se regroupent de la manière suivante:

E, de caractère plus archaïque, représente une première famille qui ne peut être ni l'origine de F,Q,R,S,—ses omissions le prouvent (vg. pp. 4, n. 9 bis; 20, n. 3; 28, n. 6; 32, n. 6, etc.)—ni directement dépendant d'eux, à cause de ses lectures différentes en 2, n. 7; 4, n. 5; 10, n. 3; 12, n. 6, n. 8; 26, n. 9; 30, n. 5; 34, n. 3, etc.

F,Q,R, se rencontrent toujours contre E dans les variantes importantes; ils ne se séparent que sur des points secondaires où se lit la marque du copiste et non celle d'une tradition différente. Ils forment donc une seconde famille.

S ne s'éloigne de F,Q,R, (et surtout de F) que par les deux anomalies signalées plus haut, peut-être sous l'influence du ms. X, lequel se rapproche de E sans cependant s'identifier avec lui.

A cause de ses archaïsmes et parce qu'il est l'œuvre d'un copiste de métier qui transcrit matériellement, E a été choisi par nous comme texte de base; nous l'avons suivi chaque fois que cela ne nuisait pas au sens. Mais on n'a pas hésité à suppléer à ses omissions en faisant appel aux autres, quand ces omissions étaient manifestement l'effet d'une inattention. Nous nous en sommes abstenu quand nous pressentions, dans FQRS, l'intervention du copiste lettré qui a pu compléter le texte — surtout des citations — en ayant recours à son savoir propre, comme dans S, p. 4, n. 6, ou dans F, pp. 29, n.

Ces cinq parties ont été copiées par Muḥammad b. aṭ-Ṭālib b. Muḥammad Ibn Sūda (m. 1294/1877). Suivent six feuillets(fol. 44v-50r) écrites de différentes mains sur des sujets variés.

Malgré sa date tardive, ce ms. des R.Ş. offre des particularités importantes. Son copiste a eu sous les yeux très certainement le ms. F auquel il réfère explicitement (ici p. 93, n. 8). Il possédait aussi une seconde source X dont il a transcrit, en marge, de nombreuses variantes que nous avons relevées en note. A-t-il copié l'un ou l'autre de ces deux mss.? Il est certain que son texte ne s'éloigne jamais de celui de F; mais il représente deux anomalies qui le mettent à part de tous les mss.: tout d'abord il en diffère par le titre de certaines lettres et par l'incipit de la lettre XVI à Šāṭibī; ensuite — et ceci est plus important — il dispose les lettres dans un ordre différent, intercalant la lettre XVI suivie de la lettre XIII entre la VIIe et la VIIIe lettre. Faut-il expliquer ces deux anomalies par l'influence du ms. X et considérer S comme une combinaison entre X et F? La chose n'est pas invaisemblable, car Ibn Sūda n'est pas un simple copiste, mais un lettré qui a voulu peut-être établir à sa manière un texte critique. Il n'hésite pas à corriger une citation d'Ibn 'Abbād sur un texte qui lui parait meilleur (p. 91, n. 10) ou plus complet (p. 4, n. 6).

6) Le ms. 1074 (673D) de la bibliothèque de Rabat (fol. 58v-116r), décrit dans le Catalogue Allouche-Ragrāgui. «Ms. sans date», mais le papier, l'encre et l'écriture indiquent qu'il est tout à fait récent. Après collation de plusieures lettres, il nous parut ne rien apporter de neuf par rapport aux autres mss. (surtout R) et nous l'avons laissé tomber.

7) Le ms. privé de Si 'Abd-al-Ḥayy al-Kattānī qui a bien voulu permettre à un ami de nous le photographier. Écriture fāsīe très serrée mais lisible; 50 feuillets contenant 23 lignes par page. Comme l'indique la note finale, le ms. date de 1121/1709; le nom du copiste a été barré. La collation de ce ms. avec Q, R nous a montré qu'il appartenait à la même famille; n'apportant rien de nouveau, nous n'en avons pas tenu compte dans notre apparat critique.

4) Le ms. 1073 (1717D) de la bibliothèque de Rabat (R) (v. sa description dans le Catalogue Allouche-Ragrāgui). Écriture maghrébine petite et serrée; la plupart des mots y sont accentués. Comme l'indique une note finale, ce ms. a été copié par 'Abd-er-Raḥmān b. Abī-l-Qāsim b. a. 'Alī b. Aḥmad al-Ǧābirī al-Maṣṣalī qui a achevé son travail le vendredi 17 Šuwwāl 1002/1593. Al-Ǧābirī n'est pas un copiste de métier, mais un lettré comme Abū 'Abdallah al-Mahdī. A la suite des R.Ṣ. qu'il a copiées intégralement (fol. 1v-75v), il a transcrit:

a) des extraits de quelques lettres d'Ibn 'Abbād données par Wanšarīsī dans son *Mi'yār* (v. Appendice B) (fol. 76r-78v);

b) de larges extraits des R.K. qu'il regroupe par thèmes, selon un ordre totalement différent de celui adopté par Yaḥiā as-Sarrāǧ (fol. 79r-288r);

c) au milieu de ces derniers extraits, il a intercalé toute la notice consacrée à Ibn 'Abbād par Ibn as-Sakkāk dans son *Kitāb al-Asālib* (fol. 176v-188r).

5) Ms. privé de Si 'Abd-es-Salām ben Sūda de Fès (S), qui a eu l'obligeance de nous le prêter plus d'une année. Écriture fāsīe lisible; les accents sont très rares. Ce ms. qui mesure 23 × 17 cm. (25 ou 26 lignes par page) fait partie d'un recueil factice qui comprend :

a) le Commentaire d'Ibn 'Abbād sur les *Ḥikam*, s.d. (fol. 1v-140v);

b) les R.K. (fol. 1v-111r) achevées le Mardi 19 Rabī' premier 1265/1849;

c) les R.Ṣ. (fol. 1v-39r) achevées le Samedi 7 Rabī' second 1265/1849;

d) deux sermons d'Ibn 'Abbād (fol. 39r-40v);

e) des extraits de la correspondance d'Abū-l-'Abbās Aḥmad Ibn al-'Arīf avec Ibn Barraǧān et d'autres (cf. la note que nous avons publiée dans *Hespéris*, 1956, pp. 217-221).

ce ms. Ceci indique une dépendance directe par rapport à ces sources primitives.

Parmi les particularités de ce ms. signalons l'oubli des points diacritiques, notamment sur le ذ, et de nombreuses omissions qui montrent que le ms. n'a pas été collationné sur l'original après son achèvement (2). Il porte aussi des remarques marginales d'écritures différentes, dont certaines ont été relevées ici en note.

2) Ms. privé de Si Muḥammad al-'Ābed al-Fehrī al-Fāsī, conservateur-adjoint à la bibliothèque de la Qarawīyīn (F). Une note écrite au crayon sur la première page indique qu'il a été copié, en 1083/1698, par le célèbre Abū 'Abdallah Muḥammad al-Mahdī al-Fāsī (m. 1109/1698). Très belle écriture maghrébine; tous les mots y sont accentués. En marge le copiste signale des variantes ou des orthographes spéciales ou des notes marginales, qui remonteraient à la copie d'Ibn 'Abbād (*qīla kaḏa fī nusḫat aš-Šeiḫ*) ou à celle de Yaḥiā as-Sarrāǧ. Elles ont été relevées ici en note.

Nous remercions Si al-'Ābed non seulement de nous avoir communiqué son ms., mais aussi d'avoir bien voulu nous aider à le collationner en entier avec le ms. de l'Escurial.

3) Le ms. 787 de la Qarawīyīn (Q) (Catalogue Bel, nº 1449). Écriture maghrébine vulgaire, mais très lisible; assez abimé en certains endroits par l'humidité et les mites. Nous l'avons examiné sur une photo-microfilm et lors de notre passage à Fès. Ce ms., qui mesure 20×28 cm (23 lignes par page), est sans date; le copiste l'avait peut-être inscrite à la fin des R.K. qui sont copiées à la suite des R.Ṣ., mais les dernières pages des R.K. ont disparues et ont été remplacées récemment. Le ms. est cependant assez ancien: une note écrite à la première page indique qu'il a été offert en ḥaboûs à la Qarawīyīn, en 1008/1599, par le Sultan sa'ādien Aḥmad al-Manṣūr.

Notons qu'Alfred Bel mentionne dans son Catalogue (nº 1449 bis) une seconde copie des R.Ṣ, qui a disparu depuis lors.

---

2. Comme c'est le cas du Commentaire des *Ḥikam* copié dans le même Codex, ainsi que l'atteste une note marginale (fol. 182 v).

qui lui a adressé aussi la majorité des lettres formant les *Rasāil al-Kubrā*. C'est lui qui a recueilli et publié les lettres d'Ibn 'Abbād.

La date de ces lettres est incertaine. Pour des raisons qu'il serait trop long de rapporter ici, nous pouvons seulement dire qu'elles furent écrites de Salé, avant 1368.

DESCRIPTION DES MANUSCRITS.

Pour l'établissement de notre texte, nous avons pu disposer des mss. suivants:

1) Le ms. 740, 2° (fol. 138v-235v) de l'Escurial (E) décrit dans le Catalogue Derenbourg sous le titre de la première lettre (1). Outre une photo-microfilm, nous avons pu examiner ce ms. lors de notre passage à l'Escurial. Très belle écriture maghrébine, œuvre d'un calligraphe de métier qui l'avait peut-être transcrit directement pour le compte du Sultan. En tout cas, il faisait partie de la bibliothèque du Palais, quand celle-ci passa en Espagne dans les conditions qu'on connaît. Ce ms. est sans date et sans nom de copiste. Se basant sur une note écrite au début (fol. 1°) de la main du propriétaire, le Sultan Abū Fāris, Asin Palacios a cru qu'il s'agissait d'Abū Fāris le mérinide (1394-1396), ce qui donne au ms. une date proche de la mort d'Ibn 'Abbād. En réalité, comme l'indique explicitement ladite note, cet Abū Fāris est le fils d'Aḥmad al-Manṣūr, le sa'ādien (m. 1603) et le frère de Moulay Zeidān à qui la bibliothèque fut enlevée. On ne peut donc rien en conclure pour la date du ms. sinon qu'il est antérieur au XVII^e siècle. Il faut cependant considérer ce ms. comme très proche de l'original; proche sinon dans le temps, du moins par l'archaïsme de ses lectures. En effet certains de nos autres mss. relèvent, d'après des sources indirectes, des variantes, des orthographes spéciales et des notes marginales qui, selon eux, se trouvaient dans le ms. d'Ibn 'Abbād ou dans la copie faite par Yaḥiā as-Sarrāǧ, le collectionneur des R. Ṣ. Or toutes ces particularités qui seront signalées en note, se retrouvent dans le texte de

1. Aussi Brockelmann (S. II, 358) l'a-t-il classé comme différent des R.Ṣ. sous le titre «*Rasāil* über einzelne Stellen des *Qūt al-qulūb*».

INTRODUCTION

Ibn 'Abbâd de Ronda (1333-1390) est l'auteur de deux recueils de lettres de direction spirituelle, appelés respectivement *ar-Rasāil al-Kubrā* et *ar-Rasāil aṣ-Ṣuġrā*. Le premier, qui est le plus volumineux, a été lithographié à Fès en 1320 H. Il contient 38 lettres formant en tout 262 pages. Nous publions aujourd'hui le second recueil, resté jusqu'ici inédit, et presque inconnu en dehors du Maghreb.

Ailleurs (1) nous avons étudié longuement ces lettres et dit leur importance dans la littérature soufie. Il n'est donc pas nécessaire d'y revenir ici. Notons seulement les conclusions de notre étude en ce qui concerne la date et les destinataires des R. Ṣ.

Date et destinataires.

A l'exception de la dernière, adressée à Abū Isḥāq aš-Šāṭibī, aucune de ces Lettres ne porte dans son envoi le nom du destinataire, comme le veut la coutume. Grâce à un passage des *Rasāil al-Kubrā* et à Ibn as-Sakkâk (2), nous avons pu identifier ces destinataires. Il semble que les Lettres I à VI inclusivement aient été adressées à un certain Muḥammad ben Adība, que nous ne connaissons pas autrement; les autres, de VII à XV, seraient adressées à Yaḥiā as-Sarrāğ (m. 1403), principal correspondant d'Ibn 'Abbād,

1. Dans un ouvrage sur l'ensemble des œuvres d'Ibn 'Abbâd, qui paraitra prochainement. Cet ouvrage, ainsi que les Lettres que nous publions ici, ont formé la matière d'un mémoire présenté à l'École pratique des Hautes-Études de Paris. Cf. aussi notre article dans *Al-Machriq*, Mars-Avril 1955, pp. 129-148.

2. *Rasāil Kubrā*, p. 259; Ibn as-Sakkâk, *Kitāb al-asālīb*, ms. 384 de l'Escurial, fol. 126 r., 128 v.

RECHERCHES
PUBLIÉES SOUS LA DIRECTION DE
L'INSTITUT DE LETTRES ORIENTALES DE BEYROUTH
Tome VII

IBN 'ABBÂD DE RONDA
(1333 - 1390)

LETTRES DE DIRECTION SPIRITUELLE

(AR-RASĀIL AṢ-ṢUGRĀ)

Texte arabe édité par

PAUL NWYIA S.J.



IMPRIMERIE CATHOLIQUE
1958

LETTRES DE DIRECTION SPIRITUELLE

(AR-RASAIL AṢ-ṢUĠRA)

LETTRES DE DIRECTION SPIRITUELLE

(AR-RASĀIL AṢ-ṢUĠRĀ)

PAR

IBN 'ABBÂD DE RONDA

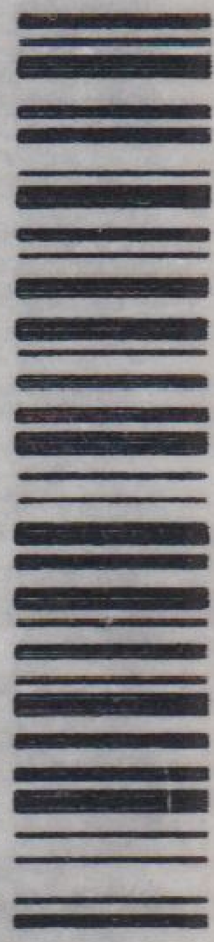
(1333-1390)

TEXTE ARABE ÉDITÉ

PAR

PAUL NWYIA, S.J.





IMPRIMERIE CATHOLIQUE
BEYROUTH

